

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٥١٢٧

الفقر في الشعر الجاهلي

إعداد الطالب
جمال علي محمود حسن

إشراف
الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن

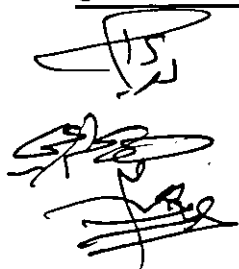
قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية .

١٩٩٣

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٥/٨/١٩٩٣ م وأجيزت

أعضاء اللجنة

التوقيع



- ١- الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن رئيسا
- ٢- الأستاذ الدكتور هاشم ياغي عضوا
- ٣- الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي عضوا

الإهداء ،،

إلى والدي العزيزين اللذين كللاني بالرعاية ،، ،،

إلى كل من قدم لي عوناً مع خالص التقدير ،، ،،

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
فهرس المحتويات	د
ملخص باللغة العربية	ز
مقدمة	ح
الفصل الأول : مفهوم الفقر في اللغة والشعر الجاهلي	٢١-١
١- الفقر في اللغة	٢
٢- مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي	٦
الفصل الثاني : أسباب الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي	٦٣-٢٢
١- الأسباب البيئية والاقتصادية	٢٣
٢- الأسباب الاجتماعية	٥٢
٣- الأسباب النفسية	٦٢
الفصل الثالث : مظاهر الفقر في الشعر الجاهلي	١١٠-٦٤
١- الصعلكة	٦٥
٢- الغزو والحروب والغارات	٧٨
٣- الكرم	٩٤
الفصل الرابع : صورة الفقراء في الشعر الجاهلي	١٦٠-١١١
١- طوائف شتى من الفقراء :	
١- الضريك	١١٣
٢- القرضوب	١١٥
٣- المعصب	١١٥
٤- المجرف	١١٦
٥- المخذول	١١٧
٦- المدفع	١١٨
٧- الضعفاء	١١٨
٨- كبير السن	١٢٠

الموضوع	الصفحة
٩- الضرير	١٢١
١٠- الغارم	١٢٢
١١- المولى الفقير	١٢٣
١٢- الجار الفقير	١٢٤
١٣- الضيف والمستبح وابن السبيل	١٢٦
١٤- الجادي	١٢٩
٢- الفقراء من أصحاب الحرف :	١٣١
١- الصائد	١٣١
٢- المشتار	١٣٧
٣- الحادي	١٤١
٤- الراعي	١٤٣
٥- العضروط	١٤٥
٦- الحداد	١٤٦
٣- الرقيق من الإماء والعبيد	١٤٦
٤- الأرامل والأيتام	١٥٤
أ- الأرامل	١٥٤
ب- الأيتام	١٥٧
الفصل الخامس : آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي	١٦١-١٩٥
١- الآثار الجسدية	١٦٢
٢- الآثار الاجتماعية	١٧٨
٣- الآثار النفسية	١٩٠
الفصل السادس : مدافع الفقر في الشعر الجاهلي	١٩٦-٢١٣
١- الرحلة والطواف	١٩٧
٢- الحروب والغارات	١٩٩
٣- الصعابة	٢٠٠
٤- احتراف المهن	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
٩- الضرب	١٢١
١٠- الغارم	١٢٢
١١- المولى الفقير	١٢٣
١٢- الجار الفقير	١٢٤
١٣- الضيف والمستبح وابن السبيل	١٢٦
١٤- الجادي	١٢٩
٢- الفقراء من أصحاب الحرف :	١٣١
١- الصائد	١٣١
٢- المشتار	١٣٧
٣- الحادي	١٤١
٤- الراعي	١٤٣
٥- العضروط	١٤٥
٦- الحداد	١٤٦
٣- الرقيق من الإماء والعبيد	١٤٦
٤- الأرامل والأيتام	١٥٤
أ- الأرامل	١٥٤
ب- الأيتام	١٥٧
الفصل الخامس : آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي	١٦١-١٩٥
١- الآثار الجسدية	١٦٢
٢- الآثار الاجتماعية	١٧٨
٣- الآثار النفسية	١٩٠
الفصل السادس : مدافع الفقر في الشعر الجاهلي	١٩٦-٢١٣
١- الرحلة والطواف	١٩٧
٢- الحروب والغارات	١٩٩
٣- الصلابة	٢٠٠
٤- احتراف المهن	٢٠٠

الموضوع	الصفحة
٥- الكرم	٢٠٠
٦- الميسر	٢٠١
٧- الواد	٢٠٧
٨- الصبر وقوة الإرادة	٢١٢
الفصل السابع : أخلاقيات ومواساة	٢١٤-٢٢٣
أ - أخلاقيات فقراء	٢١٥
ب- مواساة وعزاء	٢١٩
خاتمة	٢٢٤
المصادر والمراجع	٢٢٦
الملخص بالإنجليزية	٢٣٥

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى بحث ظاهرة الفقر وإبراز صورة الفقراء ومعاناتهم في الشعر الجاهلي . وتمييط اللثام عن أسرار هؤلاء الفقراء من الناس ، الذين يشكلون السواد الأعظم من المجتمع الجاهلي ، حيث كانوا يعيشون في شقاء وحرمان شديدين ، فتعسوا بفقرهم وقلة مواردهم وعدم توافر قدر كفايتهم من وسائل المعيشة .

فتناولت هذه الدراسة مفهوم الفقر ومعانيه ومعاييره الاجتماعية في العصر الجاهلي . وبحثت في الأسباب البيئية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية للفقر . وتناولت مظاهر الفقر المتمثلة في الصعلة والحروب والكرم . وأبرزت صورة الفقراء وطوائفهم وأساليب حياتهم ، وأخلاقياتهم . وبحثت - أيضا - في آثار الفقر الجسدية والاجتماعية والنفسية . وبحثت في وسائل دفع الفقر والتخفيف من حدته وشروره .

فجاءت هذه الدراسة معتمدة شعر الشعراء الجاهليين في استجلاء ظاهرة الفقر في العصر الجاهلي .

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ،،،

فلقد عرفت الإنسانية الفقر والفقراء منذ أزمنة ضاربة في أغوار التاريخ . وما زالت ظاهرة الفقر مشكلة اجتماعية كبيرة ، يعاني منها كثير من الشعوب والمجتمعات والأفراد ؛ ويتجرع أصحاب الفقر هموما مادية ومعيشية وأخرى اجتماعية ونفسية ، تقض مضاجعهم وتتغص عليهم حياتهم . ولعل وجود الطبقة المقيمة المتمثلة في وجود الغني المترف بينما جاره فقير محروم من متاع الدنيا غير منعم ولا مترف ، تخلق نتائج وآثارا اجتماعية ونفسية خطيرة تسلك بفتة كبيرة من المجتمع إلى انعدام الثقة بالنفس والتحلل من المسؤوليات وفقدان الذات ، مما يسبب في - النهاية - آثارا سلبية على بناء المجتمع وتماسكه . خصوصا إذا ما تعلق الموضوع بالمجتمعات الفقيرة في ثرواتها الطبيعية ومواردها الاقتصادية .

والحقيقة أن الفقر يختلف نسبيا من مجتمع لآخر ومن بلد إلى بلد حسب توافر الموارد الاقتصادية واستغلالها وتوزيع الثروات بين الأفراد . والعرب في العصر الجاهلي عرفوا الفقر والفقراء مثل باقي الشعوب ؛ وكان الفقر يحتل مساحة كبيرة من قاطني الجزيرة العربية التي كانت فقيرة في مواردها وثرواتها . فكان الفقراء يؤلفون السواد الأعظم من المجتمع الجاهلي . والشعراء الجاهليون ، وهم لسان حال بيئتهم ، يعكسون في شعرهم خصب البلاد وجدها وفقر الناس وغناهم .

فجاءت هذه الدراسة لبحث ظاهرة الفقر في الشعر الجاهلي ، لتبين مفهوم الفقر وصورة الفقراء كما بدت في شعر الشعراء الجاهليين . ولم يسبق أن بحثت الظاهرة كما بدت في الشعر الجاهلي ولم تفرد بها دراسة مستقلة أو بحث متخصص .

ومن أهم المصادر التي بنيت عليها هذه الدراسة : معاجم اللغة ، وأفادت منها في تبين مفهوم الفقر ومصطلحاته ، وأفادت من دواوين الشعر الجاهلي ، والمجموعات الشعرية كالمفضليات للمفضل الضبي والأصمعيات للأصمعي ، وكتب الحماسة كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري وحماسة البصري والحماسة الشجرية ؛ وأفادت من الكتب التاريخية والأدبية التي تناولت العصر الجاهلي وأحداثه .

ومن المراجع الحديثة التي أفادت منها هذه الدراسة : كتابا الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن : "الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث" و "الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي" . وأفادت من كتاب محمد الحوفي "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، ومن كتاب يوسف خليف "الشعراء الصبعاليك في العصر الجاهلي" ، وغيرها من المراجع والدراسات الأدبية والتاريخية التي تناولت العصر الجاهلي .

وجاءت هذه الدراسة في سبعة فصول :

الفصل الأول : يتناول مفهوم الفقر في اللغة والشعر الجاهلي ويتبين مصطلحات الفقر في اللغة وأشعار الجاهليين .

الفصل الثاني : يبحث في أسباب الفقر البيئية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية كما بدت في الشعر الجاهلي .

الفصل الثالث : يدرس المظاهر الكبرى للفقر في العصر الجاهلي من الصعلة والغارات والحروب والكرم كما بدت في الشعر الجاهلي .

الفصل الرابع : يتناول صورة الفقراء وطوائفهم في الشعر الجاهلي .

الفصل الخامس : يدرس الآثار الجسدية والاجتماعية والنفسية للفقر كما بدت في الشعر الجاهلي .

الفصل السادس : يبحث في وسائل الجاهليين في دفع الفقر والتخفيف من حدته كما أظهرها الشعر الجاهلي . فكانت من هذه الوسائل : الرحلة والطواف والتنقل والإرتحال ، والغزو والغارات ، واحتراف المهن ، والكرم والميسر ، والوَأَد ، والصبر وقوة الإرادة .

الفصل السابع : يوجز بعض أخلاقيات الفقراء ، مثل غنى النفس والكرم والعفة والأمانة والوفاء والعزة . ثم يقف على بعض مظاهر المواساة والعزاء للفقراء ؛ فالموت نهاية كل حي غني أو فقير .

وأتبعت هذه الفصول بخاتمة توجز أهم نتائج الدراسة . ثم أوردت قائمة بالمصادر

والمراجع التي اعتمدتها في دراستي هذه .

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص شكري وامتناني إلى الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث ، فأمدني بملاحظاته وتوجيهاته التي أضاعت لي الطريق الصعب .

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الإمتنان إلى الأستاذ الدكتور هاشم ياغي والأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة . جزاكم الله عني خير الجزاء وأتمه .

وما توفيقي إلا بالله

١٩٩٣/٨

الفصل الأول

مفهوم الفقر في اللغة و الشعر الجاهلي

الفصل الأول

مفهوم الفقر في اللغة والشعر الجاهلي

-١-

الفقر في اللغة

الْفَقْرُ وَالْفَقْرُ ضد الغنى (١) . وقال ابن سيده : وقدره أن يكون له ما يكفي عياله (٢) . أو الفقير من يجد القوت (٣) . ورجل فقير من المال ، وقد فَقُرَ ، فهو فقير والجمع فَقَرَاء ، والأنثى فقيرة من نسوة فَقَائِرَ وَفَقَرَاء (٤) . وَفَقْرٌ يَفْقُرُ إذا قل ماله (٥) . وقالوا افتقر كما قالوا اشتد ، ولم يقولوا فَقُرَ كما لم يقولوا شدد ، ولا يستعمل بغير زيادة . وأفقره الله من القَفَر فافتقر (٦) .

وقال ابن السكيت : الفقير الذي له بُلْغَةٌ من العيش ، قال الراعي يمدح عبد الملك بن مروان ويشكو إليه ساعاته :

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفَقَّ الْعِيَالُ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبْدٌ (٧)

فالفقير له حلوبة .

وقيل : الفقير يكون له بعض ما يقيمه (٨) ، والشاهد على ذلك بيت الراعي السابق .
وقيل : الفقير الذي له ما يأكل (٩) .

- (١) جمهرة اللغة لابن دريد ، ٣٩٨/٢ . والمحكم ، ٢٣١/٦ . ولسان العرب ، ٦٠/٥ .
- والقاموس المحيط ، ١١١/٢ . وتاج العروس ، ٣٣٤/١٣ ، مادة "فقر" .
- (٢) المحكم ، ٢٣١/٦ .
- (٣) تاج العروس ، ٣٣٤/١٣ .
- (٤) لسان العرب ، ٦٠/٥ . وينظر الصحاح ، ٧٨٣/٢ .
- (٥) المصباح المنير ، ٦٥٥/٢ مادة "فقر" .
- (٦) لسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٦/١٣ .
- (٧) السابقان . وينظر تهذيب الألفاظ ، ص ١٥ .
- (٨) تهذيب الألفاظ لابن السكيت ، ص ١٥ . ولسان العرب ، ٦٠/٥ .
- (٩) لسان العرب ، ٦٠/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٤/١٣ .

فالفقير له بعض ما يكفيه أوله بُلْغَةً من العيش . والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ به من العيش ، زاد الأزهرى : ولا فضل فيه . والبلاغ : الكفاية . وتقول : له في هذا بلاغٌ وبُلْغَةٌ وتَبَلُّغٌ أي كفاية (١) . وتَبَلَّغَ بالقليل : اكتفى به ، وما هي إلا بُلْغَةٌ أَتَبَلَّغُ بها (٢) .

ويمكن أن نقول أن البلغة من العيش هي عيش الكفاف . وكما جاء في بعض كتب الفقه والتفسير أن الفقير عنده ما يكفيه للحال (٣) ، والفقير يملك قوت يومه (٤) ، أو الذي يجد القوت (٥) ، والفقير هو من يملك أقل من النصاب (٦) ، وإن كان صحيحاً ذا كسب ولديه حاجته الأصلية من مسكن وأثاث وثياب وما إلى ذلك . وقيل العبرة في الحاجة ولو ملك نصاباً أو نصباً (٧) .

فالفقير من له بلغة من العيش . ومن له دون البلغة فقير أيضاً . وبعبارة أخرى من يملك دون الكفاية فقير (٨) . فالفقير "من لا يملك إلا أقل القوت" (٩) . والفقير الذي "لا شيء له" (١٠) ، أو "لا شيء له البتة" (١١) .

-
- (١) لسان العرب ، ٤٢١/٨ "بلغ" .
 - (٢) أساس البلاغة ، ٦٢/١ ، مادة "بلغ" .
 - (٣) تفسير النسفي ، ٦٥٩/١ .
 - (٤) بدائع الصنائع للكاتاني ، ٩٠٢/٢ .
 - (٥) شرح السنة ، للبغوي ، ٨٨/٦ .
 - (٦) والنصاب : ما نصبه الشارع علامة على وجوب الزكاة . ويشترط لوجوب الزكاة أن يبلغ المال المملوك نصباً . فعلى سبيل المثال : أول نصاب الإبل خمس . وأول نصاب البقر ثلاثون . وأول نصاب الغنم أربعون . وأول نصاب الذهب أربع وثمانون غراماً

- (٧) الفقه على المذاهب الخمسة ، محمد جواد مغنية ، ص ١٧٧ .
- (٨) ينظر مثلاً : المغني ، لابن قدامة ، ٤٢١/٦ . والفقه على المذاهب الخمسة ، ص ١٧٨ .
- (٩) المعجم الوجيز (معجم حديث) مادة "ققر" .
- (١٠) النهاية في غريب الحديث ، ٤٦٢/٣ . ولسان العرب ، ٦٠/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٦/١٣ . وورد ذلك في كتب الفقه ، ينظر مثلاً : شرح فتح القدير ، لابن الهمام الحنفي ، ٢٦١/٢ .
- (١١) الافصاح في فقه اللغة (معجم حديث) ، ص ٦٩٢ .

فالفقير هو الفقير وإن اختلفت المسميات والأوصاف والعبارة في الحاجة (١) .
والفقير عند العرب المحتاج . قال الله تعالى : " أنتم الفقراء إلى الله " (٢) ، أي المحتاجون إليه (٣) .

وجاء في تعريف الفقر : الحاجة ، وفعله الافتقار ، والنعت فقير . وفي التنزيل العزيز : " إنما الصدقات للفقراء والمساكين " (٤) . وقيل : وكان الفقير سمي فقيراً لزمانة تصيبه مع حاجة شديدة تمنعه الزمانة من التقلب في الكسب على نفسه ، فهذا هو الفقير (٥) .

والمفقر : وجوه الفقر لا وأحد لها . وشكا إليه فقوره أي حاجته . وأخبر فقوره أي أحواله . وأغنى الله مفقره أي وجوه فقره . ويقال سد الله مفقره أي أغناه وسد وجوه فقره (٦) .
يقول الشماخ :

لَمَالُ الْمَرْءِ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أَعْفَافُ الْقُنُوعِ (٧)
والمفقر : جمع فقر على غير قياس كالمشابه والملاح ، ويجوز أن يكون جمع مفقر مصدر

(١) وجاء في معنى الحاجة والمحوج والإحواج : وهي من الفقر ، وفيها بقية من نشب لا يغمره ولا يغمر عياله ، تهذيب الألفاظ ، لابن السكيت ، ص ١٥-١٦ . وينظر في أسماء الفقر وأوصاف الفقراء : تهذيب الألفاظ ، ص ١٥ وما بعدها . وجواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر ، ص ٦٥-٦٦ . وفقه اللغة وأسرار العربية ، لأبي منصور الثعالبي ، ص ٤٢-٤٣ .

(٢) سورة فاطر : ١٥ .

(٣) لسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٧٨٣/١٣ ، مادة "فقر" .

(٤) سورة التوبة ، ٦٠ .

(٥) قبل السابق .

(٦) ينظر في هذه المعاني "النوادر في اللغة" ، ص ٣٠٥ . والصحاح ، ٧٨٣/٢ مادة "فقر" والمحكم ٢٣١/٦ ، مادة "فقر" .

(٧) أساس البلاغة ، ص ٣٤٥ . والنهائية في غريب الحديث ، ٤٦٤/٣ . ولسان العرب ، ٦١/٥ . والقاموس المحيط ، ١١١/٢ . وتاج العروس ، ٣٣٧/١٣ . والفنوع : المسألة .

أفقره أو جمع مُفْقَر (١) . وقولهم فلان ما أفقره وما أغناه ، شاذ لأنه يقال في فعليهما افقر واستغنى ، فلا يصح التعجب منه (٢) .

ومعاني الفقر والفقير في المعاجم اللغوية كثيرة ، فقد قيل : رجل مُفْقورٌ وَفْقِيرٌ : مكسور الفَقَّار ، يضرب مثلاً لكل ضعيف لا ينفذ في الأمور (٣) . والفقير معناه : المفقور الذي نزعت فقره من ظهره فانقطع صلبه من شدة الفقر (٤) . ورجل فقير : يشتكي فقاره (٥) ، ورجل متفقر : يدعي الفقر (٦) .

وَفُقُورُ النفس وسُقُورُها هُمَّا ، وواحد الْفُقُورُ فَقْرٌ ، وَالْفَقْرُ الْهَمُّ وَالْجَمْعُ فُقُورٌ . ويقال : شكا إليه فُقُوره . ويراد أيضاً بِالْفُقُورِ الأحوال والحاجات (٧) .
وَالْفَقْرُ عند الجرجاني : فَقْدُ ما يحتاج إليه ، أَمَا فَقْدُ ما لا حاجة إليه فلا يُسَمَّى فَقْراً" (٨) .

ويرى الراغب الأصفهاني أن أوجه استعمال الفقر في القرآن الكريم أربعة (٩) : "الأول : وجود الحاجة الضرورية ، وذلك عام للإنسان ما دام في دار الدنيا ، بل عام للموجودات كلها . وعلى هذا قوله تعالى : "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله" (١٠) . والثاني : عدم المقتنيات ، وهو المذكور في قوله تعالى : "إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله" (١١) ، وقوله تعالى : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين" (١٢) . والثالث :

(١) النهاية في غريب الحديث ، ٤٦٤/٣ . ولسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٧/١٣ .

(٢) لسان العرب ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٤٣/١٣ .

(٣) لسان العرب ، ٦٢/٥ .

(٤) السابق ، ٦١/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٨/١٣ .

(٥) لسان العرب ، ٦٢/٥ . وتاج العروس ، ٣٣٧/١٣ .

(٦) أساس البلاغة ، ص ٣٤٥ . تاج العروس ، ٣٤٤/١٣ .

(٧) ينظر النواذر في اللغة ، ص ٣٠٥ . ولسان العرب ، ٦٥/٥ .

(٨) التعريفات ، ص ١٤٧ .

(٩) المفردات في غريب القرآن ، ص ٣٨٣ . وهي في مجمع البيان الحديث . لسميح عاطف الزين ، مادة "فقر" .

(١٠) فاطر ، ١٥ .

(١١) النور ، ٣٢ .

(١٢) التوبة ، ٦٠ .

فقر النفس* ، وهو الشره المعني بقوله عليه السلام : (كاد الفقر أن يكون كفراً) . وهو المقابل بقوله (الغنى غنى النفس) . والمعني بقولهم : من عدم القناعة لم يفده المال غنى .
الرابع : الفقر إلى الله** ، المشار إليه بقوله عليه السلام : (اللهم أغنني بالافتقار إليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك) ، وإياه عنى بقوله تعالى : 'رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير' (١) .

وللفقر أسماء وصفات وردت في بعض كتب اللغة . ولا بد من الإشارة إلى بعضها حتى يسهل على الدارس تبيينها عند حديثنا عن مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي ؛ فمن أسماء الفقر : فقر ، عُدَم ، حاجة ، خلة ، مسكنة ، عُسرة ، ضيقة ، عيلة ، متربة ، خصاصة ، إملاق ، إعواز ، ضر ، بؤس ، حرمان ، مسغبة ، مخمصة ، إقتار ، إفقار ، افتقار ، اقواء ، سَغَب ، ... ومن أوصاف الفقير : فقير ، مسكين ، محروم ، عديم ، صعلوك ، ضريك ، مُمْلِق ، مُرِق ، معسر ، مرمِل ، مرمِق ، مملِق ، مسنِت ، محتاج ، معيل ، قانع ، جائع ، مقتر ، مقفر ، مجرّف ، مجلّف ، مجوّع ، جَدِب ، مجدّب ، معوز ، معدّم ، مصرم ، وغيرها (٢) .

-٢-

مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي

١- الفقر : الحاجة

جاء الفقر في مواضع من الشعر الجاهلي بمعنى الحاجة إلى الشيء (٣) . من ذلك يقول

(١) القصص ، ٢٤ .

(٢) ينظر في أسماء الفقر وصفات الفقراء : جواهر الألفاظ ، قدامه بن جعفر ، ص ٦٦ .

(٣) وهذا المعنى جاء في معاجم اللغة . وقال بذلك بعض الفقهاء والمفسرين حين جعلوا العبرة في صرف الزكاة والصدقات للفقير هي الحاجة ، لأن الفقر معناه الحاجة قال تعالى "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله" فاطر ١٥ أي المحاويج إليه . وينظر في ذلك كتاب "الفرق على المذاهب الخمسة" ، محمد جواد مغنية ، ص ١٧٧ . وينظر "شرح السنة" للبخاري ، ٨٨/٦ .

* ورد هذا المعنى في بعض مواضع قليلة من الشعر الجاهلي . ينظر مثلاً : ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٥٨ ، وحماسة أبي تمام ، ٤٤ / ٢ .

** لم يعرف هذا المعنى - على حد علمي - في الشعر الجاهلي . إنما جاء في الإسلام .

بشر بن أبي خازم الأسدي في فرسه :

وَمَا يُدْرِيكَ مَا فَقْرِي إِلَيْهِ إِذَا مَا الْقَوْمُ كَرُّوا أَوْ أَغَارُوا (١)

فمعنى " فقري إليه " : حاجتي إليه ، يريد أنه يحتاج إليه كثيراً وذلك في الحروب والغارات .

ويقول زهير بن أبي سلمى لبني سليم عندما بلغه أنهم يريدون الإغارة على غطفان :

وإِنَّا وَإِيَّاكُمْ إِلَى مَا نَسُومُكُمْ لَمِثْلَانِ أَوْ أَنْتُمْ إِلَى الصَّلْحِ أَفْقَرُ (٢)

وقال آخر في هجاء بني أسد :

ضَمَمْنَاكُمْ مِنْ غَيْرِ فَقَرٍ إِلَيْكُمْ كَمَا ضَمَّتِ السَّاقُ الْكَسِيرَ الْجَبَائِرُ (٣)

أي ضممناكم ولسنا في حاجة إليكم . ولكنها الرحمة والشفقة عليكم .

فالفقير : الحاجة ، والفقير : المحتاج إلى الشيء . وهذا جانب من مفهوم الفقر في الشعر الجاهلي .

والغالب في معنى الفقر في الشعر الجاهلي هو الحاجة المادية وسوء الأحوال المعيشية .
فالفقير ذو حاجة مُستتيسر أشعث (٤) ، وله خلة أي حاجة كما يصرح بذلك عروة بن الورد عندما وصف فقيراً هزيراً ذا صبية يشكو المفاقر في قوله :

إِذَا قُلْتُ قَدْ جَاءَ الْغِنَى حَالُ دُونِهِ أَبُو صَبِيَّةٍ يَشْكُو الْمَفَاقِرَ أَعْجَفُ
لَهُ خَلَّةٌ لَا يَدْخُلُ الْحَقَّ دُونَهَا كَرِيمٌ أَصَابَتْهُ خُطُوبٌ تَجَرَّفُ (٥)

وترد لفظة "محتاج" في الشعر الجاهلي دالة على الإنسان الفقير .

٢- الفقير من لامل له يكفيه

لم يكن لدى الفقير مال يكفيه مؤونة العيش . بينما نجد الغني صاحب مال وثروات في عيشه اتساع .

والمال : ماملكتك من جميع الأشياء ، وقيل : المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة ،

(١) ديوانه ، ص ٧٩ . وفي المفضليات ، ص ٢٤٥ : ولوا بدلا من كروا . وفي لسان العرب مادة

ركب منسوب للسليك بن السلكة ، مع اختلاف في الشطر الثاني .

(٢) شرح شعره ، ص ١٥٨ . نسومكم : نعرض عليكم ونريدكم عليه .

(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢/ ٢٠٩ .

(٤) ديوان الأفوه الأودي ، ص ١٧ .

(٥) ديوانه ، ص ١٠٨ .

ثم أطلقا على كل ما يقتني ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم ومال أهل البادية : النعم (١) . والنعم : واحد الأنعام وهي المال الراعية مثل الإبل والغنم والبقر (٢) .

وعلى هذا فكل ما يمتلكه الإنسان أو يقتنيه فهو من المال . فمن المال عند العرب في الجاهلية - غير النعم - السلاح بأنواعه مثل الرمح والسيف والدرع والفرس (٣) ، وأدوات اشتيार العسل مثل المسائب والأخراص (٤) ، وفضلات النحل (٥) ، وغير ذلك .
فهل من ملك سيفاً ورمحاً ودرعاً صار غنياً ؟ وهل من يملك المسائب والأخراص غني لأنه ملك مالاً ؟

بالطبع لا أو ليس بالضرورة باعتبار القدرة على الكسب والكفاية المعيشية والحاجة . ولا نقول - في العرف الجاهلي للغنى - لمن يملك شاة أو شاتين - وهي من المال - أنه صاحب مال لذلك فهو غني . ولكن قد نقول لمن ملك المائة أنه صاحب مال وغني .
فالغني يملك المال ، وقد يملكه الفقير ليحصل به على قوته أو ما يسد رمقه .
والمال عند الناس كالصوف في الكثرة للغني ، والقلة للفقير . كما يشير إلى ذلك علقة الفحل في قوله :

والمالُ صُوفٌ قَرَارٌ يَلْعَبُونَ بِهِ عَلَى نِقَادَتِهِ وَافٍ وَمَجْلُومٌ (٦)

فالناس بين بين منهم الغني ومنهم الفقير . وقد يفتقر الغني وقد يغتنى الفقير .

ثم إن المال له قيمته وفوائده المحببة لدى الجاهليين . فخير المال ما كف عن أهله الذم أو وقى سوء مطعم ، كما يقول بشر بن أبي خازم :

(١) لسان العرب ، مادة "مول" ، ٦٣٥/١١ - ٦٣٦ .

(٢) السابق ، مادة "نعم" ، ٥٨٦/١٢ .

(٣) ينظر ديوان حاتم ، ص ٧٥ . وأمالى القالي ، ١٢٣/٢ . والعمدة ، لابن رشيق ، ٣٦/٢ .

(٤) ينظر ديوان الهذليين ، ٢٠٨/١ .

(٥) السابق ، ٨٧/١ .

(٦) ديوانه ، ص ٦٥ . وفي المفضليات ، ص ٤٠١ . القرار : غنم صغار الأجساد والأذان الواحدة قرارة . ويقال إنها قصار الأرجل ، قباح الوجوه ، وهي على قبح أشكالها تعطي أجود الصوف . والنقد غنم صغار أيضا الواحدة : نقدة ، وأدخل الهاء لتأنيث الجمع ، والوافي الذي لم يجز . المجلوم المجزوز بالجم . والجم : ما يجز به الشعر أو الصوف . وهذا مثل ضربه . يلعبون به : يتمتعون وينظرون لكثرته عندهم .

أَلَا إِنَّ خَيْرَ الْمَالِ مَا كَفَّ أَهْلَهُ عَنْ الذَّمِّ أَوْ مَالٍ وَقَى سُوءَ مَطْعَمٍ (١)

فالمال يصرف في الحقوق ، كدفع الديون والديات ، وغيرها ، وكذلك للطعام في وقت الشدة .

ومن منافع المال قَوْلُهُ زَادَ وَآخِرُهُ ذُخْرٌ (٢) . ومن فوائده مانجده في قول حاتم الطائي :

يَفْكَ بِهِ الْعَانِي وَيُؤْكَلُ طَيِّبًا وَمَا إِنَّ تُعْزِيهِ الْقَدَاحُ وَلَا الْخَمْرُ (٣)

فمن فوائد المال أنه يفدى به الأسير . فهل من لا يملك فدية الأسير فقير ؟
يمكن القول أن الفقير من لا مال له ، وهذا من جانب . وقد نستدل على هذا من قول جابر ابن الثعلب الطائي :

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَعْرِ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صُعْلُوكًا إِذْ مَا تَمَوَّلَا (٤)

والصعلوك هنا الفقير لا مال له (٥) . فإذا ما تمول أي صار ذا مال خرج عن نطاق الفقر وأصبح غنياً .

أليس الفقير إذن بحاجة إلى مال يعتاش من ورائه أو طعام يقيم به أوده ؟
إن الفقير يتحصل على ذلك غالباً بالعطاء أو بالسؤال أو بالكسب . وكثيراً ما نجد في الشعر الجاهلي التمدح والتفاخر بتلبية حاجة الفقير وعونه ومساعدته وتقديم الأموال له . يقول الأعشى الكبير في مدح هوزة بن علي :

طَوِيلَ النَّجَادِ رَفِيعِ الْعِمَا دِيْحَمِي الْمُضَافَ وَيُعْطِي الْفَقِيرَا (٦)

٤٢٠٥٦٧

ويقول حسان بن ثابت مفتخراً بقومه :

أَعْطَى ذَوُو الْأَمْوَالِ مُعْسِرَهُمُ وَالضَّارِبِينَ بِمَوْطِنِ الرَّعْبِ (٧)

والفقير يهان في سبيله صالح المال كما ينوه الأعشى إلى ذلك في مدحه قيس بن معد يكرب الكندي :

(١) ديوانه ، ص ١٩٤ .

(٢) ديوان حاتم ، ص ٨٤ .

(٣) السابق ، ص ٨٤ .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١٠٩/١ .

(٥) وفي تهذيب الألفاظ لابن السكيب ، ص ١٦ : الصعلوك الذي لاشيء له .

(٦) ديوانه ، ص ١٤٧ .

(٧) شرح ديوانه ، ص ٨٩ .

وَأَهَانَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا وَأَسَى وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا وَسَعَى لَهَا (١)

وينوه عبد الله بن رواحة - وقد أجاب قيس بن الخطيم - إلى أهمية تلبية الحاجة للفقير في قوله :

نُحَامِي عَلَى أَحْسَابِنَا بِتِلَادِنَا لِمُفْتَقِرٍ أَوْ سَائِلٍ الْحَقِّ رَاغِبٍ (٢)

٣- الفقير لا يملك السائمة

والفقير صاحب الحاجة تحبس له السائمة ليختار منها ما يشاء . يقول علباء بن أرقم مفتخرأ :

وَكَفَيْتُ مَوْلَايَ الْأَحْمَ جَرِيرَتِي وَحَبَسْتُ سَائِمَتِي عَلَى ذِي الْخَلَّةِ (٣)

فالفقير لا يملك السَّوام " والسوام والسائمة بمعنى : وهو المال الراعي والسوم والسائمة : الإبل الراعية . والسَّوام : كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلى " (٤) يقول عروة فيمن لا يبعث سواماً :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَبْعَثْ سَوَامًا وَلَمْ يَرْحَ وَلَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهُ
فَلَقَمَوْتُ خَيْرَ لِفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ فَقِيرًا وَمِنْ مَوْلَى تَدَبَّ عَقَارِبُهُ (٥)

والفقراء ليس لهم نعم ، كما يشير إلى ذلك مرقش الأكبر في قوله :

حَارَبَ وَاسْتَعْوَى قَرَاظِبَةً لَيْسَ لَهُمْ مِمَّا يُحَازُ نَعَمٌ (٦)

٤- الفقير : من ليس لديه قوت

وتجد الفقير معصب الرأس أو البطن بالخرق لشدة جوعه ، لا طعام له ، فتراه طوافاً ، يقول الأسود بن يعفر في صائد أشعث :

مَعْصَبًا مِنْ صَبَاحٍ لَا طَعَامَ لَهُ وَلَا رَعِيَّةَ إِلَّا الطَّوْفُ وَالْعَسَسُ (٧)

فالفقراء بحاجة إلى الطعام . والشعر الجاهلي يفيض بأخبار اطعام الفقراء والمحتاجين . فيعطى الفقير القوت ، ويمنح الناقة المسنة والسمن ، كما ينوه إلى ذلك عروة بن الورد عند مخاطبته

(١) ديوانه ، ص ٧٩ ،

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٠٠ .

(٣) الأصمعيات ، ص ١٨٤ . الأمم : الأخص من الحميم .

(٤) لسان العرب مادة "سوم" ، ١٢ / ٣١١ .

(٥) ديوانه ، ص ٢٩ .

(٦) المفضليات ، ص ٢٣٩ . القراضبة : الفقراء .

(٧) ديوانه ، ص ٤١ .

زوجته التي لامته على عطائه ، في قوله :

أَفِي نَابٍ مَنَحْنَاهَا فَقِيرًا
وَفَضْلَةً سَمْنَةً ذَهَبَتْ إِلَيْهِ
لَهُ بَطْنًا بَنَّا طُنْبٌ مُصِيتٌ
وَأَكْثَرُ حَقِّهِ مَا لَا يَقُوتُ (١)

٥- الفقير : من لا مسكن له

لم يكن للفقراء مساكن أو بيوت مثل الأغنياء . وإن كانت لهم - للفقراء - بيوت ، فهي في الغالب بيوت حقيرة . فمن الفقراء من لا بيوت لهم ، فينزلون في كنف الشجر (٢) . وترى الفقراء لاصقين بالتراب من شدة الفقر وسوء الحال كما يشير إلى ذلك طرفة بن العبد في معلقته ، بعدما أصبحت قبيلته قد أفردته أفراد البعير الأجر ، وقد انفق طرفة طريقه ومثلده على الخمر واللذة ، يقول :

رَأَيْتُ بَنِي غُبَرَاءَ لَا يُنْكِرُونَنِي
وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُمَدَّدِ (٣)

فالغبراء : صفة الأرض جعلت كالاسم لها . والمراد من "بني غبراء" الفقراء الذين لصقوا بالأرض من شدة الفقر ، وهم لا ينكرون إحسان طرفة وإنعامه عليهم ، فوصلوه بعدما هجره أقاربه لطلب المعروف .

فالأغنياء لهم بيوت من الأدم ، بينما الفقراء لاصقون بالتراب .

فالفقير بحاجة إلى مأوى . يقول أبو كبير الهذلي في تأبط شراً :

يَحْمِي الصَّحَابَ إِذَا تَكُونُ عَظِيمَةً
وَإِذَا هُمْ نَزَلُوا فَمَا أَوْى الْعَيْلِ (٤)

٦- الفقير من لا خدم له

والفقير ليس لديه خدم ولا عبيد ، يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان

في قوله :

(١) ديوانه ، ص ٣٣ . الطُنْبُ : حبل طويل يشد به باب الخيمة . أو يُشَدُّ بِهِ الْوَتْدُ . الْمُصِيتُ : يسمع صوته في قرب . ومعنى الشطر الثاني من البيت الثاني : أكرمت الفقير مايقوته . ولا يستحق هذا الإكرام الشكر لأن ما يجب له علينا أكثر مما منحناه ، وهذا بعض حقه .

(٢) ينظر ديوان عروة ، ص ١٠٨ .

(٣) ديوانه ، ص ٤٥ . وشرح المعلقات السبع ، ص ٥١ . الطراف : البيت من الأدم والجمع الطروف . وكنى بتمديده عن عظمه .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢١/١ .

ولَكِنْ عِصْمَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُطِيفُ بِهِ الْمَخَوَّلُ وَالْعَدِيمُ (١)

"والمخوَّل : الذي له خوَل مثل العبيد والإماء وغيرهم . والخَوَّل : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية" (٢) . وأراد الشاعر بالمخوَّل الغني . والعَدِيم الفقير . وما دام "الغني ضد الفقير" (٣) ، فالفقير إذن لا يملك الخوَل .

٧- الفقير من لا مكسب له أو قل كسبه

والفقير من لا مال له ولا مكسب وكذلك المسكين (٤) . فالمضرور بمرض أو هزال أو نحو ذلك بحاجة إلى مساعدة . يقول ربعة بن مقروم مفتخراً بمساعدة المحتاج المضرور بمرض أو هزال :

وَأَشَعْتُ قَدْ جَفَا عَنْهُ الْمَوَالِي لَقَى كَالْحِلْسِ لَيْسَ لَهُ زَمَاعُ
ضَرِيرٌ قَدْ هَنَأَتْهُ فَأَمْسَى عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ اتِّسَاعُ (٥)

فهذا المحتاج قد جفاه ناصرؤه وضيعوه ، فهو مطروح كالحلس ليس به مضاء في الأمر ولا عزم ولا يقدر على الكسب لأنه مضرور بمرض أو ضعف .
فالفقير الذي به زمانة أو مرض .

ولكن ليس بالضرورة أن يكون الهزال سببه الفقر ، وإنما قد يكون بسبب آخر ، كالإنشغال بالخيال وإصلاحها ، كما يقول الأسعر الجعفي :

لَكِنْ قَعِيدَةٌ بَيْتًا مَجْفُوءَةً بَادٍ جَنَاجِنُ صَدْرَهَا وَلَهَا غِنَى (٦)

وكذا قول تابط شراً في الرثاء ، يتمدح بهزال الممدوح من غير بؤس أو فقر ولكن لسخائه على أضيافه وإيثاره إياهم بالطعام على نفسه ، يقول :

يَابِسَ الْجَنْبَيْنِ مِنْ غَيْرِ بُؤْسٍ وَنَدِي الْكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدِلٌ (٧)

(١) شرح شعره ، ص ١٥٤ .

(٢) لسان العرب ، مادة "خول" ، ٢٢٤/١١ .

(٣) السابق مادة "غنا" ، ١٣٦/١٥ .

(٤) وجاء هذا التعريف في بدائع الصنائع للكاساني ، ٩٠٢/٢ .

(٥) المفضليات ، ص ١٨٧ .

(٦) الأصمعيات ، ص ١٥٧ . قعيدة الرجل ، أو قعيدة بيته امرأته . الجناجين عظام الصدر مفرداً جنجن بكسر الجيمين وفتحهما .

(٧) ديوان الحماسة ، ٣٤٣/١ . المدل : الوائق بنفسه وبعده وآلاته .

وأحياناً كثيرة يكون الهزال والضعف سببه الجوع وانعدام الطعام خصوصاً في زمن الشدة وسني الجذب . ولنا حديث آخر عن الجوع وآثاره في فصل آخر إن شاء الله .

وترى كبير السن يعجز عن الكسب . فالشيخ الكبير بحاجة إلى معين يتكفل بحاجته وإلا سيشتكو الفقر . يقول حكيم بن قبيصة الضبي يعاتب ابنه بشرا الذي تركه بلا معين :

لَعَمْرُ أَبِي بِشْرٍ لَقَدْ خَانَهُ بِشْرٌ عَلَى سَاعَةٍ فِيهَا إِلَى صَاحِبِ فَقْرٍ
فَمَا جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ هَاجَزَتْ تَبْتَغِي وَلَكِنْ دَعَاكَ الْخُبْزُ أَحْسَبُ وَالتَّمْرُ (١)

فالمريض والضعيف وكذلك كبير السن ليس لهم مكسب يكفي حاجتهم ، فهم فقراء ، ويشتد فقرهم إن لم يكن لهم معين .

وكذا العاجز عن الكسب كاليتامى والأرامل من الفقراء . فاليتامى فقراء في أكثر من وجه . يقول السموأل بن عادباء في الفخر والحماسة :

رَأَيْتُ الْيَتَامَى لَا يَسُدُّ فَقُورَهُمْ قَرَانًا لَهُمْ فِي كُلِّ قَعْبٍ مُشَعَّبٍ
فَقُلْتُ لِعَبْدِيْنَا أَرِحَا عَلَيْهِمْ سَأَجْعَلُ يَتِيًّا مِثْلَ آخِرِ مُعْزَبٍ (٢)

وكذا من لم يطلب الكسب كالعاجز عنه . فالمرء إذا لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقر ، يصرح بذلك عروة بن الورد :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ شَكَا الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا
وَصَارَ عَلَى الْأَدْنَيْنِ كَلًّا وَأَوْشَكْتَ صَلَاتُ دَوِي الْقُرْبَى لَهُ أَنْ تَتَكَرَّرَا (٣)

فالفقير الذي ليس له مكسب وليس له حرفة .

و من الفقراء أيضاً أصحاب الحرف والمهن التي لا تكفي صاحبها مؤونة العيش على طول المدة . مثل الصائد ، أقصد صائد القوت ، ومشتار العسل والراعي والأجير والحداد وغيرهم . فهؤلاء لهم حرفة أو مهنة ولهم مكسب ولكن دون الكفاية .

(١) ديوان الحماسة ، ٣٨٩/٢ .

(٢) ديوانه ، ص ٧٨ . القَعْبُ : القَدَح . مُشَعَّبٌ : مصلح . ويخاطب عبديه في البيت الثاني : ردا الإبل إلى مرايحها لينحرها لضيوفه . والمُعْزَبُ : المتباعد بإبله في المرعى فذكر ما سيفعله من أجل اليتامى .

(٣) ديوانه ، ص ٨٩ . الأدنين جمع الأدنى . كلا : حملاً ثقيلًا .

فهذا صائد له صبية صغار قد حالفوا الفقر زمنا طويلا ، والسبب في هذا الفقر هو أن كسبهم وقوتهم يعتمد على ما تصيده الكلاب التي يستعين بها أبوهم في اقتناص الحيوانات البرية . يقول الأعشى الكبير في هذا الصائد :

نُو صَبِيَّةٌ كَسَبَتْ بِنَاكَ الضَّارِيَاتِ لَهُمْ قَدْ حَالَفُوا الْفَقْرَ وَاللَّوَاءَ أَحْقَابًا (١)

وهذا ربعة بن مقروم يصور صائدا من بني جلان ، فيقول من ذلك :

إِذَا لَمْ يَجْتَزِرْ لِبْنِيهِ لَحْمًا غَرِيضًا مِنْ هَوَادِي الْوَحْشِ جَاعُوا (٢)

فهذا الصائد خاب مسعاه ولم يصد لحما طريا . وكثيرا ما كان الصائد يخيب كما يصوره الشعر الجاهلي ، فيلهف أمه ، ويعض على أصابعه ندما على خيبته ، لأن أولاده وزوجته بانتظاره ، إذا لم يحضر لهم شيئا من الصيد جاعوا .

فهؤلاء وأمثالهم الذين لا يكفي كسبهم كفايتهم هم فقراء . لذلك نجد عروة بن الورد يوصي بعدم الرضا بالعيش الدون ويحض الفقير على السعي وطلب الكسب . يقول :

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَاتَّمَسِ الْغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتْ فَتُعْذِرَا وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بِدُونٍ وَلَا تَتَمَّ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلُ مَنْ كَانَ مُعْسِرَا (٣)

فالفقير من له حرفة وقادر على الكسب ولكن دون الكفاية .

٨- الفقير : سائل الناس

والفقير يسأل الناس طالبا سد حاجته من المال وغيره . يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان بقوله :

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبَ مَالِي وَلَا حَرَمَ (٤)

ويكثر في الشعر الجاهلي ذكر السائل والمجتدي وهو طالب العطاء . وتمدح الشعراء بإغاثة المحوج الجادي (٥) .

والحقيقة أن في السؤال مذلة وهواناً . لذلك يوصي عبد قيس بن خفاف البرجمي التميمي بعدم التخشع للسؤال إذا ما افتقر الإنسان فيقول :

(١) ديوانه ، ص ٤١٣ . اللوَاء : الشدة .

(٢) المفضليات ، ص ١٨٩ .

(٣) الحماسة البصرية ، ٣٤٣/١ .

(٤) شرح شعره ، ص ١٢٠ . الحرم : المنع .

(٥) ينظر : شاعرات العرب ، ص ٧٠ . والأصمعيات ، ص ١٩٦ .

وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَخَشِّعًا" تَرْجُو الْفَوَاضِلَ عِنْدَ غَيْرِ الْمُفْضِلِ (١)
وكان الفقير في الشعر الجاهلي هو طالب المعروف أو السائل ، في قول حُجَيَّة بن المضرَب
في مدح زرعة أحد الملوك وقومه :

وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ الْبَسِيطَةُ مِثْلَهُمْ . لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَّا عُرِفَ الْفَقْرُ (٢)
فكان الشاعر قد حصر الفقر في المختبط العافي . وجاء في لسان العرب من مادة "خبط" :
"الْخَبْطُ : طَلَبُ الْمَعْرُوفِ ، خَبَطَهُ يَخْبِطُهُ خَبْطًا وَاخْتَبَطَهُ . وَالْمُخْتَبِطُ : الَّذِي يَسْأَلُكَ بِلَا وَسِيلَةٍ
وَلَا قَرَابَةٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ . وَيُقَالُ خَبَطَهُ : إِذَا سَأَلَهُ ، وَيُقَالُ : اخْتَبَطَنِي فَلَانٌ إِذَا جَاءَ يَطْلُبُ الْمَعْرُوفَ
مِنْ غَيْرِ آصِرَةٍ وَقِيلَ الْاِخْتِبَاطُ طَلَبُ الْمَعْرُوفِ وَالْكَسْبُ" (٣) . "والعافي السائل من عفا
يعفو" (٤) . فلو كان في الأرض مثل قوم زرعة للسائل لما عرف الفقر .
فالفقير في الشعر الجاهلي هو المحتاج له دون الكفاية في كل شيء أو لا شيء له من متاع
العيش .

وبعبارة موجزة يمكن القول : إن الفقير في الشعر الجاهلي هو : المحتاج والفقر الحاجة
وهي دون الكفاية باعتبار المعيشة . والفقير من يشغل فكره في قوته وقوت عياله مع ضيق
مكسبه وسوء أحواله . ومن كان دون ذلك فهو فقير .

وثمة مصطلحات أو تعبيرات وردت في الشعر الجاهلي تفيد معنى الفقر والحاجة أو الفقير
المحتاج . وهي كثيرة الدوران في الشعر الجاهلي ، ومنها :

أ- العدم

"الْعَدَمُ وَالْعُدْمُ وَالْعُدْمُ : فَقْدَانُ الشَّيْءِ وَذَهَابُهُ . وَغَلَبَ عَلَى فَقْدِ الْمَالِ وَقُلْتُهُ ، عَدِمَهُ
يَعْدِمُهُ عَدْمًا فَهُوَ عَدِيمٌ ، وَأَعْدَمَ إِذَا افْتَقَرَ . وَالْعَدَمُ : الْفَقْرُ ، وَكَذَلِكَ الْعُدْمُ . وَأَعْدَمَ إِعْدَامًا
وَعَدَمًا : افْتَقَرَ وَصَارَ ذَا عُدْمٍ فَهُوَ عَدِيمٌ وَمُعْدِمٌ لَا مَالَ لَهُ . وَالْعَدِيمُ : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ
وَجَمْعُهُ عَدَمَاءُ" (٥) .

(١) الحماسة الشجرية ، ٤٧٠/١ .

(٢) الحماسة البصرية ، ٤٥٧/١ .

(٣) ٢٨٤-٢٨٢/٧ .

(٤) لسان العرب ، مادة "عفا" .

(٥) السابق مادة "عدم" ، ٣٩٢/١٢ .

ونجد هذا في الشعر الجاهلي . فالممدوح "مَأْوَى كُلِّ مُثْرٍ وَمُعْدِمٍ" (١) ؛ فالمثري الرجل الغني ، من أثرى الرجل إذا كثر ماله ، فهو مثر . والمعدِم : الفقير لا مال له من أعدم إذا افتقر . ويقول عبيد بن الأبرص مفتخرا بالفتية الشجعان :

لَا يَحْسَبُونَ غِنَىَّ يَبْقَى وَلَا عَدَمًا إِذَا رَأَى ذَاكَ مِنْهُمْ مَعَشَرَ فَرَطُ (٢)

ويقول زهير في مدح هرم بن سنان ، عند حديثه عن النوق والخيول :

يَنْزِعَنَّ إِمَّةً أَقْوَامٍ لِذِي كَرَمٍ بَحْرٌ يَفِيضُ عَلَى الْعَافِينَ إِذْ عَدِمُوا (٣)

ويقول طرفة بن العبد مخاطبا بني تغلب وكأنه يقول لهم : يقاتلكم غنينا دفاعا عن ماله وفقرنا طلبا للغنيمة :

تَذْكُرُونَ إِذْ نَقَاتِلَكُمْ لَا يَضُرُّ مُعْدِمًا عَدَمُهُ (٤)

ويقول حسان بن ثابت :

يَسْوَدُ ذُو الْمَالِ الْقَلِيلِ إِذَا بَدَتْ مَرْوَعَتُهُ فِينَا وَإِنْ كَانَ مُعْدِمًا (٥)

ب- الإملاق

"الإمْلَاق : الافتقار ، كما في الآية الكريمة : "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ" . ورجل أَمْلَق من المال أي فقير منه قد نفذ ماله . أَمْلَقَ الرجل ، فهو مُمْلِقٌ . والمُمْلِقُ الذي لا شيء له . مملق إذا افتقر فهذا لازم ، وأملق الدهر ما بيده ، ومنه قول أوس بن حجر :

لَمَّا رَأَيْتُ الْعُدَمَ قَيْدَ نَائِلِي وَأَمْلَقَ مَا عِنْدِي خُطُوبٌ تَنْبَلُ (٦)

وأملقته الخطوب أي أفقرته .

وأصل الإملاق : الإنفاق . يقال أَمْلَقَ ما معه إملاقا وَمَلَقَهُ مَلَقًا إذا أخرجته من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لذلك (٧)

(١) ديوان بشر ، ص ٢٠٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٦٥ . الفرط : المجاوز فيه الحد والاسراف والظلم .

(٣) شرح شعره ، ص ١٢٤ . الإمّة : النعمة . العافي : طالب المعروف .

(٤) ديوانه ، ص ١١٦ .

(٥) ديوانه ، ص ٣٦٧ . والحماسة البصرية ، ١٢/١ .

(٦) ديوانه ، ص ٩٤ .

(٧) لسان العرب ، مادة "ملق" . ٣٤٧/١٠ - ٣٤٨ .

ج - الفاقة

"الفاقة : الفقر والحاجة ، ولا فعل لها . يقال من الفاقة إنه لمفتاق ذو فاقة . وافتاق الرجل أي افتقر . والمفتاق : المحتاج" (١) ويذكر الأعشى الكبير ذا الفاقة أثناء مدحه قيس بن معد يكرب في غاراته :

وَلَقَدْ جَرَرْتُ إِلَى الْغِنَى ذَا فَاقَةٍ وَأَصَابَ غَزْوُكَ إِمَّةً فَازَ لَهَا (٢)
ويقول الأعشى أيضا يشكو الزمان والدهر :
وَهَلْ يَعُودَنَّ بَعْدَ عُسْرٍ عَلَى أَخِي فَاقَةً يَسَارُ (٣)

د - الخلّة

جاء في لسان العرب من مادة "خل" (٤) : والخلّة : الحاجة والفقر . [قيل] : به خلّة شديدة أي خصاصة (٥) . وفي المثل : الخلّة تدعو إلى السلة . والسلة : السرقة . وخلّ الرجل : افتقر وذهب ماله وخلّ الرجل إذا احتاج . يقال فلان ذو خلّة أي محتاج . والخلّة بالفتح الحاجة والفقر . ورجل مَخْلٌ ومختل وخليل وأخل : معدم فقير محتاج ؛ قال زهير بن أبي سلمى :

وَإِنْ آتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ (٦)
يعني بالخليل المحتاج الفقير المختل الحال . والحرم : الممنوع .

هـ - الإقلال

"القلة : خلاف الكثرة . وأقلّ : افتقر . والإقلال : قلة الجدة ، وقل ماله ، ورجل مُقِلّ وأقلّ : فقير" (٧)

(١) لسان العرب ، مادة "فوق" ، ٣١٩/١٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٨٣ . إمة : نعمة . والمعنى : لكم أصابت نعمته ذا فاقة فأغنته وكم نزلت بذي نعمة فأفقرته .

(٣) ديوانه ، ص ٣٣١ . وللأعشى في موضع آخر من ديوانه ذكر "الفاقة" بمعنى الفقر . ديوانه ، ص ١٣٧ .

(٤) ٢١٥/١١ .

(٥) والخصاص : الفقر . وينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٨٦ .

(٦) شرح شعره ، ص ١٢٠ .

(٧) لسان العرب ، مادة "قل" ، ٥٦٣/١١ .

يقول عبد الله بن الزبير :

كُلُّ بُؤْسٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٌ
وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يُلْعَبْنَ بِكُلِّ
وَالْعَطِيَّاتُ خَسَاسٌ بَيْنَنَا
وَسَوَاءٌ قَبْرٌ مُثَرٍّ وَمَقْلٌ (١)

ويقول أمية بن أبي الصلت في الفخر بقومه ثقيف :

قَوْمَ إِذَا نَزَلَ الْمَقْلُ بِأَرْضِهِمْ
رَدُّهُ رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانٍ (٢)

فالمقل : الفقير .

و- الرَّمَق

"الرَّمَقُ : بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ . [وَقِيلَ] بَقِيَّةُ الرُّوحِ . وَقِيلَ : هُوَ آخِرُ النَّفْسِ . الْمُرْمَقُ مِنَ الْعَيْشِ : الدُّونُ الْيَسِيرُ . وَعَيْشٌ رَمَقٌ : يُمَسِّكُ الرَّمَقُ . وَالرَّمَقُ : الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ يَتَبَلَّغُونَ بِالرَّمَاقِ وَهُوَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَيْشِ . وَالرَّمَقُ : الضَّعِيفُ مِنَ الرِّجَالِ" (٣) .

ز- الإِقْتَار

جاء في لسان العرب لابن منظور : "الْقَتْرُ وَالْتَقْتِيرُ : الرُّمَقَةُ مِنَ الْعَيْشِ . قَتَرَ يَقْتِرُ وَيَقْتَرُ قَتْرًا وَقَتُّورًا فَهُوَ قَاتِرٌ وَقَتُّورٌ وَأَقْتَرُ ، وَأَقْتَرُ الرَّجُلُ : افْتَقَرَ . وَالْقَتْرُ ضَيْقُ الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ الْإِقْتَارُ . وَأَقْتَر : قَلَّ مَالُهُ وَلَهُ بَقِيَّةٌ مَعَ ذَلِكَ ... وَقَتَرَ الرَّجُلُ : قَلَّ مَالُهُ حَتَّى [قَعْدَ] مَعَ الْفُقَرَاءِ" (٤) .

تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

لِيُنْكِبَهُ مُقْتَبِرٌ أَفْنَى حَرِيْبَتِهِ
دَهْرٌ وَحَالَفَهُ بُؤْسٌ وَإِقْتَارٌ (٥)

فالمقتبر الفقير والإقتار الفقر . حريبتة : أرادت ماله .

ويقول الشاعر :

(١) الحماسة البصرية ، ٣١٩/١-٣٢٠ . والشاعر قالها في غزوة أحد ولم يكن قد أسلم بعد ،

أسلم بعد فتح مكة . وخساس : حقيرة قليلة لا خطر لها مهما عظمت .

(٢) شرح ديوانه ، ص ٢٢ .

(٣) لسان العرب ، مادة "رمق" ، ١٢٥/١٠ .

(٤) من مادة "قتر" ، ٧٠/٥-٧١ .

(٥) ديوانها ، ص ٥٠ .

كَرِيمَ رَأَى الْإِقْتَارُ عَارًا قَلَمٌ يَزُلْ
أَخَا طَلَبَ لِلْمَالِ حَتَّى تَمُولَا (١)

ح- العسر

"العُسْرُ والعُسْرُ : ضد اليسر ، وهو الضيقُ والشدة والصعوبة* . . والعرب تضع المعسور موضع العسر والميسور موضع اليسر . وأعسر الرجل : أضاق . والمعسر : نقيض الموسر . وأعسر ، فهو معسر : صار ذا عُسرة ، وقلة ذات اليد ، وقيل : افتقر . والعُسرة : قلة ذات اليد . وكذلك الإعسار . والعسرى نقيض اليسرى ، والمعسور ضد الميسور" (٢) .

يقول عبيد بن الأبرص مفتخرا :

وَالْخَالِطُو مَعْسِرٌ مِنْهُمْ بِمُوسِرِهِمْ °
وَأَكْرَمُ النَّاسِ مَطْرُوقًا إِذَا اخْتَبَطُوا (٣)

ويقول حسان بن ثابت :

أَعْطَى ذُوو الْأَمْوَالِ مَعْسِرَهُمْ °
وَالضَّارِبِينَ بِمِوْطِنِ الرَّعْبِ (٤)

ط- البؤس

جاء في لسان العرب من معاني البؤس : الشدة والفقر . وَيَبْسُ الرجلُ يَبْسًا بُؤْسًا وَيَأْسًا

(١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٥٥/٢ .

(٢) لسان العرب "عسر" ، ٥٦٣/٤ .

(٣) ديوانه ، ص ٩٤ .

(٤) ديوانه ، ص ٨٩ .

* "الشدة : المجاعة . والشدائد : الهزاهز . والشدة : صعوبة الزمن . وشدة العيش : شظفه" هذه

من مادة "شدد" لسان العرب ، ٢٣٤/٣ .

وبئساً إذا افتقر . واشتدت حاجته فهو بائس أي فقير والبأساء والمبأساة كالْبُؤْس (١) ؛ قال بشر بن أبي خازم :

فَأَصْبَحُوا بَعْدَ نِعْمَاهُمْ بِمُبَاسَةٍ والدَّهْرُ يَخْدَعُ أَحْيَانًا فَيَنْصَرِفُ (٢)

ي - العيلة

جاء من مادة "عيل" في لسان العرب (٣) : "عال يعيل عَيْلاً وَعَيْلَةً وَعَيُْولاً وَمَعَيْلاً : افتقر . وَالْعَيْلُ : الفقير . وكذلك العائل ، قال الله سبحانه وتعالى : "ووجدك عائلاً فأغنى" * . والعالة : الفقراء جمع عائل . والعيلة والعالة : الفاقة . فيقال : عال يعيلُ عَيْلَةً وَعَيُْولاً إذا افتقر . يقول أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ :

وَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

وفي الشعر الجاهلي ذكر للعائل والعيل والعيال ، بمعنى الفقراء (٤) . يقول زهير بن أبي سلمى في المرء يغنى بعد فقره ويفتقر بعد الغنى :

قَدْ يَفْتَتِي الْمَرْءُ بَعْدَ عَيْلَتِهِ يَعِيلُ بَعْدَ الْغِنَى وَيَجْتَبِرُ (٥)

(١) مادة "بأس" ، ٢٠/٦ - ٢٣ . وجاء أيضاً في هذه المادة : البأساء اسم الحرب والمشقة والضرب . والبأس الشدة في الحرب . والبأس الخوف . ورجل بُئِس : شجاع ... وأبأس الرجل : حلت به البأساء . والبائس المبتلى . والبائس الألفاظ المترحم بها كالمسكين . والبأساء الشدة . والبأساء والبؤسى من البؤس ضد النعمى والنعماء "والنعيم والنعمى والنعماء والنعمة : كله الخفض والدعة والمال ، وهو ضد البأساء والبؤسى . والناعمة والمنعمة والمناعمة الحسنة العيش والغذاء والمترفة" لسان العرب "نعم" ، ١٢/٥٧٩ - والمبتئس : الحزين وقيل : المبتئس المسكين الحزين . والأبؤس : الداهية . قيل في بيت تأبط شرا :

قَدْ ضَفْتُ مِنْ حَبِّهَا مَا لَا يُضَيِّقُنِي حَتَّى عُدْتُ مِنَ الْبُؤْسِ الْمَسَاكِينَ

يجوز أن يكون عنى به جمع البائس ويجوز أن يكون من ذوي البؤس ، والبائس الرجل النازل به بلية أو عدم يرحم لما به .

(٢) ديوانه ، ص ١٣٩ .

(٣) ٤٨٨/١١ - .

(٤) ينظر مثلاً : ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٨٥/١ . والأصمعيات ، ص ١٨٤ .

(٥) شرح شعره ، ص ٢٣٠ . يفتتي أي يجمع ويستغني . عيلته : فقره . عال يعيل افتقر . وعال يعول عيالة .

* سورة الضحى ، آية ٨ .

ك- المسكين

المسكين : الذي لا شيء له . وقيل الذي لا شيء له يكفي عياله . وقيل : الذي اسكنه الفقر أي قلل حركته . أو الذي قد أذله الفقر . وقيل المسكين أسوأ حالا من الفقير ، وقيل بل أحسن حالا منه (١) .

والحقيقة أن الاثنين من المحتاجين ، يستأهلان العطاء والصدقة . وعلى الرغم من اختلاف الآراء في تعريفهما وتباين هذه التعريفات عند اللغويين والفقهاء ، والمفسرين ، إلا أن بعضهم أشار إلى استوائهما في الحاجة (٢)

ولم أجد شيئاً في الشعر العربي يدفعني إلى الاستدلال على اختلاف الفقراء عن المساكين ؛ لأنني لم أجد سوى بعض الشواهد القليلة في الشعر الجاهلي فيها لفظة المسكين أو المساكين . وعلى كل حال فالمسكين هو من زمرة المحتاجين والفقراء ، أو هو من أوصاف الفقراء . ويقول سيد قطب : "والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية ، والمساكين مثلهم ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون" (٣) .

(١) ينظر في ذلك : لسان العرب مادة "سكن" ، ٢١٤/١٣ . ومادة "فقر" ، ٦٠/٥ . والقاموس المحيط ، "فقر" ١١١/٢ . وتاج العروس "فقر" ، ٣٣٦،٣٣٥/١٣ .

(٢) ينظر مثلاً : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، لابن رشد الحفيد ، ٢٠١/١ - ٢٠٢ . ويقول ابن رشد في شرح آية (٦٠) من سورة التوبة : إيجاب الصدقة للأصناف المذكورة في الآية "إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... " هو الحاجة فقط أو الحاجة والمنفعة العامة .

(٣) في ظلال القرآن ، المجلد ٣ ، ص ١٦٦٩ . [وقيل : "الفقير الذي لا يسأل لأن عنده ما يكفيه الحال . والمسكين الذي يسأل لأنه لا يجد شيئاً ، فهو أضعف حالا منه . وعند الشافعي رحمه الله على العكس" . ينظر في هذا القول : "تفسير القرآن الجليل" المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" لأبي البركات النسفي ، م ١ ، ص ٦٥٩ . وقيل : "الفقير من له أدنى شيء والمسكين من لا شيء له فيحتاج للمسألة لقوته أو ما يوارى بدنه" ينظر في هذا القول : "شرح فتح القدير ، لابن الهمام الحنفي ، ٢٦١/٢ . وقيل : "الفقير الذي يجد القوت ، والمسكين الذي لا يجد القوت ، وقيل : الفقير المحتاج والمسكين من أذله الفقر وأسكنه عن الحركة" ينظر في ذلك شرح السنة للبغوي ، ٨٨/٦] .

الفصل الثاني

أسباب الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي

للفقر في العصر الجاهلي أسباب بيئية واقتصادية ، وأسباب اجتماعية ، وأسباب نفسية . وثمة معتقدات وعادات جاهلية تسبب الفقر . وسيكون الحديث عن هذه الأسباب مفصلاً أو موجزاً من خلال الشعر الجاهلي .

-١-

الأسباب البيئية والإقتصادية

إن ثمة أسباباً طبيعية للفقر في العصر الجاهلي . والسبب الأقوى لهذا الفقر هو قلة الثروات البيئية والإقتصادية وندرة الخيرات الطبيعية ، وذلك بسبب ما تتعرض له أرض الجزيرة العربية - موطن العرب في الجاهلية - من الجذب .

ولعل اقتصاد العرب في العصر الجاهلي كان يعتمد الإعتماد الأكبر على الثروات البيئية في أرض الجزيرة ، والمتمثلة بوجود الماء والكلاً ، لإعتماد الأغلبية على الماشية والرعي . فما دام أساس الإقتصاد الجاهلي ، وهو الموارد البيئية ، ضعيفاً ، فإن الإقتصاد في النهاية يظل ضعيفاً متقلباً ، يرتبط بالجذب والخصب .

ثم إن تعاقب سنوات الجذب على أرض الجزيرة العربية ، جعل الفقر ظاهرة حتمية ، ومتوقعة في كل زمان ومكان ، لأن العرب اعتمدوا في معيشتهم اعتماداً كبيراً على خير السماء والأرض في الماء والكلاً .

ويرتبط جذب الجزيرة بالمطر ارتباطاً وثيقاً . فقلة المطر أو انعدامه يقضي على الخصب والنماء ، فيموت النبات ويضعف الحيوان ويهزل الإنسان حتى يضطر لشرب ماء كروش الإبل وأكل الضب أو دم الفصد بعد شوائه في مصران ، دفعا لغائلة الجوع ، وسدا للرمق .

وما يزيد الطين بلة وجود الرياح الشديدة التي لا تبقى ولا تذر ، تهب على الجزيرة ، فتأكل الخصب وتأتي على الزرع ، وتسبب الجذب ، وتشيع الفقر في المجتمع الجاهلي .

وما يزيد الفقر ويجعله يشمل أكبر فئات المجتمع الجاهلي عدم توفر موارد اقتصادية كافية . فلم تكن الصناعة ذات أهمية لدى العرب ، ولم تكن مزدهرة ، لذلك لم تحقق أي تقدم ملموس في الإقتصاد الجاهلي . ثم إن العرب لم يولوا الزراعة الأهمية المرجوة ، إلا في بعض مناطق الخصب التي تتوفر فيها موارد مائية دائمة . أما التجارة فكانت لها أهميتها لدى بعض القبائل

والأفراد في المجتمع الجاهلي خصوصا من كانوا يقطنون في المدن وفي طرق القوافل التجارية ، أو حول الأسواق . وحتى إن القوافل التجارية كانت تتعرض للسلب والنهب . وإن اعتماد بعض الجاهليين على الحرف والمهن ، كالصيد ، واشتياار العسل ، والرعي ، والإغارة ... ، لم تكن تكفي صاحبها مؤنته على المدى الطويل ، فيبقى في الأغلب فقيرا إلى درجة ما . كما سنرى ذلك في حديثنا عن صورة مثل هؤلاء الحرفيين في الشعر الجاهلي . في الفصل الرابع . ثم إن فقر البيئة وقلة الموارد أوجد فئات فقيرة لا يستهان بها ، كالجائع والمعصب والمجرف والضييف الفقير والمستنبح وابن السبيل وغيرهم وسنرى صورتهم في الفصل الرابع أيضا .

وإنني آثرت الحديث في هذا الفصل عن الجذب وعناصره ، لأنها أقوى الأسباب الطبيعية والإقتصادية للفقر (١) ، ولأن الشعر الجاهلي يزخر بوصف هذه الأسباب . فتحدثت في زاوية واسعة من هذا الفصل عن الجذب والسنة وفصولها وعن المطر والرياح كأساس قوي لأسباب الفقر ، كما ظهرت لي في الشعر الجاهلي .

١. الفقر والجذب

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا عن اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم . وقال : " اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب وكل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها ما يوجد لأهلها خصب العيش ، من الحبوب والأدم ، والحنطة والفواكه لزكاة المنابت واعتدال الطينة ووفر العمران ، وفيها الأرض الحرّة (٢) التي لا تنبت زرا ولا عشباً بالجملة ، فسكانها في شظف من العيش : مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ... ومثل العرب أيضا الجائلين في القفار ، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب ... فلا يتوصلون منه إلى سد الخلّة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب ، وتجدهم

(١) ينظر : فقه اللغة وأسرار العربية ، للثعالبي ، ص٤٣ . وتهذيب الألفاظ ، لابن السكيت ، ص٢٦ وما بعدها .

(٢) الحرّة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، تتكون من الحجارة والمعادن المصهورة التي تسيل من البراكين (لسان العرب والقاموس المحيط مادة (حرر) . وفي "معجم البلدان" لياقوت الحموي ذكر لحرار كثيرة تبلغ الثلاثين (حرّة) ٢/٢٤٥-٢٥٠ . وينظر في الحرار كذلك "معجم ما استعجم" للبكري ، ٢/٤٣٥-٤٣٨ . وتاريخ العرب (مطول) ، فيليب حتي ، ١٩/١ .

يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان .." (١) . وأكثر اعتماد أبناء الجزيرة العربية في العصر الجاهلي كان على التمر (٢) .

وعندما ننظر إلى الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، نرى الجذب والقحط والأرض الجرداء القاحلة ، لا ماء فيها ولا نبات لكثرة الصحاري وقلة الماء . وإنما الخصب قليل بالنسبة للقحط والجذب . ولكثرة أوقات هذا الجذب وطول أمدها ، كان بعضهم يأكل الضباب والذئاب (٣) .

ويقال مكان جَدَبٍ وجديبٍ وأرضٌ جدبة وجُدُوب (٤) ، ضد الخصب والنماء . وتكثر أزمان الجذب والقحط والمحل في جزيرة العرب ، والتي معظم أرضها صحراء قفر . بخصوص " القفر " فقد تواتر ذكرها في الشعر الجاهلي ، وجاء في لسان العرب في معناها : أقفر : ذهب طعامه وجاع . وقفر ماله فقراً : قل (٥) . ومعنى هذا أن " القفر " يحمل في طياته الفقر وقلة الموارد .

وكذلك " المحل " ، فمن معانيه " الشدة " . والمحل الجوع الشديد وإن لم يكن جذب . والمحل نقيض الخصب . وأرض محل وقحط : لم يصبها المطر في حينه (٦) .

وتكثر في الجزيرة العربية الصحاري والمفازات أو المهامه والفلوات والأرض الجدبة ، التي لا كلاً فيها ولا ماء . والجذب إذا ما طال زمانه عم الفقر البلاد ، واشتدت المحن والأزمات ، وانتشرت الآفات ، وعانى الإنسان الجاهلي أشد المعاناة .

وكثرت الألفاظ الدالة على الأرض الجدبة ، والصحاري القفرة ، في الشعر الجاهلي ؛ من ذلك مثلاً : المهمة والمهامه (٧) ، والمهمة القفر والقلّة المقفرة (٨) ، والبيد والصحراء والقلّة ،

(١) مقدمة ابن خلدون ، ٣٩٣/١ .

(٢) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، ٢٠٩/٣ - .

(٣) السابق ، ٢١٠/٣ .

(٤) خزائن الأدب ، للبغدادي ، ٨٣/١ .

(٥) مادة "قفر" .

(٦) لسان العرب "محل" . وينظر "تهذيب الألفاظ" ، لابن السكيت ، ص ٢٦

(٧) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص ١٢٢ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ٥٤ . والمفضليات ، ص ٤١٩ .

(٨) ينظر ديوان عنتر ، ص ٤٦ ، ٤٣ .

وعوم البلاد تجذب في الجزيرة العربية (١) . ونجد وصفا للجاحظ للأرض الجدبة ، قليلة الماء ، عديمة الموارد (٢) .

ويكون الجذب والمحل عند قلة المطر (٣) ، وتتعرى السماء من الغيوم والأرض من النباتات ، كما يقول عامر بن الطفيل :

لِلَّهِ غَارُتَا وَالْمَحَلُّ قَدْ شُجِبَتْ
مِنْهُ الْبِلَادُ فَصَارَ الْأَفْقُ عُرْيَانًا (٤)

وإذا كان في السماء سحب أصهب إلى البياض ، فذلك دليل على أنه لا ماء فيه ، ودليل على الجذب . قال النابغة :

صُهْبًا ظَمَاءٌ أَتَيْنَ النَّيْنَ عَنْ عُرْضٍ
يُزْجِنُ غَيْمًا قَلِيلًا مَأْوُهُ شُبَمَا (٥)

ويكون المحل والقحط في الشتاء (٦) . والعرب تسمى القحط شتاء لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد (٧) . وعلامة الجذب في الشتاء سحب في العشي لاماء فيه أحمر بالغداة (٨) .

ويكون الجذب في الشتاء ، وعند هبوب ريح الشمال الباردة والنكباء ، وعندما يطلع النجم محلقا في السماء وعند قلة الغيم ، واحمرار الجو عند طلوع الشمس ومغربها (٩) ؛ والحمرة

(١) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص ٩٩ .

(٢) "البيان والتبيين" ١٥٣/٢ .

(٣) ينظر "وصف المطر والسحاب ... لابن دريد الأزدي ، ص ٣٨ ، ٤٧ .
والمفضليات ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ، ص ١٣٧ .

(٥) ديوانه ص ١٠٧ . والأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة ، ص ١٧٥ . التين : جبل بالشام وهو الذي أقسم الله عز وجل به وقال "والتين والزيتون" سورة التين ١ . شُبم : بارد . يزجين : يسقن ، والشمال تسوق السحاب .

(٦) ينظر "البيان والتبيين" للجاحظ ، ٢٣٣/٣ . و "تاريخ اليعقوبي" ، ٢٥٩/١ .

(٧) لسان العرب مادة "شتا" .

(٨) الأنواء لابن قتيبة ، ص ١٧٦ .

(٩) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ٢٣ - ٢٧ . ديوان الحماسة ، ١٩٩/١ . ديوان الحطيئة ، ص ٢٤٤ .

الدالة على الجذب تكون بغير سحاب (١) . وثمة حمرة دالة على الغيث تكون السماء ذات غيم (٢) .

ومن شدة الجذب يكون العام فيه سواد وبياض (٣) . ونجد أحد الشعراء الإسلاميين يكتفى "بالظلماء" عن الجذب والقحط وشدة الحاجة (٤) .

والجذب يشيع الفقر ، وذلك لأن في الجذب ينعدم الكلاً والماء ، فتري الرعاة يعودون بالإبل من المرعى ، لأنهم لا يجدون لها ما تأكل لانعدام النبات ، فالأرض جرداء دون نبات (٥) . وتضمن النوق الغزيرة الدر بالألبان حين يشتد الجذب (٦) . ولشدة الجذب لا يجدون في مائة من الإبل ما يُعلل به صبي ، فهم ينحرونها طعاماً للجائعين (٧) .

وفي الجذب والمحل ينتشر الجوع والهزال والضعف في الإنسان والحيوان . وتقل الأموال (٨) . ويصبح قوم من الأقوام عبيداً لآخرين حين الجذب والقحط (٩) .

وتختلف تصرفات بعض الأقوام بين الخصب والجذب . يقول شاعر بني جرم من طيء يصف قوماً باللؤم والبطر عند الخصب ، والتذلل عند الجذب :

إِذَا أَخْصَبْتُمْ كُنْتُمْ عَدَوًا وَإِنْ أَجْدَبْتُمْ كُنْتُمْ عِيَالًا (١٠)

لذلك تمدحوا وافتخروا بالكرم والجود ومساعدة الفقراء زمن الجذب والمحل (١١) . وكانت

(١) الأنواء لابن قتيبة ، ص ١٧٦ .

(٢) السابق ، ص ١٨٠ .

(٣) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٤١ .

(٤) ينظر ديوان الحماسة ، ٩٩/١ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٧٥ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ٣٩٥ . وديوان الهذليين ، ٢٦/١ ، ٦٣ ، ١٠٦ .

(٧) ينظر شرح ديوان لبید ، ص ٣٥٠ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٢٧ . المفضليات ، ص ٢٥٩ .

(٩) ينظر المفضليات ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(١٠) ديوان الحماسة ، ٨٥/١ . والمعنى : إذا وجدتم سعة عاديتمونا وإن أساء إليكم الزمان

وضاق بكم العيش فزعم إلينا واستجدتم بنا حتى كأنكم عيال .

(١١) ينظر شرح ديوان لبید ، ص ٣٥٠ . وديوان الحماسة ٤٣٦/١ ، ٤٦/٢ ، ٢٥٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ .

العرب ، إذا كان الشتاء ونالهم القحط ، وقلت ألبان الإبل ، استعملوا الميسر (١) ، وافتخروا بذلك (٢) ، وافتخروا بذبح النوق ، وتقديم لحمها وشحمها طعاما للناس في المحل والجذب (٣) ، وبعقر الكوم في الشتاء المحال (٤) . كما يفتخرون بإهانة الأموال ونحر الإبل للطارقين في السنة الشديدة القحط عندما يسرع الراعي إلى لقاحه يؤويها خشية البرد (٥) ، وبالسماحة والسخاء عند المحل وقلة المطر (٦) ، ويحتقون بمن ينزل في فناء دارهم من المحتاجين والفقراء زمن الجذب (٧) .

ويتمدح العرب كذلك بمن يكون نعم "مناخ العافين في الزمن المحل" (٨) ، ومن يحبسون إبلهم في الجذب والمحل لإطعام الحي ابتغاء المجد وترك اللوم (٩) ، ومن يكون خير قومه في سنة الجذب والقحط (١٠) . ويهجون من لا يكرم ضيفه إذا شاع الجوع في الجذب (١١) .

٢- الفقر والسنة

تكثر سنوات الجذب والفقر في العصر الجاهلي . ولتوالي هذه السنين وتكرارها أطلق العرب السنة على الجذب والقحط ، وذلك لإنعدام المطر وعموم المحل (١٢) "وَضَنَّ سَحَابُهَا

-
- (١) تاريخ اليعقوبي ، ص ٢٥٩/١ .
 - (٢) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ٣٠ .
 - (٣) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ٧٥ . وديوان الأعشى ، ص ٢٧٥ .
 - (٤) ينظر ديوان بشر ، ص ٢٩٨ .
 - (٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٣٧ .
 - (٦) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٠٥ .
 - (٧) ينظر السابق ، ص ٣٩٥ .
 - (٨) ينظر ديوان الحطيئة ، ص ٢٤٤ .
 - (٩) ينظر ديوان طرفة ، ص ٦٨ .
 - (١٠) ينظر المفضليات ، ص ٤١٩ .
 - (١١) ينظر ديوان بشر ، ص ٢١ .
 - (١٢) ينظر ديوان عامر ، ص ٤٦ . وديوان عروة ، ص ٤٤ .

بِسَجَالٍ" (١) . وَأَسْنَتَ الْقَوْمَ إِذَا أَجْدَبُوا (٢) . وَأَطْلَقُوا عَلَى سَنِي الْقَحْطِ وَالْجَدْبِ "المجاوع" جمع مجموعة لكثرة الجوع فيها (٣) . كما وسموا السنوات الشداد بِاللَّزْبَاتِ جمع لَزْبَةٍ (٤) . والسنة الأزمة إِذَا اشْتَدَّ قَحْطُهَا (٥) ، والسنة الأزوم أوسنة الأزمة شديدة القحط (٦) . وَقَحُوطٌ وَتَحُوطٌ اسمان للسنة المجدبة (٧) .

وأطلق العرب على السنة التي يكثر فيها الجدب والإمحال "الشهباء" أي البيضاء من الجدب ، فلا ترى فيها خضرة ، وتكون ذات غبار إذا انعدم القطر (٨) .
وأطلقوا على السنة الجدبة الشديدة "الغبراء" لإغبار الهواء فيها وانعدام المطر وانتشار الجدب (٩) .

و"كَحْلٌ" السنة الشديدة المجدبة ليس فيها خصب (١٠) .
و"الْجَلْبَةُ" السنة الشديدة الجدبية (١١) . و"الْحَجَرَةُ" السنة الشديدة المحال (١٢) . والسنة

(١) ديوان عنتره ، ص ١٤٩ .

(٢) ديوان الحطيئة ، ص ١٨٢ .

(٣) ينظر لسان العرب مادة "جوع" . وشرح شعر زهير ، ص ١٥٥ . وديوان الماسة ، ١/ ١٢٧ .

(٤) ينظر ديوان شعر المتلمس الضبعي ، ص ٢٤٥ .

(٥) ينظر شرح ديوان أمية ، ص ٢٣ .

(٦) ينظر السابق ، ص ٤٤ .

(٧) ينظر ديوان أوس ، ص ٥٤ . وديوان بشر ، ص ٢٥ .

(٨) ينظر لسان العرب مادة "تبت" . وديوان بشر ، ص ١٧٤ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص ٣٥ . وديوان حاتم ، ص ٦٧ . وديوان الحطيئة ، ص ١١٢ . وديوان الخنساء ، ص ١١ .

(٩) ينظر ديوان طرفة ، ص ٤٥ . وشرح المعلقات السبع ، ص ١٤٠ .

(١٠) ينظر لسان العرب مادة "كحل" . وديوان سلامة ١١٧ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ١٠ . وديوان الأقفه الأودي ، ص ١٤ . والمفضليات ، ص ١٢٣ .

(١١) ينظر ديوان الأسود ، ص ٥٩ . وديوان الحطيئة ، ص ٢٨٢ .

(١٢) ينظر لسان العرب مادة "تبت" . وديوان الحطيئة ، ص ٢٤٢ .

"المَجْلَحَّة" ، والمجاليح السنوات التي تذهب بالمال ، تحمرّ فيها آفاق السماء ، وينعدم المطر (١) .
والدهر يُجْلَح أي يأتي على القوم ويرهقهم (٢) . و"الجلائف" جمع جليفة وهي السنة الشديدة التي
تذهب بالأموال ويعم الفقر فيها (٣) ، والسنة "المَجْجفة" التي تُجَحَفُ بالقوم قتلا وإفسادا للأموال ،
وهي المضرة بالأموال والنعم (٤) . و"الجَائِحَةُ" الشدة التي تجتاح المال من سنة قحط أو فقر أو
فتنة (٥) .

وذكر الشعراء الجاهليون العام يكون فيه الجذب والقحط . فنهوا إلى العام الجاحد
عام الجذب والقحط (٦) . والعام الجديب يذهب فيه المال ويشيع الجذب والفقر (٧) . ويستطال
العام زمان الشدة والمحل (٨) . والسنة "الخَرْجَاء" وعام أخرج إذا كان فيه سواد وبياض من
الجذب (٩) .

مما سبق نرى أن الشعراء الجاهليين ذكروا السنة في كثير من الأحيان كدليل على الجذب
والقحط والفقر والشدائد والأزمات والمحن . وذكروا أيضا العام يكون فيه الجذب والشدائد .
ولكن غلبت السنة على الجذب وغلب العام على الخصب والرخاء . وكثيرا ما تستعمل السنة في
الحول الذي يكون فيه الجذب والشدة ، ولهذا يعبر عن الجذب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء
والخصب" (١٠) .

ونرى بعض الشعراء الجاهليين عمموا زمن الجذب في الدهر والأزمان ، وكل الوقت على

-
- (١) ينظر شاعرات العرب ، ص ٤٨ .
 - (٢) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ٦٥ .
 - (٣) ينظر ديوان الحماسة ، ٢/٢٤٩ .
 - (٤) ينظر لسان العرب مادة "جحف" .
 - (٥) ينظر ديوان ذي الأصبع العدواني ، ص ٨٩ .
 - (٦) ينظر شرح ديوان أمية ، ص ٣٧ .
 - (٧) ينظر المفضليات ، ص ١٠٥ .
 - (٨) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص ١٠٠ .
 - (٩) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٤١ .
 - (١٠) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ٨/٤٣٨ .

الإطلاق . فالزمان الكالح الشبم ، الذي لا يهب غير البرد والجوع (١) . ولزبات الدهر السوء عند القحط والجذب وذهاب الأموال ، وانتشار الفقر (٢) .

ولذلك نرى الجاهليين يتمدحون ويتفاخرون بالكرم والاطعام والجود ومساعدة الضعفاء ، وإغاثة الفقراء والمحتاجين في هذه السنين والأعوام ، عند كل لزبة أو شدة تصيبهم (٣) . ويستحب الإكرام "في العام المسنت" (٤) .

ففي سنة الأزمة تشبه على الناس ، شديدة القحط ، والتي ترى فيها وكأن الناس راحوا يمضغون الشجر الشائك ، فتسمع من تحت أسنانهم مثل الصرير ، كما يقول أمية بن أبي الصلت :

سَنَةَ أَرْمَةٍ تُخَيِّلُ بَالِنَا سِ تَرَى لِلْعَصَاهِ فِيهَا صَرِيرًا (٥)

في مثل هذه السنة يتفاخرون بأنهم سمحاء أجواد كرماء ، على المرملين والفقراء والضيوف ، ويجودون في لزبات السنين وعند هبوب ريح الشمال (٦) .

ويقول أبو دؤاد الإيادي :

وَسَمَّاحٌ لَدَى السَّنِينِ إِذَا مَا قَحَطَ الْقَطَرُ وَاسْتَقَلَّ الرَّهَامُ (٧)

فالسنة الشديدة المحل من أقوى الأسباب للفقر . وقد عقد الثعالبي في كتابه "فقه اللغة وأسرار العربية" فصلاً في تفصيل أوصاف السنة الشديدة المحل ، إذ يقول : "إذا احتبس القطر في السنة فهي سنة قاحطة وكاحطة . فإذا ساء أثرها فهي محل وكحل . فإذا أتت على الزرع والضرع فهي قاشورة ولاحسة وحالقة وجراق . فإذا أتلقت الأموال فهي مجحفة ومطبكة وجذاع وحصاء شبهت بالمرأة التي لا شعر لها . فإذا أكلت النفوس فهي الضُّبُع" (٨) .

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٤١٣ .

(٢) ينظر المفضليات ، ص ٢٧٧ .

(٣) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٤١ . وديوان الخنساء ، ص ١١ .

(٤) البخلاء للجاحظ ، ص ٢٣٠ .

(٥) شرح ديوانه ، ص ٤٤ .

(٦) ينظر ديوان الهذليين ، ١٢٢/٣ .

(٧) الأصمعيات ، ص ٢١٦ . استقل : ارتحل . الرهام : الأمطار الضعيفة الواحدة رهمة ، أراد القحط وامتناع المطر .

(٨) ص ٤٣ . وينظر أيضاً في مثل هذه المعاني "تهذيب الألفاظ" لابن السكيت ، ص ٢٦-٢٩ .

٣- الفقر وفصول السنة :

السنة عند العرب اسم لاثني عشر شهرا (١) . وفصول السنة أربعة . وهي الشتاء والربيع والصيف والخريف (٢) . وبعضهم يبدأ بالصيف فالخريف فالشتاء فالربيع (٣) . وبعضهم ابتداء بفصل الخريف (٤) .

والعرب "تذهب في تحديد أوقاتها إلى ما تعرف في أوطانها من إقبال الحر والبرد ، أو إدبارهما ؛ وطلوع النبات واكتياله ، وهيج الكأ وييسه . وتذهب في عدد الأزمنة إلى الإبتداء بفصل الخريف ، وتسميه الربيع ، لأن أول الربيع ، وهو المطر ، يكون فيه . ثم يكون بعده فصل الشتاء . ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف ؛ وهو الذي يسميه الناس الربيع ، وتأتي فيه الأنوار . وإنما سموه صيفا لأن المياه عندهم تقل فيه . والكأ يهيج . وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني . ثم يكون بعد فصل الصيف ، فصل القيظ ، وهو الذي يسميه الناس الصيف" (٥) .

ولكن الواضح من الفصول في بلاد العرب الصيف ، ويستأثر بالنصيب الأكبر من السنة لامتداد حره ، ثم الشتاء (٦) . لذلك نجد من يقسم السنة ستة أشهر وستة أشهر (٧) ، "فبعض العرب يقسمون السنة نصفين : شتاء وصيفا . ويبدأ بالشتاء لأنه ذكر ، والصيف أنثى ، لأن النبات يكون فيه . ثم يقسم الشتاء نصفين ، فيكون الشتاء أوله والربيع آخره ويقسم الصيف نصفين ، فيجعل الصيف أوله والقيظ آخره" (٨) .

وفي فصل الربيع يكون السمن ، والندى ... (٩) . ويسمون شهري القيظ اللذين يخلص فيهما حره ، شهري ناجر ، وسميا بذلك لأن الإبل تشرب ، فلا تكاد تروى لشدة الحر (١٠) .

(١) لسان العرب مادة "شتا" .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ٤٣٩/٨ .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، ٢١٧/٢ .

(٤) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص ١٠٤ .

(٥) السابق ، ونفس الصفحة .

(٦) المفصل في تاريخ العرب ، جواد علي ، ٤٣٩/٨ .

(٧) لسان العرب "شتا" .

(٨) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص ١٠٤ .

(٩) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص ١٠٨ .

(١٠) السابق ، ص ١٠٦ .

وهذان الشهران هما بيضة القيظ (١) . ويسمون شهري الشتاء الخالص شهري قُمَاح .
وسميا بذلك لأن الإبل ترفع فيهما رؤوسها عند الماء لشدة برده (٢) . ويدعون هذين
الشهرين ملحان ، وشيبان ، لبياض الأرض بالجليد والصقيع فهذان شهرا الشتاء (٣) . وفصل
الشتاء والذي يطلق عليه أحيانا "جمادى" لجمود الماء فيه ، قد يكون ستة أشهر (٤) كما
سبق وذكرنا .

وفي العصر الجاهلي كان فصل الشتاء - في أغلب السنين - هو فصل الجوع والفقر والشدة
خصوصا في شهري قُمَاح ، وأظنهما كانون الأول وكانون الثاني . إذ في هذين الشهرين يحب
الزاد . ويتمدح بمن يكون سمحا جوادا فيهما . يقول مالك بن خالد الخناعي الهذلي في مدح زهير
ابن الأغر :

فَتَى ما ابْنُ الْأَغَرِّ إِذَا شَتَوْنَا وَحُبَّ الزَّادُ فِي شَهْرَي قُمَاحِ (٥)

وجاء في لسان العرب في الشتاء : "وشتا القوم يشتون : أجذبوا في الشتاء خاصة . والعرب
تسمي القحط شتاء ، لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد . وقال الحطيئة وجعل
الشتاء قحطا :

إِذَا نَزَلَ الشَّتَاءُ بِدَارِ قَوْمٍ تَجَنَّبَ جَارُ بَيْتِهِمُ الشَّتَاءُ

أراد بالشتاء المجاعة . والعرب تجعل الشتاء مجاعة لأن الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون
للانتجاع . ويقال أشتى القوم فهم مشتون إذا أصابتهم مجاعة" (٦) .

ويكثر في الشتاء الجوع والأرامل (٧) لما يحصل في هذا الفصل من القحط والجذب .
يقول حسان بن ثابت :

وَأَنَا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَرَمَ الشَّتَاءُ مُحَالِفَ الْجَدْبِ

(١) السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) السابق ، ص ١٠٦ .

(٤) ينظر شرح المعلقة السبع ، ص ٨٦ ، من معلقة لبید .

(٥) ديوان الهذليين ، ٥/٣ . والأنواء ، ص ١٠٥ . وشهرا قُمَاح : كانون الأول وكانون الثاني ،
وهما أشد الشتاء بردا (لسان العرب - مادة قمح) .

(٦) لسان العرب "شتا" .

(٧) ينظر ديوان الأفوه الأودي ، ص ١٩ .

أَعْطَى ذَوُو الْأَمْوَالِ مُعْسِرَهُمْ وَالضَّارِبِينَ بِمَوْطِنِ الرَّعْبِ (١)

وفي فصل الشتاء تهب الرياح الشامية المشؤومة ، فيشتد البرد خصوصا إذا صادفت هذه الرياح ليلة مقمرة خالية من الغيوم (٢) . وقد تخلف النجوم عن أنوائها في هذا الفصل فتحل ولا تمطر (٣) . لأن العرب كانت تتسبب المطر إلى نوء النجم ، فتجعل نوء النجم علما للمطر ووقتا له ، كما يجعلون الشتاء للبرد وقتا ، والقيظ للحر وقتا (٤) . ومنهم من كان يجعل الفعل للكوكب فيكون عنده هو الذي أنشأ السحاب ، وأتى بالمطر وهذا من أمور الجاهلية (٥) . وتقول الأعراب : "مطرنا بنوء النجم الفلاني" ، ينسبون المطر للنجوم وأنوائها . والأنواء جمع نوء ، وهو وقت طلوع نجم من المشرق وانحدار نظيره من المغرب . ويقولون إذا احتبست الأمطار "حقت الأنواء" (٦) .

ويشتد الجذب في فصل الشتاء ، ويقل المطر ، وينتشر البرد والصقيع والجمود ، ومن شدة البرد يدخل الكلب في جحره (٧) .

ويقل الرزق ويضيق في فصل الشتاء (٨) . ويكثر الفقراء والمحتاجون والسائلون والعفاة (٩) . وينتشر الجوع (١٠) . وتهزل النساء عند اشتداد القحط في الشتاء (١١) .

(١) شرح ديوانه ، ص ٨٩ .

(٢) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص ١٦٦ .

(٣) ينظر ديوان الأسود ، ص ٦٨ . والمفضليات ، ص ٢٢٠ .

(٤) الأنواء ، ابن قتيبة ، ص ١٣ .

(٥) السابق ، ص ١٤ .

(٦) وصف المطر والسحاب .. لابن دريد الأزدي ، ص ٣٦-٣٧ .

(٧) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٩٩ . وديوان الأسود ، ص ٦٨ . وديوان شعر الحادرة ،

ص ٣٤٠-٣٤١ . وديوان الحماسة ، ٢/٢٥٦ . والمفضليات ، ص ٢٢٠ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٩٥ .

(٩) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٢ . وديوان عروة ص ٦٤ .

(١٠) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٩٥، ١٩٩ . وديوان حاتم ، ص ٩٨ .

(١١) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٢٥ . وديوان بشر ، ص ٣٨ .

لذلك نجد الافتخار بالصبر على الجوع والفقر في هذا الفصل العصيب (١) .
 ويفتخرون كذلك بإطعام الجائع (٢) ، وينحر النوق وإطعام الضيف حين جمود الماء وانتشار
 الصقيع أو الجليد ، وبمساعدة الفقراء والمحتاجين وطلاب الحاجات ، واهلاك المال ، وحماية
 الجار (٣) .

ويفتخر العرب بتقديم الجفان المملوءة بالإبل العظام الأسنمة للضيف والفقير والمدفع
 واليتيم (٤) . ويتفاخرون بالإطعام إذا هبت رياح الشتاء الباردة واشتد ظلام الليل في مستهل
 الشهور عند القحط والجذب (٥) .

ففي فخرهم بالجود في المحل ، يقول أبو ذؤيب الهذلي :
 لَنَا صِرْمٌ يُنَحَّرَنَ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ إِذَا مَا سَمَاءُ النَّاسِ قَلَّ قَطَارُهَا (٦)

وتمدح العرب في العصر الجاهلي - كذلك - بالإطعام والكرم والجود إذا ما الكلب
 أحجره الشتاء (٧) ؛ وبالميسر للأضياف والجوعى عند شدة البرد وكتب الشتاء ، وعندما تطلع
 الثريا عشاءً (٨) ، وإذا ما دنا الناس بعضهم من بعض ، واقتربت البيوت من بعضها قبيل
 الربيع (٩) . ويتمدحون بالميسر في الشتاء البارد حين تهب رياح الشمال الباردة (١٠) ،
 وبمن يحفظ "الحي الجميع إذا شتوا" (١١) . فتراهم يهجون من يشبع في الشتاء وجيرانه

(١) ينظر ديوان عروة ، ص ٦٤ .

(٢) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٩٩، ١٩٥ .

(٣) ينظر ديوان طرفة ، ص ١٢١ . وشرح ديوان لبید ، ص ١٣٦ . وديوان بشر ،
 ص ١٧٦، ٢٩٨، ٣٢٢ . وشرح شعر زهير ، ص ٢١٦ . وديوان السموأل ، ص ٨٧ . وديوان
 الأعشى ، ص ١٢٥ . وديوان الحماسة ، ١/ ١٩٩ .

(٤) ينظر شرح ديوان لبید ، ص ١٣٦ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٤٢١ .

(٦) ديوان الهذليين ، ١/ ٢٧ .

(٧) ينظر الحماسة البصرية ، ١/ ٤٢٢، ٤٢٩، ٥٨٢ . وشرح ديوان أمية ، ص ١٩ .

(٨) ينظر ديوان أوس ، ص ٣٣ .

(٩) ينظر ديوان طرفة ، ص ٩١ . وديوان عروة بن قميئة ، ص ٢٠٣ .

(١٠) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٢٧ . وشرح ديوان لبید ، ص ١٦٦ .

(١١) ينظر ديوان بشر ، ص ٣٨ .

يببتون جوعى (١) .

وفي شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، كان يحمّد الجيران مشهد المرثي عند الشتاء ،
ويأوي إليه الأرملة والضيوف والفقراء ، وكان المرثي يحامي عن الكبير الفقير في
هذا الفصل (٢) .

وكان العرب يستحبون الكرم في أشهر بعينها ، مثلاً في شهر شوال في قول أوس
ابن حجر :

أَبَا دَلِيْجَةَ مَنْ لِحَيٍّ مُفْرَدٍ صَبَعَ مِنَ الْأَعْدَاءِ فِي شَوَالٍ (٣)
وشهر جمادى فيه الجذب والبرد (٤) .

٤- الفقر والمطر

يسود الجفاف شبه جزيرة العرب بشكل عام ، والمطر ينذر سقوطه ، ولذلك فإن أكثر
أراضي الجزيرة العربية صحراوية . ومع ذلك فتمة أودية تسيل فيها المياه في موسم الأمطار ،
وهي أودية شديدة الانحدار ، تصب في البحر الأحمر أو في بحر العرب . وتسقط الأمطار في
الخریف والشتاء في الشمال ، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن . وإذا سقط المطر في
البادية، فإنه يتسبب في إنبات عشب ، ينمو سريعاً ثم يزوي سريعاً ، فالحياة في البادية هي التي
أملت على البدو الترحال والانتقال حيث موارد المياه والعشب (٥) .

وأشار ابن قتيبة إلى أمطار الفصول في بلاد العرب . فكل مطر الربيع عندهم يكون في
الصيف (٦) . وبمطر القيظ حياء أهل اليمن ، لأنهم يمطرون في القيظ ، فيخصبون في الخريف.
ويسمى مطر فصل القيظ "الحميم" ، وأما غير أهل اليمن فلا ينتفعون بالحميم . ويسمى مطر
الصيف هذا أيضاً "صَيْفًا" ويسمى "رَمْضِيًّا" و "شَمْسِيًّا" (٧) .

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٩٩ .

(٢) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٨ . والأصمعيات ، ص ٦٢، ٥٩ . وديوان الهذليين ،
١٤٩، ١٤١، ٥٤/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ١٠٧ .

(٤) ينظر المفضليات ، ٣٧١/٢ .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ، السيد عبد العزيز ، ص ٧٥ .

(٦) الأنواء ، ص ١١١ .

(٧) السابق ، ص ١١٤ .

ويسمى مطر فصل الخريف "ربيعاً" و "خريفاً" . ويسمى "وسمياً" لأنه يسم الأرض بالنبات . والمطر الذي بعد الوسمي يسمى "الولي" . ولا ينفع الوسمي إلا بالولي لأن أول الوسمي يقع والحر سلطان، فيجعل النبات ، وإن لم يأت الولي ، جف (١) .

وقالوا : وبمطر الصيف يعنون الربيع أشد وابلاً وأشد سيلاً .. وأقل دواماً . ومطر الوسمي أقل وألين .. وأروى ، وهو خصب أهل الحجاز وأهل البادية . فأما أهل العراق فيمطرون الشتاء كله ، ويخصبون في الصيف (٢) .

ويسمى مطر الشتاء ربيعاً ، ويهل فصل الشتاء في تشرين الآخر ؛ والعرب تسمى المطر ربيعاً في أي وقت سقط ، حتى الحميم ، وهو مطر القيظ (٣) . كما تسمى الخريف ربيعاً لوقوع أول المطر فيه (٤) .

واهتم العرب بتمييز أنواع السحب (٥) الممطرة . وبرعوا في التنبؤ بسقوط المطر ، وكثر حديثهم فيه (٦) . وسماوا السحابة التي يرجى منها المطر "الخلقة" ، والسحابة التي يدوم مطرها بالسحابة "الداجنة" (٧) و"الديمة" السحاب يدوم مطره (٨) والديمة مطر يبقى أياماً لا يقلع (٩) .

والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب ، حيث الرياح الموسمية صيفا وفي الشمال الغربي أمطار شتوية . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمال الحجاز . ووصف

(١) السابق ، ص ١١٥-١١٦ .

(٢) السابق ، ص ١١٦ .

(٣) الأنواء ، ص ١١٨ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص ١٣٥ .

(٥) ينظر في أحاديث العرب وأقوالهم في السحب كتاب "وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع" ، للإمام ابن دريد الأزدي ، ص ٤٩، ٩٦، ٤٩٦ .

(٦) ينظر في ذلك المصدر السابق ، ص ١٤، ٢٨، ٤٣، ٥٦، ٧٦ .

(٧) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص ٧٨ .

(٨) ينظر ديوان طرفة ، ص ١١٩ .

(٩) وصف المطر والسحاب ، ابن دريد ، ص ١٦، ٥٤ .

امرو القيس في معلقته (١) سيلا جارفا حدث بالقرب من تيماء في بني أسد (٢) . كما وصف تأبط شرا سيول الصيف الجارفة (٣) . وتقل الأمطار أيضا في الداخل فسموها غيثا وحيا ، وهي عزيزة يتمناها الناس (٤) .

وإذا احتبست الأمطار جفت الأرض ، وأجدبت ، وحل الهلاك والفناء على القطعان والرعاة . ولطول ما يحدث لهم من ذلك سموا الجذب سنة . لذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العشب والكلأ (٥) .

وأطلق العرب على السنوات التي لا تنزل فيها مطر بالسنين البيض ، وأحيانا يسمونها السنوات الشهباء (٦) .

وتكون السماء في سنوات الجذب "غير حلبة" (٧) كبيت العنكبوت . ويقطط القطر وينعدم . ويكون الصَّرَادُ أو "صَرَادَ غَيْمٍ" (٨) غيم فيه البرد ولا ماء فيه . وتكون السحب رقيقة غير ماطرة (٩) .

وثمة تشبيه من لا خير فيه من الناس بالسحاب يعجب الناس صوت رعدھا ، ولكن لا خير فيها ، تأتي الريح بالحصباء ، وتقطع أطناب البيوت "وأكذب شيء برقها ورعودها" . يقول قُرَادُ ابْنِ خَنْسِ الصَّادِرِيِّ يهجو قوما :

وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ رِزُّهَا بِأَبْدَةٍ تُنْجِي شَدِيدٍ وَثِيدُهَا

-
- (١) في شرح المعلقات ، ص ٣٥ ، وديوانه ، ص ٦٢-٦٣ .
 (٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٢٠ .
 (٣) في الأصمعيات ، ص ١٣٥ .
 (٤) "الجاهلية ، مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي" ، يحيى الجبوري ، ص ١٩ . وفي هامش الصفحة يقول : وأسموها جودا وحيا لما في ذلك من معنى العون والنصرة والخير والكرم والحياة .
 (٥) العصر الجاهلي ، شوقي حبيب ، ص ٢١ .
 (٦) تاريخ العرب قبل الإسلام ، السيد عبد العزيز ، ص ٧٨ .
 (٧) ديوان حاتم الطائي ، ص ٩٣ .
 (٨) ديوان طرفة ، ص ٩٨ . وديوان الهذليين ، ١/١٣٩ .
 (٩) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص ١٧٥ .

تَقَطَّعَ أَطْنَابَ الْبُيُوتِ بِحَاصِبٍ ، وَأَكْذَبُ شَيْءٍ بَرَقَها وَرَعُودُها (١)

وأراد بالسحاب . والعرب أيضا تسمي المطر في الأرض السماء (٢) .

وإذا فقد المطر تحمل الأرض ، ويعم البلاء . وتقنى الماشية ، ويصبح "الغني فقيرا ، والمترف معدما" (٣) . وقد شبه أبو ذؤيب الهذلي حاجة الصديق والتجاءه للقوم لما هلكوا كنفقد البلاد المطر إذا ما تحمل ؛ يقول :

كَانُوا مَلُوثٌ فَاحْتَاجَ الصَّدِيقُ لَهُمْ . فَقَدَ الْبِلَادَ - إِذَا مَا تُمَحِلُ - الْمَطَرَا (٤)

ولأهمية المطر عند العرب في العصر الجاهلي نرى الشعراء يدعون للبلاد بالسقيا بالأمطار المعتدلة التي تروي النباتات والمزروعات ، ويستفيد منها الناس في شربهم وسقي حيواناتهم . وكانوا يحترسون من الأمطار الجارفة عند دعوتهم للبلاد بالسقيا ، لأنه - أحيانا - تتعرض البلاد للأخطار والانجرافات بفعل الأمطار الغزيرة والسيول التي تطيح بالزروع والمنازل والدور . وتحدث البلاذري عن سيول مكة ، وخصص لها فصلا في كتابه فتوح البلدان (٥) .

ويقول طرفة بن العبد في مدح قتادة بن مسلمة الحنفي الملقب بغيث الضريك ، يدعو لبلاده بالسقيا ، محترسا من أن تفسدها كثرة الأمطار :

فَسَقَى بِلَادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبَ الْغَمَامَ وَدِيمَةَ تَهْمِي (٦)

وإذا ما اصفرت مياه الآبار عند قلتها وطول مدة بقائها يتفاعل الشعراء بالمطر الذي سيصيبهم وسوامهم ، كما يشير طرفة إلى ذلك بقوله :

إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ سَيَذَرُكُنَا غَيْثٌ يَصِيبُ سَوَامَنَا مَطَرُهُ (٧)

(١) ديوان الحماسة ، ١٧٥/٢ . رزها أي صوت رعدھا . الأبدۃ الداهية . تتحي تعتمد .
الوئيد : الصوت العالي . والشاعر في البيت الذي يلي هذين البيتين يشير إلى انهزامهم عند ملاقاته الأعداء .

(٢) وصف المطر والسحاب .. ، ابن دريد الأزدي ، ص ٦٠ .

(٣) السابق ، ص ٢٢ .

(٤) ديوان الهذليين ، ٤٤/١ .

(٥) ينظر ٧١/١ وما بعدها .

(٦) ديوان طرفة ، ص ١١٩ . صوب الغمام أي المطر . الديمة : السحاب يدوم مطره .

(٧) ديوانه ، ص ٩١ .

لأن بالمطر تخصب الأرض (١) بعد جذب وإمحال (٢) ، وتخضر الأرض اليابسة إذا ما جاء السحاب وانهل مطره (٣) . وبالمطر تمرع الحدائق (٤) .

ولحب العرب للمطر ، وتفاؤلهم به ، نجد من يشبه صفاء الحسب بصفاء ماء المزن (٥) ، وتشبيهه الجود بماء المطر أيضا (٦) .

وقد تفاخر العرب في العصر الجاهلي بالإطعام والكرم إذا قحط القطر وهبت بشمال وضريب" (٧) وإذا انعدمت الغيوم في السماء وجفت ضروع النوق (٨) . ويتمدحون في شعر الرثاء كذلك بإيواء اليتامى المحلين "وقد قحط القطر" (٩) .

وكما يقول أمية بن أبي الصلت في الرثاء :

وَهُمُ الْمُطْعَمُونَ إِذْ أَقْحَطَ الْقَطُ
رُ وَحَالَتْ فَلَا تَرَى قَزَعَهُ (١٠)

ويستحب الكرم عند قلة الغيم في السماء ، وقلة الأمطار . كما يفتخر طرفة بن العبد بقومه :

وَإِنَّا إِذَا مَا الْغَيْمُ أَمْسَى كَانَتْ
وَجَاءَتْ بِصُرَادٍ كَانَ صَقِيعُهُ
سَمَاجِقُ تَرْبٍ وَهِيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفُ
خِلَالِ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ كُرْسُفُ
إِلَى الدَّفءِ وَالرَّاعِي لَهَا مُتَحَرِّفُ
وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا

(١) ينظر ديوان بشر ، ص ٢٢٠ . وديوان أوس ، ص ١٧ . وديوان امرئ القيس ، ص ١٤٣ .

(٢) ينظر وصف المطر والسحاب .. ، ابن دريد ، ص ٧٥، ٢١ .

(٣) ينظر ديوان عبيد ، ص ٨١ .

(٤) ينظر السابق ، ص ٥٣-٥٤ .

(٥) ينظر ديوان السموأل ، ص ٩١ .

(٦) ينظر الحماسة البصرية ، ٤٤٨/١ .

(٧) ديوان الأعشى ، ص ٣٨٥ . الضريب : الثلج والصقيع .

(٨) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص ١٧٥ .

(٩) شاعرات العرب ، ص ٦٨ .

(١٠) شرح ديوانه ، ص ٥١ .

نَرْدَ الْعِشَارِ الْمُنْقِيَاتِ شُظْيَهَا إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يُمَرِّعَ الْمُتَصَيِّفُ (١)

٥- الفقر والرياح

أشار القدماء إلى الرياح ، وخصوصاً بالذكر أربعة : الشمال والجنوب والصبا والدبور (٢) . ويقول المسعودي في الرياح الأربعة : "إحداها تهب من جهة المشرق ، وهي القبول ، والثانية تهب من المغرب وهي الدبور ، والثالثة من التيمن ، وهي الجنوب ، والرابعة من التيسر ، وهي الشمال" (٣) .

ويقول ابن قتيبة في هذه الرياح الأربع بأنها أمهات الرياح ، وهي معازمها . فالشمال تأتي من ناحية القطب الأعلى . والجنوب تأتي من ناحية القطب الأسفل . والصبا تأتي من وسط المشرقين . والدبور تأتي من وسط المغربيين . وما هب بين حدين من هذه الحدود فهي نكباء . قال الأصمعي : الشمال تأتي من قبل الحجر ، والجنوب تقابلها ، والصبا تأتي من تلقاء الكعبة ، يريد أنها تستقبلها إذا هبت ، ويقال لها أيضاً القبول . والدبور تأتي من دبر الكعبة . وكل ريح من هذه الرياح انحرفت فوقعت بين ريحين فهي "نكباء" .

والعرب تسمى الشمال شامية ، لأنها تأتي من ناحية الشام . والجنوب يمانية ، لأنها تأتي من اليمن (٤) .

وأشار ابن قتيبة - كذلك - إلى "ريحين حاريتين" : "هيفان" ، وهي الجنوب والدبور (٥) . وأشار إلى "الرياح البوارح" وهي شمال حارة في الصيف وذات عجاج (٦) .

(١) ديوانه ، ص ٩٨ . سماحيق : القطع الرقاق من الغيم . ثرب : شحم رقيق . الحرجف : الشديدة . صراد : سحاب لا ماء فيه . صقيعه : ما يسقط بالليل كأنه الثلج . كرسف : قطن . قريع الشول : فحل الإبل . يرقص : يسرع إلى الدفء . المتحرف : المائل من شدة البرد . وأراد أنه ترك إبله ومال عنها إلى ناحية يتقي فيها البرد . العشار : الواحدة عشراء : الناقة مر على حملها عشرة أشهر . المنقيات : السمينة . شظيها : عظم ساقها . يمرع : يخصب . المتصيف : الصيف .

(٢) "كتاب التيجان في ملوك حمير" ، وهب بن منبه ، ص ٣١٥ .

(٣) "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ، ٢/٢٢١ .

(٤) الأنواء في مواسم العرب ، ص ١٥٣-١٥٩ .

(٥) السابق ، ص ١٦٠ .

(٦) السابق ، ص ١٦٨ .

أ- رياح الجنوب

رياح الجنوب مهبها من جنوب الجزيرة العربية . وهي تأتي بالأمطار وتجلب الغيث . وهي ألقح الرياح ، تأتي بالأمطار والغيث غالبا . وإذا ما هبت الجنوب جاء معها خير ونماء . والعرب سمو الجنوب لاقحا لأنها تلحق السحاب . وهي تثير البحر حتى تسوده ، وتظهر كل ندى كامن في بطن الأرض . وأكثر العرب تجعل الجنوب هي التي تنشئ السحاب ، وتستدره ، وتصف بواقي الرياح بقلة المطر والهبوب في سني الجذب . لذلك يثمن العرب بالجنوب وهي عندهم مثل للخير (١) .

ودعا الشعراء للبلاد بالسقيا من سحاب يجيء من مهب الجنوب ، أو من جهة اليمن . وهذا علامة الفحل يدعو لليلى بالسقيا في قوله :

سَفَاكَ يَمَانُ ذُو حَبِيٍّ وَعَارِضٍ تَرُوحُ بِهِ جَنَحَ الْعَشِيِّ جَنُوبُ (٢)

ب- ريح الصبا :

وريح الصبا تهب من المشرق إلى المغرب ، وتسمى رياح القبول ، وهي طيبة مقبولة ، والنفس تصبو إليها . وأكثر هبوبها على إقليم نجد (٣) . وتهب في الشتاء الجديب (٤) . وكان لبيد بن ربيعة وأبوه إذا هبت ريح الصبا أطعموا الناس ؛ لأن الصبا لا تهب إلا في جذب . تقول بنت لبيد من ذلك :

(١) ينظر : الأنواء لابن قتيبة ، ص ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧ . ووصف المطر والسحاب .. ، لابن دريد الأزدي ، ص ٣٨ . والأصمعيات ، ص ٩٩ . ومن الشعر الجاهلي ينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٥٣- ، ٨٤- ، ٩٧ . وديوان أمية ، ص ٤٥ . وديوان عدي ، ص ٨٦ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ٩٦ . وشرح ديوان لبيد ، ص ١١٢ . وشرح المعلقات السبع ، ص ٨٥ .

(٢) ديوانه ، ص ٣٤ . عارض : سحاب معترض في الأفق متراكب ، يمان أي سحاب من جهة اليمن . الحبي : القريب من الأرض من السحاب ويكون متصلا بعضه ببعض ، فيكون بطيء السير غزير المطر .

(٣) ينظر العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٢٠ . وتاريخ العرب قبل الإسلام ، سيد عبد العزيز ، ص ٧٦ .

(٤) "الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي" ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص ٢٦ .

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ذَكَرْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا (١)

والصبا تفعل ما تفعل الجنوب ، يأتي معها القطر والمطر إذا لم تكن باردة . ونجد الصبا تقترن - أحيانا - عند بعض الشعراء الجاهليين بريح الجنوب ، لأن هبوب كلا الريحين غالبا يأتي بالمطر (٢) .

فريح الصبا لطيفة تجلي الهموم عن قلب المحزون كما تقول أسماء المُرَيَّة :
فَإِنَّ الصَّبَا رِيحَ إِذَا مَا تَنَفَّسْتُ عَلَى قَلْبٍ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا (٣)
ويقول عنتره العبسي :

إِذَا رِيحُ الصَّبَا هَبَّتْ أَصِيلَا شَفَّتْ بِهُبُوبِهَا قَلْبًا عَلِيلَا (٤)

وريح الصبا طيبة النسيم لا يكون منها ضرر ، غير باردة غالبا ، تأتي بالمطر الذي يجعل في الأرض وحلا قليلا ومطرا يسيل السيل . يقول طرفة بن العبد في هجاء زوج أخته خرنق بأنه جواد على الأبعاد كريح الصبا التي ينشأ عنها كل خير وعلى الأقارب كريح الشمال الباردة المشؤومة ، يقول في المعنى الأول :

وَأَنْتَ عَلَى الْأَقْصَى صَبَاً غَيْرُ قَرَّةٍ تَذَاغِبُ مِنْهَا مُرْزَغٌ وَمُسِيلٌ (٥)

ج- رِيَّاحُ الدَّبُورِ :

ورِيَّاحُ الدَّبُورِ تهب من المغرب ، وتقابل الصبا . "والدبور [عند العرب] في الشتاء والصيف ، وهي إحدى الهيفين إلا أنها قليلة الهبوب وهي هيف تيبس الأرض (٦) . وتهب في

(١) بلوغ الأرب ، في معرفة أحوال العرب ، للأكوسي ، ٩٢/١ . وكان ليبيد بن ربيعة خلف ألا تهب الصبا إلا أطمع ، ينظر ديوانه ، ص ٣٥٧ . وقرش كانت (تطعم الصبا) ما هبت ، ينظر المحبر ، ص ٢٤١ .

(٢) ينظر الأنواء ، لابن قتيبة ، ص ١٦٤ . وصف المطر والسحاب .. ، ابن دريد الأزدي ، ص ٢٨ . وينظر شعر جاهلي في ذلك ديوان عنتره ، ص ٢١ . وديوان طرفة ، ص ١٠٤ . وديوان امرئ القيس ، ص ١٠٦ .

(٣) شاعرات العرب ، ص ٦٢ .

(٤) ديوانه ، ص ١٣١ .

(٥) ديوانه ، ص ١١١ . وفي ديوان الحماسة ، ٢٨١/٢ . تذاغب : جاء من كل وجه . مرزغ : مطر يرزغ الأرض أي يجعل فيها وحلا قليلا والاسم الرزغة .

(٦) الأنواء ، لابن قتيبة ، ص ١٦٢ .

الشتاء الجديب (١) . وهي ريح شديدة ، تكدر الماء . وشبه أحد الشعراء درعا في صفائها مثل ماء الغدير التي تصفقه رياح الدبور فتكدره (٢) . وشبه شاعر آخر رياح الشمال والدبور بالرماد ، وهذا من التشبيهات البعيدة (٣) . وكان الشعراء الجاهليين كانوا يتشاءمون من ريح الدبور ، فاقترن ذكرها أحيانا بالحروب (٤) . وكان الدبور تذهب بالسحاب ، يقول بشر بن أبي خازم :

فَقَدَّ تَرَكَ الْأَسِنَّةَ كُلَّ وَدٍّ سَحَابَاتٍ ذَهَبْنَ مَعَ الدَّبُورِ (٥)

د- النكباء :

الريح النكباء كل ريح من الرياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين ، وإذا كثرت النكباوات واشتد هبوبها ، انحبس القطر ، وكان الجذب ، وهلك المال (٦) . "وتحرق العود من النكباء التي بين الدبور والجنوب التي تجيء من مغيب سهيل" (٧) . ونجد من يتشاءم من ريح النكباء ؛ فقد ذكر أحد الشعراء هذه الريح عند رثاء قومه الذين اقتتلوا داخل حديقة وأغلقوا بابها عليهم حتى تفانوا (٨) .

لذلك نرى التمدح والتفاخر بالكرم والإطعام عند هبوبها وريح الشمال (٩) . وهم يشبعون القوم إذا هبت النكباء المغبرة وهبت بصراد (١٠) . ويقول حاتم الطائي :

(١) الواقع والأسطورة في شعر أبي نؤيب الهذلي ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص ٢٦ .

(٢) ينظر الأصمعيات ، ص ١٨، ٢٧٠ . والمفضليات ، ص ٣٨٦ .

(٣) ينظر ديوان بشر ، ص ٩٤ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص ٩٥ . وديوان الأعشى ، ص ٤٩ . وديوان الحماسة ، ٣١٣/١ .

(٥) ديوانه ، ص ٩٥ .

(٦) ينظر ديوان سلامة بن جندل ، ص ١٣٦ . ديوان شعر المتنقب العبدى ، ص ١١٨ . ديوان الحماسة ، ٣٣٤/١ .

(٧) الأنواء ، لابن قتيبة ، ص ١٦٢ .

(٨) ينظر ديوان الحماسة ، ٣٣٤/١ .

(٩) ينظر ديوان شعر المتنقب العبدى ، ص ١١٩ .

(١٠) ينظر ديوان الخنساء ، ص ٣٤ .

وَإِنِّي لَأُغْشِي أَبْعَدَ الْحَيِّ جَفْنَتِي إِذَا حَرَّكَ الْأَطْنَابُ نَكْبَاءُ حَزَجْفُ (١)

وتهب أحيانا مع ريح الشمال ، فيشيع الجذب ، ويتفاخر الشعراء بأقوامهم ساعتها بالكرم والجود . ويقول عمرو بن قميئة مخاطبا سليمي :

بُودَكَ مَا قَوْمِي عَلَى أَنْ تَرْكَبَهُمْ ° سُلَيْمِي إِذَا هَبَّتْ شَمَالٌ وَرِيحُهَا (٢)

هـ- رياح السموم :

تهب رياح السموم صيفا في الجزيرة العربية خصوصا في نجد ، وغالبا ما يقترن الجفاف والقفط برياح السموم . فمناخ الجزيرة حار مفرط الحرارة ليلا ونهارا وخاصة في الصيف (٣).

فإذا ما انقضى الشتاء وجاء الربيع ثم الصيف تهب من ريح المصايف السموم ، تحتاج عندها الدواب إلى ورود الماء ، وكان حمار الوحش وأتانه مثلا ، إذا ما تحركت ريح الصيف وجاعت بالحر الشديد ، احتاجا لورود الماء (٤) . والطلل والمنازل قد عفتها رياح من مشات وأصيايف (٥) .

ويكون الحر في الصيف شديدا محرقا يغير لون الجلد إلى السواد خصوصا إذا ما طلعت "الجوزاء" وكان الجو مسموما شديدا الحر كأنه النار الحامية طوال اليوم ، يصل الحر من شدته ويتجاوز الثياب والعمامة إلى البدن . يقول علقمة الفحل مفتخرا بتحملة الصعاب في الرحلة :

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمَ تَجِيءُ بِهِ الْجُوزَاءُ مَسْمُومُ
حَامِ كَأَنَّ أَوَارَ النَّارِ شَامِلُهُ دُونَ الثِّيَابِ وَرَأْسُ الْمَرْءِ مَعْمُومُ (٦)

(١) ديوانه ، ص ١٠١ . والحماسة الشجرية ، ٥٣/١ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٣ . ما زائدة . أي بحق المودة التي بيني وبينك أي شيء قومي في الكرم والجود عنده هبوب الشمال والنكباء ...

(٣) ينظر تاريخ العرب ، فيليب حتي ، ١٩/١ . العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٢٠ . مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، د. حسين عطوان ، ص ٣١ .

(٤) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص ٨٦ .

(٥) ديوان عمرو بن قميئة ، ص ٧٠ .

(٦) ديوانه ، ص ٧٣ . الجوزاء برج من بروج السماء .

مَأْوَى الضَّرِيكِ إِذَا الرِّيحُ تَتَاوَحَّتْ ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مُخْلَفٌ مُتْلَافٌ (١)

وهذا لبيد بن ربيعة في الفخر يشير إلى أن قومه يبذلون للفقراء والمساكين والجيران ، إذا تقابلت الرياح ، وذلك في كلب الشتاء ، واختلاف هبوب الرياح ، جفانا تحكي بكثرة مرقها أنهارا تشرع أيتام الشاكين فيها وقد كللت بكسور اللحم ، يقول لبيد من معلقته :

وَيَكْلُلُونَ إِذَا الرِّيحُ تَتَاوَحَّتْ خُلْجًا تَمُدُّ شَوَارِعًا أَيْتَامُهَا (٢)

ويقول السموأل بن عادياء مفتخرا بنفسه :

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ بِفَضْلِ مَالِي حَقَّهُ عِنْدَ الشَّتَاءِ وَهَبَةِ الْأَرْوَاحِ (٣)

وذكر الشعراء الجاهليون رياح الشتاء دون تسمية لهذه الرياح ، فنجد من يفتخر بإطعام الطعام عند القحط واغبرار آفاق السماء إذا ما هبت رياح الشتاء الباردة عاصفة هوجاء (٤) . وتمدح زهير بن أبي سلمى بكرم هرم بن سنان بن حارثة وإطعامه أهل الحي الجياع إذا ما هبت ريح الشتاء (٥) .

ز - الرياح الباردة :

وثمة رياح باردة كانت تهب في الجزيرة العربية ، وقد تكون أسماء رياح أو صفات للرياح الباردة . فريح الشمال تكون في العادة باردة خاصة في الشرق ، وفي كثير من الأحيان تتحول إلى صقيع (٦) .

والعريّة الرياح الباردة . وريح عريّ وعريّة : باردة . وخص الأزهرى بها الشمال ، فقال شمال عريّة باردة ، وليلة عريّة باردة . ويقال ريح عريّة إذا كانت السماء نقيّة من السحاب ، وهو أشد ما يكون من البرد (٧) . يقول طرفة بن العبد :

(١) ديوانه ، ص ٢٣٧ .

(٢) شرح المعلقات السبع ، ص ٩٨ . الخليج جمع خليج وهو نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من بحر ، والخليج : الجذب . تمد : تزداد . شرع في الماء : خاضه .

(٣) ديوانه ، ص ٨٧ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٤٢١ .

(٥) ينظر شرح شعر زهير ، ص ٩٩ .

(٦) ينظر العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٢٠ .

(٧) ينظر لسان العرب مادة "عريّ" .

وَأَنْتَ عَلَى الْأَذْنَى شَمَالَ عَرِيَّةٍ شَامِيَّةٌ تَزْوِي الْوُجُوهَ بَلِيلُ (١)

ويقول ربعة بن مقوم :

وَأَضْيَافُ لَيْلٍ فِي شَمَالٍ عَرِيَّةٍ قَرَيْتُ مِنَ الْكُومِ السَّيْفِ الْمَرْعَا (٢)

فكان يستحب الكرم والإطعام إذا هبت عرية من الريح في سنة الجذب فلم تترك لذي المال ما يرفد به الضيف . يقول عمرو بن قميئة مفتخرا :

وَأِنْ صَرَحْتَ كَحْلٍ وَهَبْتَ عَرِيَّةً مِنْ الرِّيحِ لَمْ تَتْرُكْ لَذِي الْمَالِ مَرَفَدًا صَبَرْتُ عَلَى وَطْءِ الْمَوَالِي وَحَطَمِهِمْ إِذَا ضَنَّ ذُو الْقُرْبَى عَلَيْهِمْ وَأَخْمَدًا (٣)

ويقول المسيب بن علس في المدح بالكرم والجود عند هبوب الريح الباردة :

وَإِذَا تَهَيَّجَ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِهَا تَلَجَّأُ نَيْبُ النَّيْبِ بِالْجَعَجَاعِ أَهْلَتِ بَيْنَكَ بِالْجَمِيعِ وَبَعْضُهُمْ مَتَفَرَّقٌ لِيَحْلَلَ بِالْأَوْزَاعِ (٤)

ويتمدحون ويتفاخرون بالكرم والإطعام إذا ما طرقت بليل ، وهي الريح الباردة ، وتوصف بها ريح الشمال - وإذا اللقاح روجت قبل مغيب الشمس من البرد ، إذا لم تف لبنها للضيف يفي لحمها (٥) . ويتفاخرون بقري الضيف إذا ما هبت الريح الصر الباردة (٦) .

ح- ريح الشمال :

وريح الشمال عادة تكون باردة ، تهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج ومرتفعات سورية ، ولذلك عرفت بالشامية ، وكانت مكروهة لما

(١) ديوانه ، ص ١١١ . وفي ديوان الحماسة ، ١٨١/٢ .

(٢) المفضليات ، ص ٣٧٦ . وفي الأصمعيات ، ص ٢٦١ . السديف : شحم السنام . المرعب : المقطع .

(٣) ديوانه ، ص ١٠ .

(٤) المفضليات ، ص ٦٢-٦٣ . الصراد : ريح بارد يرش مطرا . ويأتي معنى الصراد السحاب الرقيق لا ماء فيه . النيب : مسان الإناث من الإبل وأحدها ناب . الجعجاع : موضع البروك . يريد أن الإبل من شدة البرد لا تبرح مباركها . وخص النيب لأنها أصبر على البرد . الأوزاع : المتفرقون . يقول : إذا كانت شدة الزمان نزلت في مجمع الناس في مجالسهم حيث يأتي السؤال والضيفان .

(٥) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص ١٠٣-١٠٤ .

(٦) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص ٩٠ .

يصحبها من برد ، ولأنها تذهب بالغيم والخصب (١) .

ويطلق على ريح الشمال "الحدواء" لأنها تحدر السحاب أي تسوقه (٢) . ويسمونها "مخوة" لأنها تمحو السحاب (٣) . ويسمونها "عقيما" لأنها عندهم لا تحمل معها المطر (٤) . والعرب تتشائم من ريح الشمال ، ويجعلونها مثلاً للشر (٥) . فالشمال تذم بأنها تقشع الغيم وتجيء بالبرد . وهي أدوم الرياح في الشتاء والصيف (٦) .

وتهب الرياح الشمالية في القر والبرد (٧) . وإذا ما هبت هذه الرياح في القر والبرد والقحط والجذب ، ترى ضجيج الفتاة يلتفع بكسائه دون ضجيعه من شدة البرد . وترى الكاعب الحسناء المنعمة صارت كالسبع ، تأكل أي طعام بعد أن كانت منعمة تعاف طيب الطعام . يقول بشر بن أبي خازم :

وَهَبَّتِ الشَّمَالُ اللَّيْلُ وَقَدْ أَضْحَى كَمِيعُ الْفَتَاةِ مُلْتَفِعًا
عَامَ تَرَى الْكَاعِبُ الْمُنْعَمَةَ حَسَنَاءَ فِي دَارِ أَهْلِهَا سُبْعًا (٨)

وثمة من يفتخر بقومه بأنهم ينزلون بكل واد كثير الحطب ، ويطبخون ولا يباليون إن كان مجدوبا إذا ما هبت الرياح الشامية شديدة البرد ، يقول سلامة بن جندل :

كُنَّا نَحُلُّ إِذَا هَبَّتْ شَامِيَّةٌ بَكْلَ وَادٍ حَطِيبِ الْبُطْنِ مَجْدُوبٍ (٩)

ورياح الشمال تسبب الجذب في الشتاء ، فتبعد المطر ، فهي تستخف السحاب وتحوله إلى مكان آخر (١٠) .

وقد يذكر بعض الشعراء الشامية الخريق الباردة الشديدة الهبوب في الحروب . فشبه بعضهم النبل بين الخصوم بالجراد الذي تقلبه الشامية الخريق ، يقول الْمُفَضَّلُ النَّكْرِيُّ في قصيدة له من المنصفات :

كَأَنَّ النَّبْلَ بَيْنَهُمْ جَرَادٌ تُكْفِيهِ شَامِيَّةٌ خَرِيقٌ (١١)

(١) ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام ، سيد عبد العزيز ، ص ٧٦ .

(٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) من كتاب الأنواء في مواسم العرب ، لابن قتيبة ، وهي على التوالي ص ١٦١، ١٦٥، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٢ .

(٨) ديوانه ، ص ١٢٥ . والبيتان من قصيدة لأوس بن حجر في ديوانه ، ص ٥٤، ٥٥ .

(٩) ديوانه ، ص ١١٩ . وفي المفضليات ، ص ١٢٤ .

(١٠) ينظر شرح ديوان ليبيد ، ص ٣٣ .

(١١) الأصمعيات ، ص ٢٣٣ .

وشبه أحدهم زحفه مع الجماعة في الغزو ، حيث الغبار . لكثرة الخيل في المعركة ،
 بريح الشمال تلف السحاب (١) .

فكانت ريح الشمال عند الجاهليين مكروهة . فنجد من الشعراء من يستعير الشمال العربية
 الشامية لشخص يهجو ويغيره بأنه على أقاربه في الأذى كهذه الريح الباردة التي تتغير منها
 الوجوه وتتقلص منها الشفاه . يقول طرفة بن العبد في هجاء صهره زوج أخته خرنق :

فَأَنْتَ عَلَى الْأَذْنَى شَمَالٌ عَرِيَّةٌ شَامِيَّةٌ تَرَوِي الْوُجُوهَ بَلِيلٌ (٢)

وريح الشمال التي عندما تهبّ يعتزّ الشعراء بأن أقوامهم يطعمون الفقراء ويملكون الجفان
 بالإبل السمان (٣) .

ونرى التفاخر بالإطعام والكرم ومنح المعنفين وطلاب الحاجات الإبل ، وإيثار الضعفاء على
 العيال إذا هبت رياح الشمال الباردة (٤) . يقول المرقش الأكبر يفتخر بقومه :

الْمُطْعَمُونَ إِذَا هَبَّتْ شَامِيَّةٌ وَخَيْرُ نَادِرٍ رَأَى النَّاسَ نَادِينَا (٥)

ويقول سويد بن أبي كاهل اليشكري مفتخرا بقومه :

وَإِذَا هَبَّتْ شَمَالًا أَطْعَمُوا فِي قُدُورٍ مُشْبَعَاتٍ لَمْ تُجْعْ
 وَجِفَانٌ كَالْجَوَابِي مُلِئَتْ مِنْ سَمِينَاتِ الذَّرَى فِيهَا تَرَعٌ (٦)

وفي المدح يقول الأعشى الكبير يمدح قيس بن معد يكرب وقومه :

وَهُمْ يُطْعَمُونَ إِذْ قَحَطَ الْقَطُّ مَرُّ وَهَبَّتْ بِشَمَالٍ وَضَرِبَ (٧)

(١) ينظر ديوان بشر ، ص ٢٨ .

(٢) ديوانه ، ص ١١١ . وفي ديوان الحماسة ، ١٨١/٢ .

(٣) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص ٧٠ .

(٤) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ٥٨-٥٩ . وديوان عنتر ، ص ١٧٤ . وديوان سلامة ، ص ٢٢٦ . وديوان حاتم ، ص ٩٠ . وشرح ديوان لييد ، ص ١٧ . وشرح المعلقات السبع ، ص ٩٥ . المفضليات ، ص ٣٧٦ . وديوان الحماسة ، ١٥٢/٢ .

(٥) المفضليات ، ص ٤٣١ .

(٦) السابق ، ص ١٩٤ . مشبعات : مملوءات . الجوابي : الحياض الكبار التي يجبي فيها الماء الواحدة الجابية . الذرى : جمع ذروة وذروة كل شيء : أعلاه ، أراد الأسنمة . الترع : الامتلاء .

(٧) ديوانه ، ص ٣٨٥ .

وأنعم وأكرم بالمرثي عند هبوب ريح الشمال الباردة (١) .

يقول بشر في رثاء أخيه سمير :

المُهَيِّنُ الكَوْمَ الجِلَادَ إِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ كُلَّ يَوْمٍ شَمَالَ (٢)

ويقول لبببب في أرجوزة له في رثاء عمه أبي البراء ملاعب الأسنة :

كَانَ غِيَاثَ المَرْمِلِ المُمْتَاَحِ
وَعِصْمَةً فِي الزَّمَنِ الكَلَاَحِ
حِينَ تَهَبُّ شَمَالَ الرِّيَاَحِ (٣)

فالجذب وتعاقب سنوات المحل وقلة المطر أو انعدامه وهبوب الرياح المشؤومة على الجزيرة العربية ، من أكبر أسباب الفقر .

-٢-

الأسباب الاجتماعية

١- البناء الاجتماعي للقبيلة :

إن القبيلة في المجتمع الجاهلي هي الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه . إذ كان الجاهليون يؤمنون بوحدة القبيلة وتماسكها ، ويؤمنون بالعصبية القبلية إلى أبعد الحدود ، ويتحرون صفاء دماء أبنائها ، ولا يسمحون لأي شخص كان من القبيلة أو من غيرها أن يعيب بسمعتها وأعرافها وتقاليدها وبنائها .

وكانت القبيلة -في الغالب- تتكون من ثلاث طبقات اجتماعية : الصرحاء الذين تتمثل فيهم العصبية القبلية في أقوى معانيها . وكان هؤلاء يقيمون الأحلاف والجوار والولاء ، ويعقدون المعاهدات في السلم والحرب .

وطبقة الرقيق من الإماء والعبيد ، وهم كالخدم للصرحاء ، يجلبون بوسائل شتى ، من داخل

(١) ينظر ديوان بشر ، ص ١٢٥ . شاعرات العرب ، ص ٤٤ .

(٢) ديوانه ، ص ١٧٤ .

(٣) شرح ديوانه ، ص ٣٣٣-٣٣٤ . المرملة : الفقير المعدم . المحتاج : الذي يطلب رزقا . الكلاح : بالضم : السنة المجذبة . وبالفتح .

قرنه ، مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة . والجمع أسلاب . والإسلاب الإختلاس (١) .

لذا فثمة تشابه في معنى المحروب والمسلوب . ويجمع بينهما أنهما يصبحان - بعد وقوع الحرب والسلب عليهما - فقراء لا شيء لهما . وترى أنهما أصبحا في هذه الحال بسبب عداء الآخرين لهما في الحروب أو الغارات أو غيرهما .

وقد يكون المحروب والمسلوب كلاهما من مخلفات الحروب والغارات والنزاعات في العصر الجاهلي . يشير إلى ذلك بشر بن أبي خازم مفتخرا بأيام قومه وحروبهم ضد أعدائهم قائلا :

يَوْمَ اتَّقْنَا قُشَيْرَ الْحَرِيشِ هَوَى
كِلَا الْفَرِيقَيْنِ مُحْرُوبٍ وَمَسْلُوبٍ (٢)

وتحدث الشعراء عن الأسلاب والأنفال التي يغتتمها المنتصر من حروبه وغاراته ، فيعود المنتصر الممدوح أو المفتخر به بأسلاب وأنفال وغنائم كثيرة (٣) .

ونجد كذلك وصفا للمحروب .. الذي سلب ماله ولم يبق له شيء بعد الحروب . يقول الأعشى في مدح الأسود بن المنذر اللخمي وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي قام بغارة فأصاب نعما وأسرى وسبائا فترك شيوخا حربى أخرجوا عما يملكون فأصبحوا فقراء وكانوا أغنياء قبل الإغارة عليهم ، وآخرين قد أصبحوا أغنياء بعد ما كانوا فقراء قبل غارتهم وانتصارهم ، يقول الأعشى من ذلك :

وَشُيُوخَ حَرْبِي بِشَطَطِي أَرِيكَ
وَنِسَاءٍ كَانَتْهُنَّ السَّعَالِي
وَشَرِيكَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَا
لِ وَكَانَا مُحَالَفَيْنِ إِقْلَالِ (٤)

وفي الحروب والغارات يصبح الفقير غنيا والغني محروبا مسلوبا ماله ، داره دار فقير . يقول سلامة بن جندل في فرس له :

كَمْ مِنْ فَقِيرٍ بِإِذْنِ اللَّهِ قَدْ جَبَرَتْ
وَذِي غِنًى بَوَّاتُهُ دَارَ مُحْرُوبٍ (٥)

(١) ينظر لسان العرب مادة "سلب" . وينظر من الشعر في ذلك المعنى ديوان عبيد ، ص ٢٥ .

(٢) ديوانه ، ص ٤٠ ، قشير والحريش من أحياء بني عامر ، من بطون بني كعب بن ربيعة بن عامر . فالمحروب في هذه الحروب : الذي نهب ماله وترك لا شيء له . والمسلوب الذي أخذ ما عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة .

(٣) ينظر مثلا ديوان الأعشى ، ص ٧٣ .

(٤) ديوانه ، ص ٦٣ .

(٥) ديوانه ، ص ١٠٩ . جبرت : أغنت ولمت شعته . بواته : أنزلته .

ونرى الحريب يشكو الهوان بعدما أخذت أمواله في الحروب ، يشير إلى ذلك بشر بن أبي خازم مقتخرا بانتصارات قومه على الأعداء :

لَحُونَاهُمْ لَحَوُ الْعِصِيِّ فَاصْبَحُوا عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْهَوَانُ حَرِيْبُهَا (١)

وليست الحروب هي التي تخلف المحروب والمسلوب فحسب ، ولكن قد نجد أن الكرم والجود والعطاء تحرب الأموال في رأي بعض النساء اللواتي يلمن الرجال على جودهم . ويعتبرن العطاء والكرم سلباً وحرباً للأموال ... وأن هذا العطاء يترك الأهل فقراء ، كما زعمت "رهم ابنة العباب" التي كانت تلوم ابنها حطائط بن يعفر النهشلي الشاعر على جوده (٢) .

وعلى كل حال فالمحروب والمسلوب كلاهما كانا ممن يحتاجون للعون والمساعدة وتعويضهم عن الأموال التي ذهبت منهم ومواساتهم (٣) . لذلك فإننا نجد التفاخر والتمدح بتقديم المساعدة للمحروب والمسلوب . كما يقول طرفة بن العبد في الفخر بيوم تحلاق اللّم ، وكان هذا اليوم لبكر على تغلب :

سَاسِلُوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا بَقَوَانَا يَوْمَ تَحْلَقُ اللَّمُّ
- يَجْبُرُ الْمَخْرُوبَ فِينَا مَالَهُ بَيْنَاءٍ وَسَوَامٍ وَخَدَمٍ (٤)

ويقول الأعشى الكبير ميمون بن قيس مقتخرا :

وَمِنَّا الَّذِي أُسْرِيَ إِلَيْهِ قَرِيبُهُ حَرِيْبًا وَمَنْ ذَا أَخْطَأَتْ نَكْبَاتُهَا
فَقَالَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا أَرَى رَحِمًا قَدْ وَافَقَتْهَا صَلَاتُهَا
أَثَارُ لَهُ مِنْ جَانِبِ الْبُرْكِ غُدْوَةٌ هُنَيْدَةٌ يَحْدُوهَا إِلَيْهِ رُعَاتُهَا (٥)

فهذا القريب الذي مسه الضر ونكب في ماله ، كان ممدوح الأعشى يستقبله استقبالا حسنا ، وقام إلى مبارك الإبل - قبل أن يصبح الصباح - وساق إليه قطيعا فيه مائة ناقة يحدوها رعاتها .

(١) ديوانه ، ص ١٨ . اللحو : قشر العود . الآله : الحالة .

(٢) ينظر ديوان الحماسة ، ٣٤٣/٢ - ٣٤٢ .

(٣) ينظر مثلا شرح ديوان لبيد ، ص ٢٠٣ . وديوان الحماسة ، ٣٦/٢ .

(٤) ديوانه ، ص ١٢١ . يجبر : يصلح ويخلف عليه . بيناء : أي يبني له بيتا . السوام : المال الراعي .

(٥) ديوانه ، ص ١٥ .

ومن الشعراء الجاهليين من كان يعلي شأن الحارب الغاصب الناهب وفي نفس الوقت الجابر الحريب المسلوب . يقول لبيد بن ربيعة العامري في رثاء أريد :

الحارب الجابر الحريب إذا جاء نكيباً وإن يعدّ يعد (١)

فهو الحارب لأعدائه والجابر الحريب من قومه .

ب- الأسير

في الحروب والغارات في العصر الجاهلي يكثر الأسرى . وكان الرجل المشترك في هذه الحروب والغارات يطمح في أسر الرجال وسبي النساء . لأن الأسير كان يفدى بماله إن كان صاحب مال وفير ، أو من قبل قومه وذويه إن استطاعوا فديته ، وإلا سيعيش هذا الأسير في بؤس وشقاء . وكذلك إن كانت الفدية قليلة لهذا الأسير فسوف يلقي شقاء وعناء شديدين قد تكلفه حياته أحيانا (٢) . لذلك ترى الإفتخار بأسر السادة الأثرياء والملوك الأغنياء (٣) . وبالأسرى تكبل بالصفاد (٤) . ويفخرون كذلك بمن يكبل أسيرا في الحديد زمانا ليكون له خوار (٥) .

ومن الأسرى من يكون ثريا فيفدي نفسه بماله فيصبح بلا مال (٦) .

وقد يمن على الأسير بالفداء إن كان فقيرا ، ويفتخر من يقوم بهذا المن (٧) . وكانوا يتفاخرون بفداء الأسرى وفك أغلالهم وقيودهم (٨) والمال عند بعض الجاهليين :

يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي وَيُؤَكَّلُ طَيِّباً وَيُعْطَى إِذَا مَنْ الْبَخِيلُ الْمُطَرَّدُ (٩)

(١) شرح ديوانه ، ص ١٥٨ .

(٢) ينظر الأصمعيات ، ص ١٥٠ .

(٣) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص ١١٢ .

(٤) ينظر ديوان عنتره ، ص ٧٩ .

(٥) ينظر ديوان بشر ، ص ٢٨٩ .

(٦) ينظر المفضليات ، ص ١٥٧ ، ٣٢٧ .

(٧) ينظر السابق ، ص ٣٢٨ . وديوان سلامة ، ص ١٧٦ .

(٨) ينظر ديوان أوس ، ص ١٢٥ . وشرح ديوان لبيد ، ص ٢٥١ . وديوان سلامة ، ص ٢٠٢ .

(٩) ديوان حاتم الطائي ، ص ٧٠ . وله بيت آخر بهذا المعنى في ديوانه ، ص ٨٤ .

وتمدح الجاهليون بفك "أغلل الأسير المقيّد" (١) . وفكّ "عان كبيل" (٢) . ويمدحون من
يفك الأسرى ويفتدي الأسير الضعيف السقيم بالمال (٣) .

وفي شعر الرثاء يكون المرثي للأسير العاني معوانا يفتديه بماله ، فمن للأسير بعد هلاك
المرثي (٤) .

وفي الشعر الجاهلي ذكر للأسير المكردس ، المطروح على جنبه المنقبض على نفسه ، لأنه
يكون موتقا مقيداً لا يتحرك وهو نائم على خده (٥) . وكان هذا الأسير المكردس مشبه به
للثور الوحشي (٦) وللحمار الوحشي (٧) . وشبه الأعشى حبه لصاحبته "قتيلة" بالأسير
المكردس (٨) .

وكان الأسير تبكي عليه إمرأته ، وإذا ما أسر يكون عند من أسره بمنزلة الكلب ، يجوع
فيهم "وإن طعموا" (٩) .

ويكون الأسير هزيلا مكسور الجناح . يقول بشر يمدح أوس بن حارثة مشيرا إلى حادثة
وقوعه أسيرا في يد أوس بن حارثة وإطلاق أوس إياه وحبائه بعد إطلاقه :

فككت أسيراً ثم أفضلت نعمةً فسلم مبرئ العظام مهيضاً (١٠) .

وقد كان أسر شخص يسبب الفقر لأسرته بعد أسره . فعامر بن الطفيل يفخر بانتصاراته
وقومه على القبائل ، وأسره لحاجب بن زُرارة ، ولم يتركوا لأسرته سواما :

(١) شرح شعر زهير ، ص ١٦٨ .

(٢) ديوان الأسود ، ص ٥٤ .

(٣) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٨٧ . وديوان علقمة ، ص ١٠٤ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص ٦٦ . والأصمعيات ، ص ٥٥ .

(٥) ينظر ديوان بشر ، ص ١٠٣ .

(٦) ينظر السابق .

(٧) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص ١١٦ .

(٨) ينظر ديوانه ، ص ٤٠١ .

(٩) ديوان الهذليين ، ١٣/٣ . لذلك جاء في القرآن الكريم قوله تعالى "ويطعمون الطعام على
حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" .

(١٠) ديوانه ، ص ١٠٨ . وكان بشر قد هجا في شعره أوسا . وكان بشر ذكر أنه ثوى أسيرا
ثلاث سنين ، ديوانه ، ص ٢٨٩ .

أَسْرَنَّا حَاجِبًا فَتَوَى أَسِيرًا وَلَمْ نَتْرُكْ لِأُسْرَتِهِ سَوَامَا (١)

فالحروب سبب لا يستهان به من أسباب الفقر في العصر الجاهلي كما يبدو من الشعر الجاهلي .

٣- كثرة العيال

كان البعض في العصر الجاهلي ممن لهم أولاد كثر يشكون الفقر والحاجة أكثر من غيرهم ممن ليس عندهم أبناء أو لديهم الأولاد ولكنهم قلة ، وأقصد بالأولاد الصبية الصغار . إذ إن أبا الصبية بحاجة إلى كد وتعب وطواف في البلاد من أجل الحصول على الرزق ليكفي أولاده مؤونة العيش .

فنرى أبا الصبية ضعيفا هزيلا يشكو الفقر والحاجة ، وله أولاد عجاف . قام عروة بن الورد بمساعدته وأخذ بيده كما يقول :

إِذَا قُلْتُ قَدْ جَاءَ الْغِنَى حَالُ دُونِهِ أَبُو صَبِيَّةٍ يَشْكُو الْمَفَاقِرَ أَعْجَفُ (٢)

ونقرأ في الشعر الجاهلي من يشكو انحناء الظهر والتقدم في العمر وكثرة العيال (٣) . فصاحب العيال إذا كان فقيرا قليل المال يطرح نفسه كل مطرح كي يصيب شيئا من الرزق لعياله الفقراء (٤) .

وهذا الأشعث الفقير ذو عيال فقراء همهم ما ينفقونه كل الوقت يطلبون من أبيهم أن يغزو راجلا كي يصيب غنيمة أو مالا ينفقونه . يقول أبو ذؤيب الهذلي في هذا الفقير وقد قام أبو ذؤيب وجماعته بقتله وشفاء غيظه :

وَأَشْعَثَ بَوْشِي شَفِينًا أَحَاخَهُ غَدَاتَكَ ذِي جَرْدَةٍ مَتَاجِلِ
أَهْمَ بَنِيهِ صَيْفُهُمْ وَشِتَاؤُهُمْ فَقَالُوا تَعْدُ وَاغْزُ وَسَطَ الْأَرَاكِ (٥)

وكان غيظ هذا الأشعث الفقير ناتجا عن فقره وكثرة عياله . وقد زعموا أن العيال سوس

(١) ديوانه ، ص ١١٣ . ثوى : أقام في الأسر . الثاوي : المقيم ، والثواء : الإقامة . يقال ثوى فلان في مكان كذا وكذا وأثوى . السوام : ما رعى من الإبل يقال سامت تسوم والمسيمة الراعي .

(٢) ديوانه ، ص ١٠٧ .

(٣) ينظر في ديوان ذي الإصبع العدوانى ، ص ١٥٦ .

(٤) ينظر ديوان عروة ، ص ٤٠ .

(٥) ديوان الهذليين ، ٨٣/١ .

المال ، وأنه لا مال لذي عيال" (١) . لذلك نرى بعض الجاهليين يقتلون أبناءهم من الفقر أو خشيته (٢) . وسنرى عادة الوأد خشية الفقر في فصل وسائل دفع الفقر .

وثمة أسباب أخرى غير التي ذكرنا تسبب الفقر . منها الحملات والديون والديات والغرامات (٣) . فالقبيلة أو العشيرة تشترك في الجريمة .

ومن العادات الجاهلية التي كانت منتشرة بين أفراد المجتمع شرب الخمر ، وإنفاق الثاقل والطريف فيها (٤) . وكان الكثيرون يهينون أموالهم ويضيعون ثرواتهم في سبيل اللذة والمتعة وشرب الخمر فنجد من يتلف ماله على الخمر والنساء ولعب القمار (٥) . وليس هذا فحسب بل قد يرهن الرجل امرأته في شرب الخمر . ولا نعدم من حرم الخمر على نفسه لأنها تسلب المال والعقل (٦) .

وهناك معتقدات وعادات جاهلية كانت من جانب تشكل إسرافا وتبذيرا ومن جانب آخر تسبب الفقر إلى حد ما . فكان العرب يعقلون ناقة الرجل عند قبره حتى تموت ، ويطلق على هذه الناقة : البلية (٧) .

ومن عاداتهم ومعتقداتهم عقر الإبل على القبور ، وتقديم القرбан للآلهة ، والبحيرة السائبة والوصيلة والحامي لا ينتفعون منها .

وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله : "ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا

(١) البخلاء ، للجاحظ ، ص ٢٠٤ .

(٢) كما ورد في القرآن الكريم عن الجاهليين . في سورة الأنعام ، ١٥١ ، وسورة الإسراء ٣١ .

(٣) ينظر مثلاً في معنى ذلك : ديوان الأعشى ، ص ٢٥٣ . وديوان أوس ، ص ١١٤ . والمفضليات ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٨ .

(٤) ينظر مثلاً : ديوان طرفة ، ص ٤٥ .

(٥) ينظر مثلاً : ديوان الأعشى . وديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٣ .

(٦) ينظر كتاب "الأشربة" ، لابن قتيبة ، ص ٢٦ ، ٦٨ . و"الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، أحمد الحوفي ، ص ٤٥٢ .

(٧) ينظر مثلاً : شرح ديوان لبید ، ص ٣١٩ . وشرح المعلقات السبع ، ص ٩٨ . والمفضليات ، ص ٣٦٨ .

حام" (١) لأن الله يعلم أن ذلك يلحق بالإنسان الضرر الكبير في عدم الإنتفاع بهذه الحيوانات "وهذه هي الجاهلية في تضييع المال بلا دليل من عقل أو شريعة" (٢) .

-٣-

أسباب نفسية

١- الكرم

مع أنني أفردت حديثاً مفصلاً لظاهرة الكرم في الفصل التالي من مظاهر الفقر ، لأن الكرم ظاهرة لها أكثر من تفسير من حيث دوافعها وأسبابها ونتائجها ، لكنني سأشير في هذا المقام إلى أن الإسراف في الكرم قد يسبب الفقر لصاحبه . كما يشير إلى ذلك ليبد بن ربيعة عندما لامته زوجته على فقره وسوء حاله وقلة ماله ، فأجابها بقوله :

ولكنّ مالي غالاه كلّ جفنةٍ إذا حانَ ورْدَ أسْبَلتْ بِدُمُوعٍ
وإعطائي المولى على حين فقره إذا قالَ أبصرْ خلّتي وخشوعي (٣)

وتجدر الإشارة إلى أن البخل الشديد الذي كان يتصف به بعض الأغنياء الجاهليين كان يسبب الفقر أو يزيد من حدته من قريب أو من بعيد . لأن البخل ما هو إلا إمساك الخيرات واحتكار الأموال لدى شخص دون المجموع .

٢- العجز الجسمي وذلك لعدة أسباب :

أ- الضعف :

من نواميس الكون أن يوجد الشيء وضده . فيوجد الإنسان القوي والإنسان الضعيف الذي لا حول له ولا قوة . وفي الضعف فقر ، لأن الضعيف غير قادر على الكسب كما ينبغي ،

(١) المائدة آية ١٠٣ . والبحيرة : الناقة التي نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، فيبحرون أي يشقون أذنّها ، ويحرمون نحرها وركوبها والإنتفاع بها . والسائبة : الناقة التي تنتج عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تتركب ولا يشرب لبنها إلا ضيف . الوصيلة : إذا ولدت النشاة ذكراً جعلوه لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا أوصلت أخاها أي دفعت عنه الذبح فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

(٢) الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية ، علي العتوم ، ص ٤٤٤ .

(٣) شرح ديوانه ، ص ٧٠ - ٧١ . غاله : ذهب به .

خصوصاً في العصر الجاهلي ، حيث كان الإعتماد في الرزق على الرحلة والتتقل والحركة والتي عمادها القوة .
فإذا لم يكن للضعيف سند أو ناصر شكوا الفقر والهوان (١) .

ب- الشيخوخة :

كبير السن ضعيف ، فإذا لم يجد معيناً أو ناصرًا يعينه على معيشتة ، وإذا لم يكن له سند كان يكون ذا مال أو ثروة أو صاحب شأن ، حقت عليه لعنة الفقر والفقراء . ففي الكبر ضعف وعجز أي عجز . وفي الضعف والعجز فقر وحرمان (٢) .

ج- الأدواء :

إن الأمراض في المجتمع الجاهلي كانت حتمية ومتوقعة ، لذلك فالمريض سيء الحال ، غير قادر على الكسب ، يشكو الفقر والهوان والحرمان ، يصارع هم المرض وهم الفقر ، فهو في عذاب ما بعده عذاب . ونجد في الشعر الجاهلي وصف الضرير أو المضروب بمرض أو هزال أو نحوه (٣) .

د - عدم القدرة على الكسب وعدم وجود المعيل . كالأرامل والأيتام الذين كانوا يشكون الفقر (٤) .

ولنا حديث آخر عن هذه الفئات الفقيرة في الفصل الرابع من هذه الرسالة - إن شاء الله - .

(١) ينظر مثلاً : ديوان امرئ القيس ، ص ١٣٢ . وديوان الحماسة ، ١/١٣١ . والحماسة البصرية ، ١/٤٢٩ .

(٢) ينظر في مثل ذلك : ديوان عدي بن زيد ، ص ١١٣ . وديوان ذي الإصبع العدواني ، ص ١٥٦ . وديوان عبيد بن الأبرص ، ص ١١٤ . وديوان عروة ، ص ١١٤ .

(٣) ينظر مثلاً : ديوان حاتم ، ص ٩٣ . والأصمعيات ، ص ٤٥ . والمفضليات ، ص ١٨٧ .

(٤) ينظر مثلاً : ديوان بشر ، ص ١٧٤ . وديوان الأعشى ، ص ٣٧٥ . وديوان الأسود ، ص ٥٢ . وديوان عروة ، ص ١٢٠ . وديوان الحماسة ، ٢/٣٥ ، ٣٤٥ .

الفصل الثالث

مظاهر الفقر في الشعر الجاهلي

الفصل الثالث

مظاهر الفقر في الشعر الجاهلي

في هذا الفصل بعض مظاهر الفقر ، وهي المظاهر الكبرى - في رأيي - في حياة الجاهليين ، شغلت بال الشعراء في العصر الجاهلي . وقام بعض الباحثين في عصرنا الحاضر بالبحث في هذه المظاهر ، سواء كانت بحوثاً مستقلة أو جزئيات من بحوث تناولت العصر الجاهلي بشكل أو بآخر .

فظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي لا يستهان بها . وكان الصعلاليك من الفقراء ، تحدثوا - الشعراء منهم - عن فقرهم وتشردهم ، وجوعهم وهزالهم ، وظلم المجتمع لهم . وحاولوا التخفيف من حدة هذا الفقر بوسائل شتى ابتغاء المعيشة الأفضل بعزة وشرف . فقد كان هؤلاء الصعلاليك قبل صعلكتهم طبقة مهانة فقراء في الغالب ، أهينوا من قبل المجتمع وأعرافه وأنظمتهم ؛ ولنظرة المجتمع الجاهلي للفقير نظرة احتقار وازدراء في الغالب ، كل ذلك جعل في نفوس هؤلاء الفقراء حب التخلص من منزلتهم الحقيرة ، والابتعاد عن الفقر وشروبه . فالصعلكة مظهر من مظاهر الفقر ؛ لأن الصعلاليك فقراء ، وفي نفس الوقت سلكوا سبيل الصعلكة للتخلص من هذا الفقر .

أما الحروب والغارات .. فقد تغني أقواماً وتفقّر أقواماً آخرين . فقد تسبب الفقر وتخلف الفقراء ، فتسلب مال الغني ليصبح فقيراً ، وقد يغني الفقير فيها فيلحق بأصحاب الثراء والغنى . وقد تكون الحروب والغارات من وسائل الجاهليين لدفع الفقر والحصول على الغنى . أما الكرم ، فكان مقدساً عند الجاهلي ، خصوصاً وقت الشدة والمحل والفقر ، ولا نعدم من يكرم وهو في فقر وقلة مال . والكرم قد يدفع جزءاً من الفقر ويخفف من حدته . وفي نفس الوقت قد يسبب الفقر لأصحاب الجود والكرم ولأهلهم .

-١-

الصعلكة

١- مفهومها

تدور كلمة "الصعلكة" في دائرتين (١) : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة وهي الفقر . فأما الدائرة اللغوية فتنتهي حيث بدأت ، ويبدأ الصعلوك فيها فقيراً ،

(١) الشعراء الصعلاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليل ، ص ٥٩ .

ويظل في نطاقها فقيرا يخدم الأغنياء أو يستجديهم فضل مالهم ، ثم يموت فقيرا .
فالصعلوك في الدائرة اللغوية : هو الفقير الذي لا مال له . والتصعلك : الفقر (١) ، وقد
تصعلك الرجل إذا كان كذلك كما يقول حاتم الطائي :

عَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصْعَلِكِ وَالْغِنَى فَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَاسِيَهُمَا الدَّهْرُ (٢)

فمادة "صعلك" تدل على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان في الحياة ، وضيق في
أسباب العيش . والذي يمثل هذه الدائرة اللغوية هو الصعلوك الخامل الذي يذمه شعراء
الصعاليك (٣) وغير الصعاليك (٤) .

وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء .. يبدأ الصعلوك فيها فقيرا ، ثم يحاول
أن يتغلب على الفقر الذي فرضته عليه أوضاع اجتماعية ، أو ظروف اقتصادية ، وأن يخرج من
نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه من أجل هذه الغاية - لا يسلك السبيل التعاوني ،
وإنما يدفعه "لاتوافقه الاجتماعي" إلى سلوك السبيل الصراعي ، فيتخذ من "الغزو والإغارة للسلب
والنهب" وسيلة يشق بها طريقه في الحياة . فيصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية
مظهرا من مظاهر التمرد ، وتتقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ،
ويحرمه حمايته ، ويعيش الصعلوك خليعا مشردا ، أو طريدا متمردا - حتى يلقي مصرعه . فأما
أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفزع الذي كانوا يترقبونه في كل حين ، كما يترقب غائبا منتظرا
أهله - كما يشير عروة إلى ذلك في قوله :

إِذَا بَعْدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ تَشَوَّفَ أَهْلُ الْغَائِبِ الْمُنْتَظَرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرُ (٥)

والذي يمثل هذه الدائرة الاجتماعية هو الصعلوك العامل الذي يمدحه الشعراء (٦) .

(١) لسان العرب مادة "صعلك" .

(٢) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص ٨٤ . والشطر الثاني للبيت في الديوان "كما الدهر في أيامه
العسر واليسر" .

(٣) ديوان عروة بن الورد ، ص ٧٢-٧٣ ، و ديوان الشنفرى ، ص ٣٤ .

(٤) ديوان حاتم الطائي ، ص ١١٢، ٦٥ .

(٥) ديوانه ، ص ٧٣ . "تشوف أهل الغائب المنتظر" أي ينتظره أعداؤه في كل ساعة كما ينتظر
أهل الغائب غائبهم حتى يقدم ، فأعينهم إليه يتشوفونه . أجدر : أي أخلق عذر نفسه في الطلب
وإن بقي فاستغنى أنفق ماله فيما تبقى له محامده في حياته وبعد موته .

(٦) ينظر مثلا ديوان عروة ، ص ٧٢ . وديوان حاتم ، ص ١١٢ .

فالصعلكة هي الفقر والصعلوك هو الفقير في دائرة اللغة ، ثم تطور المصطلح ليحمل في جانبه الطابع العدواني والسلب والنهب لتحقيق الذات (١) .

٢- فئات الصعاليك وطوائفهم وأسباب تصعلكهم :

تتألف عصابات الصعاليك من ثلاث طوائف : طائفة الخلعاء والشذاذ الذين تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم من حماها ، ونبذتهم لكثرة جرائمهم وأخطائهم حفاظا على وحدة القبيلة . ومن هؤلاء حاجز الأزدي وقيس بن الحداية وأبو الطمحان القيني (٢) .

وطائفة الأغربة السود أبناء الإماء الحبشيات السود مثل تأبط شرا والشنفري والسلبيك بن السلعة (٣) .

ثم طائفة الفقراء الذين احترقوا الصعلكة نتيجة لعدم توازن الثروات بين القبائل والمدن والقرى في العصر الجاهلي ، مما أدى إلى وجود الأغنياء المترفين والفقراء المعدمين ، مما جعل بعض الفقراء يحترفون الغزو لاستخلاص أموالهم . مثل عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب (٤) .

وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل وصعاليك فهم (٥) .

ويمكن لنا أن نرجع سبب الصعلكة إلى سوء توزيع الثروات في العصر الجاهلي وعدم التوازن بين الغنى والفقر ، مما أدى إلى ظهور طبقة غنية وأخرى فقيرة مهضومة الحقوق .

(١) ينظر "الشعراء الصعاليك" ، يوسف خليف ، ص ٢٣، ٢٦، ٥٩، ٦٠ . و "العصر الجاهلي" ، شوقي ضيف ، ص ٣٧٥ . و "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، أحمد محمد الحوفي ، ص ٢٩٩ . وترتبط في معنى الصعلكة والصعلوك مصطلحات كثيرة منها الخلعاء والشذاذ واللصوص والشطار . انظر فيها مثلا لسان العرب المواد : "خلع" ، "شطر" ، "لص" . وينظر تاج العروس والصحاح وأساس البلاغة مادة "لص" .

(٢) الأغاني (بيروت) ، ١٤/١٣٧ .

(٣) السابق ، ٢٠/٣٤٦ . والمزهر للسيوطي ، ٢/٢٦٩ .

(٤) ينظر الأغاني ، ٣/٨٢ (دار الكتب المصرية) .

(٥) ينظر في ذلك وفي فئات وطوائف الصعاليك ، المراجع التالية : الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص ٥٧-٥٨ . العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٣٧٥ . الشعراء الصعاليك ، حسين عطوان ، ص ٩-١١ .

فالجزيرة العربية وهي موطن العرب في العصر الجاهلي يكثر فيها الجفاف والقحط والجذب والفقر وهذا ليس غريباً على البيئة في الجزيرة العربية وخاصة في الحجاز فهي بيئة أهم مواردها الرعي ، ثم قليل من الخصب الزراعي في مناطق محدودة من اليمن ، وفي شمال الجزيرة ، وبعض المناطق في نجد وحول يثرب والطائف . يضاف إلى ذلك النشاط التجاري الذي يعتمد على موارد البيئة والحاجة .

وإذا أخذنا - بعين الاعتبار - التمييز العرقي بين فئات القبيلة الواحدة وإيمانها بوحدةها ، فالصرحاء من القبيلة في أعلى السلم من حيث الحقوق المميزة والمكانة الاجتماعية ويليهم الموالي ثم العبيد وهم فئة فقيرة معدمة . وجدنا أن الفقر والحاجة والحرمان والاحساس بالفقر والظلم الاجتماعي هي من الأسباب القوية للصعلة (١) . والذي أوجد هذا الاحساس بالفقر ، وجود رجال عندهم الهمة وأنفة النفس في بيئة فقيرة معدمة ، موارد العيش لهم فيها قليلة ، بينما في جوارهم بيئات خصبة ورجال أغنياء يعيشون عيشة رغيدة . فلم يكن هنالك مفر لهؤلاء الرجال أن يحترفوا الغزو والإغارة للسلب والنهب ينهبون ويسلبون ويغيرون على المناطق الخصبة ، ويعترضون القوافل التجارية وقوافل الحجاج ، "وأماكن انتشارهم كان بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية" (٢) .

٣- صفات مشتركة بين الصعاليك

وقد جمع بين طوائف الصعاليك الفقر والجوع والحرمان والتشرد والتمرد والسلب والنهب والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي خرجت منه ، والإيمان بأن الحق للقوة وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع ، حيث الفقير يزداد فقراً كل يوم ، ويزداد فيه الأغنياء كل يوم غنى . فالفقر يعتبر صفة مشتركة بين الصعاليك ، والذي لم تستطع حتى جهودهم في الصعلة ، على قوتها وعنفها أن تخلصهم منه (٣) .

(١) ينظر مثلاً : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، يوسف خليل ، ص ٤٦ . وشعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، عبد الحليم حفني ، ص ١٨٥، ٥٥ . والشعراء الصعاليك في العصر الإسلامي ، حسين عطوان ، ص ٤٥ .

(٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٣٧٦ .

(٣) ينظر الشعراء الصعاليك ... ، يوسف خليل ، ص ٥٨ . والشعراء الصعاليك ... ، حسين عطوان ، ص ١٠ . و "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه" ، عبد الحليم حفني ، ص ١٨٤ .

واتصف الصعاليك في العصر الجاهلي بصفات جسدية ومعنوية تعبر عن نفورهم من المجتمعات التي تحتكر الغنى لأفراد ، ويبقى الآخرون في فقر شديد أذلاء مضيعين ، وتساعدهم على الخروج من دائرة الفقر وانحطاط منزلتهم الاجتماعية . ونجد هذه الصفات جلية واضحة في شعر شعرائهم . فاتصفوا بالشجاعة والقوة (١) ، ومعرفة مجاهل الصحراء (٢) والعدو والسرعة (٣) ، يحسنون الإغارة والغزو (٤) فكانوا يغيرون أحيانا فرادى (٥) وأحيانا في جماعات (٦) على الخيل وعلى أرجلهم .

وبكراهميتهم للأغنياء البخلاء (٧) فاتصفوا بالكرم والعطاء (٨) والإحسان للفقراء (٩) والصبر على الشدائد والجوع (١٠) . وبرغم فقرهم نجد في شعرهم عزة النفس للإنسان الفقير (١١) ،

-
- (١) ينظر مثلا : ديوان الشنفرى ، ص ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤٠ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٢٣، ١٣٩ . وديوان عروة ، ص ٧٢ . والحماسة الشجرية ، ١/ ١٧٨ .
- (٢) ينظر مثلا : ديوان الشنفرى ، ص ٣٨، ٣٤ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٥٠، ١٦٤، ١٨٣ .
- (٣) ينظر مثلا : الحماسة الشجرية ، ١/ ١٧٩ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٣٣، ١٥١، ١٥٢، ١٦٣ . وديوان الشنفرى ، ص ٣٤ .
- (٤) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص ٧٤، ١٠٠، ١١٦ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٣٧، ١٥٧، ١٦٨، ١٧٧، ١٨٦، ١٩٦، ٢٠٦ . وديوان الشنفرى ، ص ٣٢ .
- (٥) ينظر مثلا ديوان تأبط شرا ، ص ١٧٧، ١٨٤ . وديوان الشنفرى ، ص ٣٦ .
- (٦) ينظر مثلا الأغاني ٣/ ٨١، ٨٢ (دار الكتب المصرية) . وديوان الشنفرى ، ص ٣٢ .
- (٧) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص ٣٥، ٨٣ .
- (٨) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص ١٤١، ١٧٥، ٢٠٤ . وديوان عروة ، ص ٤٤، ٦٤، ٨٥، ٩٠، ١٠١ .
- (٩) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص ١٥٠ . وديوان عروة ، ص ٥٢، ١٢١، ١٢٢ . والأغاني (دار الكتب المصرية) ، ٣/ ٨١ .
- (١٠) ينظر مثلا : ديوان الشنفرى ، ص ٣٣، ٣٧ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٣٤ . وديوان عروة ، ص ٦٥ . وديوان الهذليين ، ٢/ ١٢٧-١٢٨، ١٤١ .
- (١١) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص ١٣٦، ١٨٠ . وديوان عروة ، ص ٣٤، ٤٢، ٤٨، ٨٩ . والحماسة الشجرية ، ١/ ٤٧٧ .

والاستهانة بالموت (١) .

وكل الصعاليك فقراء ، دون استثناء ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك كان فقيراً مثلهم (٢) .

ونجد في شعر شعرائهم صيحات الفقر والجوع والحرمان والتشرد في الصحراء ، والثورة على الأغنياء . والمميز في ذلك أنهم - غالباً - يتحدثون عن فقرهم هم أنفسهم (٣) .

٤- الفقر في شعر الصعاليك

صور الشعراء الصعاليك فقرهم الذي يمثل فقراً قاسياً (٤) ، وذكروا أسبابه ، وتأثيره في أجسامهم ، وأثره النفسي على حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التي يسلكونها للتخلص منه ، أو للتخفيف من حدة وطأته عليهم (٥) .

فتحدثوا عن فقرهم وحرمانهم من أسباب الحياة الأساسية ، يقول الأعمى الهذلي راسماً صورة لأهله وأولاده الفقراء :

وذكرتُ أهلي بالعرا و حاجة الشعث التوالب
المضرمين من التلا د اللامحين إلى الأقارب (٦)

ويقول تأبط شراً في محادثة بينه وبين ذئب ، بأنه مثل الذئب ، لا يملك شيئاً ، وإنما يعتمد في معيشتة كما يعتمد الذئب كلما أحس بالجوع . بل يشك في أن الذئب بلغ من الفقر ما بلغه هو :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل مني ذلول مرحل
وواد كجوف العير فقر قطعه به الذئب يغوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول

(١) ينظر مثلاً : ديوان الشنفرى ، ص ٣٩ . وديوان عروة ، ص ٢٩ ، ٥١ ، ٧٣ ، ١١٤ ، ١٣١ . والأغاني (دار الكتب) ، ٨٢/٣ .

(٢) الشعراء الصعاليك ... ، يوسف خليف ، ص ٢٨ .

(٣) ينظر الشعر الجاهلي منهج ... محمد النويهي ، ٢٧٣/١ . والعصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٣٧٥ .

(٤) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، عبد الحليم حقني ، ص ١٨٥ ، ٥٥ وما بعدها .

(٥) الشعراء الصعاليك ... يوسف خليف ، ص ١٣٢ .

(٦) ديوان الهذليين ، ٨١/٢ .

كَلَانَا إِذَا مَا نَالْ شَيْئًا أَفَاتَهُ ' وَمَنْ يَحْتَرِثُ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يَهْزِلْ (١)

وصخر الغي يتحدث عن فقره وضيق ذات يده ، إذ يقول :

إِنِّي بَدِّهْمَاءَ قَلَّ مَا أَجِدُ ' عَاوَدَنِي مِنْ جَبَابِهَا زُودُ (٢)

ويقول عروة يصف نفسه بالفقر الذي يدفعه إلى مجابهة المخاطر :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا ' يَغْزُو وَيَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ (٣)

ويقول عمرو بن براقة أن سيفه معظم ماله :

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلَّ مَالِهِ ' حَسَامَ كُلُّونِ الْمِلْحِ أبيضُ صَارِمُ (٤)

ويصرح عروة بأن سلاحه كل ما يملك :

وَمَالِي مَالٌ غَيْرُ دِرْعٍ وَمِغْفَرٍ ' وَأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ صَقِيلُ (٥)

وتحدثوا عن تمزق نعاليهم واثوابهم وتلفها (٦) . فهذا تأبط شرا يتحدث عن تمزق نعله وهو يتسلق الجبال .. ليصل مكنه الذي يزاول منها صعلكته ، وهذه الصخور التي يمشي عليها في حاجة إلى نعل متينة تقي قدميه وأصابعهما من تمزيق الصخور ، ولكنه لا يملك إلا نعلا بالغة الرثاثة والتمزق ، يقول :

لَا شَيْءَ فِي رِجْلِي إِلَّا نَعَامَتُهَا ' مِنْهَا هَزِيمٌ وَمِنْهَا قَائِمٌ بَاقٍ

(١) ديوان تأبط شرا ، ص ١٨٢ . والأبيات منسوبة لامرئ القيس ، ديوانه ، ص ٥٠-٥١ ، وفي معلقته "شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٢٤-٢٥ . وأنا مع يوسف خليف في أن هذه الأبيات لتأبط شرا وليست لامرئ القيس لما كان عليه امرؤ القيس من ارسنقراطية في معلقته ، فهو شاب يعبر عن اللهو والنساء والصيد ، فليس من المعقول أن يتحدث في أثناء هذا عن حمله قربة الماء وفقره وتشرده في الوديان المقفرة مع الذئاب الجائعة ، وهزاله ... ينظر الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص ١٦٧ .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ٥٥٩/٢ . زود : ذعر . الحباب : الحب .

(٣) ديوانه ، ص ٤٠ .

(٤) أمالي القالي ، ١٢٣/٢ .

(٥) العمدة لابن رشيق ، ٣٦/٢ . والبيت فيه إقواء والأصل بالضم . وقال ابن رشيق يجوز ضم "صقيل" على القطع والتقدير "هو صقيل" .

(٦) ينظر مثلاً ديوان الشنفرى ، ص ٣٧، ٣٥ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٣٩ . وديوان الهذليين ، ١٥٢، ١٤٩، ١٣١/١ .

الشنفرى على وجهه من قبل ابنة مولاة تعبر عن ذل الفقراء والعبيد ، وقال الشنفرى في ذلك شعرا (١) .

ومن ذل الفقراء مقامهم خلف البيوت كما يصرح بذلك عروة الصعاليك ، يقول في بني لبنى "وهم فقراء" إذا جاؤوا قوما نزلوا ناحية كما ينزل الفقير في كنف من شجر ؛ لأنه ليست لهم بيوت يأوون إليها ، يعضون أبصارهم حياء من الناس :

رَأَيْتُ بَنِي لُبْنَى عَلَيْهِمْ غَضَاضَةٌ بَيُّوتُهُمْ وَسَطَ الْحُلُولِ التَّكْنُفُ (٢)

وصوروا ضيق أقارب الفقراء بهم ونفورهم وبغضهم واحتقارهم للفقراء (٣) .

هـ- فلسفة الصعاليك في الفقر والغنى وانطلاقهم من هذه الفلسفة: انطلق الصعاليك في أعمالهم وغاراتهم وسلبهم ونهبهم من أجل المال والغنى ، ومحركهم الأول أو (الدينامو) لهم كان إحساسهم بالفقر والعجز ، وشعورهم بذل وهوان الفقراء في مجتمعاتهم .

فقد تفهم الصعاليك مشكلة الفقر التي يعانون منها ، وقارنوا بين حالهم وحال الأغنياء ، فوجدوا الفرق شاسعا بين الإثنين ، من الناحية المعيشية والاجتماعية ، فالأغنياء في عيشة رغيدة ، وهم فقراء لا يجدون ما يسد الرمق . والأغنياء لهم كلمتهم وشأنهم ومكانتهم بين الناس ، ولكن الفقراء منبوذون ، لا مكانة اجتماعية لهم ولا سلطان . فلا يسمع لهم ، ولا يسمح لهم حتى بالتكلم وسط الناس ، فهم محتقرون أذلاء .

يصرح بذلك عروة بن الورد قائلا :

دَعِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي	رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمُ الْفَقِيرُ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ	وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ
وَيُقْصِيهِ النَّدَى وَتَزْدْرِيه	حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ
وَيُلْقَى دُو الْغِنَى وَلَهُ جَلَالُ	يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلَ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ	وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبٌّ غَفُورُ (٤)

(١) ديوانه ، ص ٤٠-٤١ .

(٢) ديوانه ، ص ١٠٨ . وينظر في نفس المعنى ديوان عروة ، ص ٦٨ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان عروة ، ص ٨٩، ١١٤ . وديوان الهذليين ، ١٢٩/٢ . غيرته امرأته بالفقر .

(٤) ديوانه ، ص ٩١ . والأبيات في الحماسة الشجرية عدا البيت الثاني ، مع اختلاف بسيط في الأبيات ، ٤٧٨/١ .

ويقول مالك بن حريم شعرا في مثل هذه المعاني التي صرح بها عروة ، وكيف أن المال يرفع الخسة ، ويجعل الذميمة جميلا ، وأن الفقر مذلة بين الناس (١) .

ويقول عروة أيضا في هوان وذل الفقير ونكوصه إذا لم يطلب لنفسه معاشا :

إذا المرء لم يطلبْ معاشاً لنفسه شكا الفقر أو لأم الصديق فأكثر
وصار على الأدنى كلاً وأوشكت صلات ذوي القربى له أن تنكرا (٢)

فالموت خير للفتى من حياته فقيرا :

إذا المرء لم يبعث سوا ما ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فلموت خير للفتى من حياته فقيرا ومن مولى تدب عقاربه (٣)

فنتيجة طبيعية لمن أحس بذل الفقر ولمس هذا الذل ، أن يصاب بعقدة الفقر التي تدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيا ذا مال كثير يتفضل به على الناس .

فأخذوا يطوفون البلاد (٤) ويقومون بالغارة تلو الغارة على الأغنياء البخلاء (٥) ، فهم يغيرون على أصحاب المواشي والمزارع وأصحاب النوق والإبل . فعروة بن الورد كان يغير يوما على أهل نجد ويوما تجده بأرض ذات شت وعرعر :

فَيَوْمًا عَلَى نَجْدٍ وَغَارَاتِ أَهْلِهَا وَيَوْمًا بِأَرْضِ ذَاتِ شَتٍّ وَعَرَّعِ (٦)

(١) ينظر شعره ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣١/٢-٣٢ . وينظر في مثل هذه المعاني ديوان عروة ، ص ٤٣ ، في فضل الغنى والمال وذل الفقر وقلة المال .

(٢) ديوانه ، ص ٨٩ . والبيتان في "بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس" للإمام أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ، ١٩٩/١ .

(٣) ديوان عروة ، ص ٢٩ .

(٤) ينظر ذلك مثلاً في : ديوان عروة ، ص ٢٩، ٣٩، ٤٣، ٦٧، ٩٩، ١٠٧، ١٠٨، ١٣١ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٧٧ . وحماسة أبي تمام ، ٣٠/٢ .

(٥) ينظر مثلاً : ديوان عروة ، ص ٣٩ . وديوان الشنفرى ، ص ٣٢ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٦٨، ١٩٠ .

(٦) ديوان عروة ، ص ٧٤ ، والشت والعرعر : نباتات في الصحراء . وينظر في غاراتهم على أهل المزارع والخصب ديوان تأبط شرا ، ص ١١٧، ١٧٧ .

ويقول عروة أيضا :

لعلَّ انْطِلَاقِي فِي الْبِلَادِ وَبُعَيْتِي وَشَدِّي حَيَازِيمَ الْمُطَيَّةِ بِالرَّحْلِ
سَيِّدَ فَعْنِي يَوْمًا إِلَى رَبِّ هَجْمَةٍ يُدَافِعُ عَنْهَا بِالْعُقُوقِ وَبِالْبُخْلِ (١)

ويتكبدون في ذلك المخاطر والصعاب التي قد تؤدي بحياتهم ، كل ذلك من أجل الغنى والمال ، لذلك نراهم قد استهانوا بالموت نفسه (٢) .

فعروة بن الورد يخاطب امرأته أم حسان ويقول لها إنه مصمم على الغزو ليكفيها مذلة السؤال ، فإن قتل فموته أرحم لها من عيش الذل . وإن غنم أغناها وأولادها عن القبوع خلف البيوت انتظارا لحسنات المحسنين ، يقول :

ذُرَيْبِي أَطَوَّفَ فِي الْبِلَادِ لِعَلَّنِي أُخْلِكَ أَوْ أُغْنِيكَ عَنْ سُوءِ مُحَضَّرِي
فَإِنْ فَازَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ لَمْ أَكُنْ جَزُوعًا وَهَلْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ
وَإِنْ فَازَ سَهْمِي كَفَّكُمْ عَنْ مَقَاعِدِ لَكُمْ خَلْفَ أَدْبَارِ الْبُيُوتِ وَمُنْظَرِ (٣)

فمن كان فقيرا محتاجا ذا عيال عليه أن يسعى في مناكب الأرض كي ينال حاجته . يقول عروة :

وَمَنْ يَكُ مِنْبِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ (٤)
ويقول أيضا :

وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا
فَسِرَّ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسَّ الْغَنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتْ فَتَعْزُرَا (٥)

فهذا الطواف وهذه الغارات تحتاج إلى قوة بدنية وإرادة نفسية عالية . لذلك فهم - الصعاليك - يقدسون القوة والسرعة ويعتمدون عليها في إنجاز أعمالهم . فنرى شعراءهم

(١) ديوانه ، ص ١١٥-١١٦ . والهجمة الإبل من خمسين إلى ستين .

(٢) ينظر مثلا ديوان عروة ، ص ٤٢، ٧٣، ١٠٧، ١٣١ .

(٣) ديوانه ، ص ٦٧ . أُخْلِكَ أي أقتل عنك فأفارقك . والتخليّة الطلاق . "عن سوء محضري" عن أن تحضري محضرا سينا كالمسألة .

(٤) ديوانه ، ص ٤١ . ونهاية الإرب للنويري ، ٦٨/٣ .

(٥) ديوانه ، ص ٨٩ .

يمدحون الصعلوك القوي النشيط العامل الذي لا يؤخره عن طلبه لا ظمأ ولا جوع (١).
ويذمون الصعلوك الذليل الخامل الذي يقعد كالنساء يعمل كما تعمل (٢).

والموت لدى الصعلاليك خير من عيشة الفتى فقيراً (٣) يعيش عيشة العبيد والإماء ، ويقوم بأعمالهم الحقيرة كالرعي ، والتحطيب ، والطبخ ، وغيرها من الأعمال المهينة التي يأنف السادة من أفراد القبيلة أنقياء الدم من القيام بها (٤).

فصبر الصعلاليك على الجوع والحرمان حتى ملهم الجوع نفسه (٥). كما يخبرنا بذلك أبو خراش الهذلي في قوله :

وإني لأثوي الجوعَ حتى يملني	فيذهب لم يَدْنَسْ ثيابي ولا جرّمي
وأغتبِقُ الماءَ القَرَّاحَ فأنتهي	إذا الزادُ أَمْسَى لِلْمَزَلَجِ ذا طَعْمٍ
أَرَدْتُ شَجَاعَ البطنِ قَدْ تَعَلَّمْنِيهِ	وأوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكَ بِالطَّعْمِ
مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذَلَّةٍ	وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمٍ (٦)

فإذا كان هؤلاء الفقراء يقاسون ويتحملون وطأة الجوع الشديد على أجسامهم النحيلة ، فغيرهم من الأغنياء المترفين ينعمون في لذة العيش ، وطيب المأكولات . لذلك كرهوا الأغنياء البخلاء ، ورأي شعراء الصعلاليك الفقراء واضح في البخل والبخلاء واللؤماء . يصرح عروة بن الورد بذلك قائلاً :

وقَدْ عَلِمْتُ سُلَيْمَى أَنْ رَأَيْتُ	ورأيَ الْبُخْلِ مُخْتَلَفَ شَتِيتٍ
وَأَنِّي لَا يُرِينِي الْبُخْلَ رَأْيٌ	سواءَ إِنْ عَطِشْتُ أَوْ رُوَيْتُ (٧)

(١) ينظر : ديوان عروة ، ص ٧١. وديوان حاتم الطائي ، ص ١١٢-١١٣. وديوان الشنفرى ، ص ٣٢. وديوان تأبط شرا ، ص ١٣٦، ١٤٠.

(٢) ينظر هذه الصورة في ديوان حاتم الطائي ، ص ١١٢. وديوان عروة ، ص ٧٢-٧٣. وديوان الشنفرى ، ص ٣٤.

(٣) ينظر ديوان عروة ، ص ١١٤. وديوان الهذليين ، ١٢٨/٢.

(٤) ينظر مثلاً ديوان الشنفرى ، ص ٣٤.

(٥) ينظر لامية الشنفرى ، ٣-٥. وديوانه ، ص ٣٣. وديوان عروة ، ص ٦٩، ٥٢. وديوان تأبط شرا ، ص ١١٥. وديوان الهذليين ، ١٢٨/٢، ١٥٨.

(٦) ديوان الهذليين ، ١٢٧/٢-١٢٨. والأغاني (بيروت) ، ٢٣٨/٢١.

(٧) ديوان عروة ، ص ٣٥.

وراح هؤلاء الصعاليك - ليثبتوا رأيهم في البخل وكرههم للبخلاء - يأخذون بصفات السادة ، يعطون ويذبحون للضيفان ويكرمون الفقراء والأرامل والأيتام والضعفاء ، حتى بالغوا في كرمهم إلى أن أفقرهم بعد غنى . تحدث عن ذلك عروة بن الورد ، وأخبرنا في شعره عن كرمه وبذله ماله للفقراء والمحتاجين الذين يشكون له فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم في قوله :

إِذَا قُلْتُ قَدْ جَاءَ الْغِنَى حَالُ دُونِهِ أَبُو صَبِيَّةٍ يَشْكُو الْمَفْاقِرُ أَعْجَفُ
لَهُ خَلَّةٌ لَا يَدْخُلُ الْحَقُّ دُونَهَا كَرِيمٌ أَصَابَتْهُ خُطُوبٌ تَجَرَّفُ (١)
فكرم عروة هذا وبذله ماله للفقراء والمحتاجين سبب له الفقر .
ويصور تأبط شرا نفسه كريما فيقول من قافيته :

بَلْ مَنْ لِعَذَالَةٍ خَذَالَةٍ أَشْبَ حَرَقَ بِاللَّوْمِ جِلْدِي أَيَّ تَحْرَاقِ
يَقُولُ أَهْلَكْتَ مَا لَا لَوْ قَنِعْتَ بِهِ مِنْ ثُوبٍ صِدْقٍ وَمِنْ بَزٍّ وَأَعْلَاقِ
عَازِلْتِي إِنْ بَعْضَ اللَّوْمِ مُعَفَّةٌ وَهَلْ مَتَاعٌ وَإِنْ أَبْقَيْتُهُ بَاقِ (٢)

وإن كثيرا من أشعارهم نجد فيها صورا لهذا الكرم (٣) الذي يعلنونه - وإن أفقرهم - بأن المرء غير مخلد (٤) .

وهذا كله من عزة أنفسهم وتقديسهم للحرية كما يقول عروة :
وَإِذَا افْتَقَرْتُ فَلَنْ أَرَى مَتَخَشَعًا لِأَخِي غَنَى مَعْرُوفُهُ مَكْدُودُ (٥)

(١) السابق ، ص ١٠٧-١٠٨ . المفاقر جمع مفقرة . له خلة : أي له حاجة . يقول : عنده من الفقر وسوء الحال مالا يقدر أن يدخل عليه في الصلة عندنا من كان له حق حتى أحمل على نفسي ولا أنقص هذا من حقه لخلته وفقره تجرف ماله .

(٢) المفضليات ، ص ٣٠ . العذالة : كثير العذل . الخذالة : الذي يكثر خذلان صاحبه . والتاء فيهما للمبالغة . الأشب : المخطط المعترض يريد من يعينني على هذه العذالة . ثوب صدق مقابل ثوب سوء ، (الجيد) . البز : الثياب أو السلاح . الأعلاق : كرائم الأموال . يريد أنه يأمره بالبخل وإمساك يده . معففة : عنف .

(٣) ينظر ديوان عروة ، ص ٣٠، ٤٢، ٤٤، ٤٨، ٩٠، ١٠١، ١٢٠، ١٢١ . وديوان الهذليين ، ص ٥٤/٢ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٤١، ١٧٥ .

(٤) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص ١٤١ . وديوان عروة ، ص ٦٦ . وديوان الهذليين ، ص ١١١/٢ .

(٥) ديوانه ، ص ٤٨ .

وتمثل كثير من أشعارهم عزة النفس ، واستهانتهم بالموت من أجل الحرية ، بعدا عن ذل الفقر وهوان الفقراء . "وللموت خير من حياة على رغم " (١) ، "فكل منايا النفس خير من الهزل" (٢) ، "وأستف ترب الأرض" (٣) خير من الذل والعبودية .

-٢-

الغزو والحروب والغارات

كانت القبائل العربية في العصر الجاهلي تشوب حياتها الحروب والأيام والغارات "وكانما أصبحت الحروب سنة من سنن الحياة الجاهلية وشريعة مقدسة ، يحققون بها الحياة في هذا المجتمع الذي تسيطر عليه القوة وتتحكم فيه ... وفي ظل هذه الحياة قامت العلاقات بين القبائل على أساس مجموعة من القوانين أهمها : قانون العصبية وقانون الثأر" (٤) .

ففضت أحوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو ، وهو في الواقع نوع من اللصوصية إلى مرتبة يقرها النظام القبلي ، فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية ، واستولى حب القتال على نفوس أهل البوادي ، حتى أصبح حالة عقلية مزمنة ، وأصبح شن الغارات نموذجاً للأعمال التي يليق بذوي الرجولة الحق أن ينصرفوا إليها (٥) .

وأيام العرب هي مناوشات قبلية تنشأ في الغالب بين القبائل بسبب النزاع على الماشية أو المراعي أو المياه ، وكانت تتوفر فيها فرص للغزو والنهب وإظهار البطولة الفردية والفروسية . فكانت معظم حوادث الإقتال والحروب بعثتها عوامل اقتصادية بحتة (٦) .

وكانت بعض الجماعات والقبائل في الجاهلية يعتمدون الغزو والإغارة ، لكونه مصدراً من مصادر حياتها ، وجعلت أرزاقها في رماحها ، ومعاشها فيما بأيدي غيرها ، ويمثل تلك الجماعات القبائل التي استشعرت المنفعة في نفسها والعزة بأبنائها ، واندفعت وراء القبائل

(١) ديوان الهذليين ، ١٢٨/٢ .

(٢) ديوان عروة ، ص ١١٤ .

(٣) لامية الشفري ، للزمخشري ، ص ١٢٠ .

(٤) الشعر وأيام العرب .. ، عفيف عبد الرحمن ، ص ٧٣ .

(٥) ينظر تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، ٣١/١ .

(٦) السابق ، ١١٩/١ .

الضعيفة ، تغير عليها ، وتسلب أموالها وتسبي نساءها وتأسر رجالها ، وأثناء ذلك تصاصل السيوف ويقع السلاح ، وتصل الخيل حتى تستمر الحروب شهورا وسنوات ، وتكاد تأتي على الزرع والضرع ، وتعطل مسيرة قافلة الحياة . وفي أيام العرب خير شاهد على ذلك ، فإن الأيام التي كان سببها الإغارة تكاد تستغرق أيامهم جميعا ، حتى ليصعب الفصل بين الأيام التي كان سببها حب الغزو والأيام التي كان سببها طلب الثأر (١) .

ونجد في الشعر الجاهلي التفاخر والتمدح بالشجاعة والحروب والأيام (٢) وبكثرة الغزو والإغارة (٣) . ونجد من كانوا في الفقر والغنى يحاربون ويقتلون ويغيرون (٤) .

وقد تكون الحروب والغارات بين القبائل العربية ، وبين الحي الواحد (٥) وقد تكون ضد عدو أجنبي كالفرس (٦) على سبيل المثال .

دوافع الغزو والحروب والغارات في الشعر الجاهلي

قد يكون الدافع من أجل الغزو والقتال فحسب (٧) ، وللتفاخر والتمدح (٨) وقد يكون

(١) ينظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، حسين عطوان ، ص ٤٦-٤٧ . وينظر "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" ، أحمد الحوفي ، ص ٢٣٠ .

(٢) ينظر مثلا : ديوان عنتر ، ص ١٢٨ . وديوان سلامة بن جندل ، ص ٢٥١ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص ١٠٩، ٩٦ . وديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٣٢ . وديوان بشر ، ص ١٧٥ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٣، ٦٥ . وكانت الشجاعة من أسباب السيادة عند العرب ، ينظر ذلك في ديوان عامر بن الطفيل ، ص ٢٨ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان لقيط بن يعمر ، ص ٣٧-٣٨ . وديوان النابغة الذبياني ، ص ١٤٦ . وشعر الصعاليك مليء بأحاديث الغزو والغارات ، ينظر مثلا ديوان تأبط شرا ، ص ١٣٧، ١٥٤، ٢٠٦ .

(٤) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص ٦٢ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان ذي الإصبع العدوان ، ص ٤٦ .

(٦) ينظر مثلا : ديوان لقيط بن يعمر القصيدة الأولى . وديوان عنتر ، ص ١٢٠ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ص ٦٠ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان بشر ، ص ٢٨٠، ١٥ - يفتخر بقتل خصمه الذي تأوي إليه الأرامل في الشتاء . ديوان الأسود بن يعفر ، ص ٥٤ . وديوان عنتر ، ص ١٦١ . والأصمعيات ، ص ٢٩ .

للنار (١) أو للنار والغنم معا (٢) . فالنار وحب الانتقام بدافع الغضب عند الجاهليين جعل القتال شيئا ليس غريبا في بلادهم ، وظلوا دائما في حروب ومنازعات لا تنتهي . يشير إلى ذلك كُريد ابن الصّمة من قصيدة يرثي فيها أخاه عبد الله :

يَغَارُ عَلَيْنَا وَاتْرَيْنَ فَنُشْتَقِي بَنَا إِنْ أَصَبْنَا أَوْ نُغَيِّرُ عَلَى وَتَرٍ
قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يُنْقَضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ (٣)

أسباب بيئية واقتصادية

وقد يكون القتال والتناحر على المراعي (٤) ومناهل المياه (٥) . "وقد نشأت معظم أسباب القتال بسبب التزاحم على الماء والمرعى" (٦) . ومن أيام العرب ما كان سببها الاشتجار على المرعى والحدود والآبار والعيون لاعتماد الكثيرين على التنقل والترحال طلبا للكلأ والماء وللرعي إذا ما أجذبت الأرض وقل المطر (٧) . والأيام التي حدثت بين بطون القبيلة الواحدة كان الدافع الاقتصادي والصراع على موارد المياه ومنابت الكلأ هو الأساس الذي قامت عليه هذه الأيام (٨) .

فالحروب والغارات تستهدف - أحيانا - الحصول على الأماكن الخصبة للحصول على الكلأ والمياه . لذلك نجد التفاخر بصد الأعداء الذين جاءوا من كل جانب للاستيلاء على المراعي . يقول أوس بن حجر :

تَكَنَّفْنَا الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِيَنْتَرِعُوا عَرَاقَاتَنَا ثُمَّ يَرْتَعُوا

-
- (١) ينظر مثلا : ديوان عامر بن الطفيل ، ص ٢٧ .
 - (٢) ينظر مثلا : ديوان تأبط شرا ، ص ١٩١ .
 - (٣) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٤١/١ .
 - (٤) ينظر مثلا : الحماسة البصرية ، ٢٥٨/١ . وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، ص ٣٦ .
 - (٥) ينظر مثلا : ديوان عنتره ، ص ١٤٣ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢٢٥/١ ، ٢٩٧ .
 - (٦) تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، ٣٢/١ .
 - (٧) ينظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، حسين عطوان ، ص ٥٠ .
 - (٨) ينظر : "الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي" ، عفيف عبد الرحمن ، ص ٨٥ .

فَمَا جَبْنُوا أَنَّا نَسُدُّ عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ لَقُوا نَاراً تَحْسُّ وَتَسْفَعُ (١)

وتحصل الحروب والغارات ويكون الغزو عند المحل والجذب وقلة المطر . يقول عامر بن

الطفيل العامري :

لِلَّهِ غَارُتَا وَالْمَحَلُّ قَدْ شَجِبَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ فَصَارَ الْأَفْقُ عُرْيَانَا
حَتَّى صَبَبْنَا عَلَى هَمْدَانَ صَيِّقَةً سَوَّرَ الْكِلَابُ وَمَا كَانُوا لَنَا شَانَا (٢)

ويقول أيضا مخاطبا "أسماء" مفتخرا بنفسه :

يَا أَسْمُ أَخْتِ بَنِي قَزَارَةَ إِنِّي غَارَ وَإِنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلِّدٍ
وَأَنَا ابْنُ حَرْبٍ لَا أَزَالُ أَشْبَهَا سَمَرًا وَأُوقِدُهَا إِذَا لَمْ تُوقَدْ
فَإِذَا تَعَذَّرْتَ الْبِلَادُ فَأَمَحَلَّتْ فَمَجَازُهَا تَيْمَاءٌ أَوْ بِالْأَثْمَدِ (٣)

ويقول بشر بن أبي خازم الأسدي مفتخرا بنفسه وقومه بالقيام بالحروب والغارات والغزوات على الخيول القوية ، وأنهم يستيحيون أرض نجد ويغلبون عليها أهلها حين يقل المطر وتمحل الأرض ويعم الناس الجذب ، ومن ذلك يقول :

كَفَيْنَا مَنْ تَغَيَّبَ وَاسْتَبَحَّنَا سَنَامُ الْأَرْضِ إِذْ قَحِطَ الْقَطَارُ (٤)

ويقول معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب مفتخرا بأنه إذا نزل المطر بأرض قوم فأخصبت

سار وقومه إليها ورعوا نباتها غصبا :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا (٥)

(١) ديوانه ، ص ٥٧ ، العرقات : بفتح العين ، هي أصل كل شيء ، وبكسرهما جمع عرقة بكسر العين وهي بمعناها . والبيت الثاني في لسان العرب مادة "سدد" . أي "لم يجبنوا من الإنصاف في القتال ولكن حشرنا عليهم فلقونا ونحن كالنار التي لا تبقى شيئا" .

(٢) ديوانه ، ص ١٣٧ . شجيت : امتلأت أو حزنت . الأفق الجمع الآفاق : النواحي من الأرض ونواحي السماء . عريانا : من الغيم والنبات . همدان : قبيلة يمنية . صيقة : غارة ذات صيق : وهو الغبار . سَوَّرَ : البقية . "ما كانوا لنا شانا" : أي لم نهتم بهم .

(٣) ديوانه ، ص ٥٦ . والأصمعيات ، ص ٢٥٢ . والمفضليات ، ص ٣٦٤ . أشبها : أذكىها وأوقدها . سمرا : ليلا . تعذرت : تغيرت . أمحلت : أجذبت . مجازها : مشربها . تيماء والأثمد : موضعان .

(٤) ديوانه ، ص ٧٣ . والمفضليات ، ص ٣٤٣ . سنام الأرض : أرفع بلاد نجد . قحط القطار : أي قل المطر وأجذب الناس .

(٥) الحماسة البصرية ، ٢٥٨/١ .

وأما الجوع - وهو أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان - كان دافعا للإغارة من أجل الحصول على الطعام ، والجوع أثر من آثار الفقر ، لذلك فإن كثيرا من الصراع الداخلي بين القبائل الجاهلية إنما يرجع - من بعض جوانبه - إلى الفقر والجوع" (١) .

وللجوع والجوع حديث لنا في موضع آخر من هذا البحث في فصل نتحدث فيه عن الجوع كأثر من آثار الفقر ، ودافع قوي للغارات والغزو .

ولكن تجدر الإشارة إلى قول الأعشى الكبير ميمون بن قيس في مدح قيس بن معد يكرب الكندي ، بأنه صاحب همة في الحرب . فهو ليس كالذي يحارب ليشبع بطنه من جوع ، فإذا أتم ترابع وسكن وإذا ما فاتته أكلة تداركها بأخرى ، ولكن الممدوح له في كل عام غزوة تقني دوابر الخيل وتحت حوافرها حت المبرد الخشن . يقول الأعشى :

وَلَمْ تَسْعَ لِلْحَرْبِ سَعْيَ امْرِئٍ	إِذَا بَطْنُهُ رَاجَعَتْهُ سَكَنٌ
عَلَيْهَا وَإِنْ فَاتَتْهُ أَكْلَةٌ	تَلَفَى لِأُخْرَى عَظِيمِ الْعُكْنِ
تَرَى هَمَّهُ نَظْرًا خَصْرَهُ	وَهَمَّكَ فِي الْغَزْوِ لَا فِي السَّمَنِ
وَفِي كُلِّ عَامٍ لَهُ غَزْوَةٌ	تَحْتَ الدَّوَابِرِ حَتَّ السَّفَنِ (٢)

فقول الأعشى يدل على وجود فئة تحارب إذا ما أصابها الجوع .

والحقيقة أن الفقر كان دافعا من دوافع الحروب والاقتتال والغزو والإغارة في العصر الجاهلي . فالشخص الفرد يقاتل إذا افتقر ، وكذلك القبائل إذا أجذبت وافتقرت تغزو وتغير على قبائل أخرى ذات خصب أو مال .

فالجزيرة العربية قليلة الخيرات ، شحيحة الماء ، تضيق مراعيها بإبلها وأنعامها ... وقد أشاعت هذه العوامل الفقر بين سكانها ، ذلك الفقر الذي كان الحافز الأساسي للغزو والغارات ... ولعله هو الذي جعل حياة الفرد هينة عليه أحيانا . فالفقر وقلة الخير كانا سببين من أسباب العداء الطويل بين القبائل العربية في العصر الجاهلي ، ولغارات متبادلة ليس لها انقطاع . والتسابق على منابت الكلأ والرغبة في الاستيلاء على جزء كبير منه خليقان أن يؤديا إلى تصادم واقتتال ، فإذا عرفنا قلة هذا الكلأ أدركنا عنف القتال (٣) .

(١) نقلا عن "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" ، يوسف خليف ، ص ٢٩-٣٠ . وينظر في غارة كان سببها الجوع في الأغاني (بيروت) ، ٢٤٣/٢١ .

(٢) ديوانه ، ص ٧٣ . والعكن : طيات البطن من الشبع والسمن . الدوابر : مآخير الحوافر . السفن : المبرد . تحتها : تقشرها وتبردها .

(٣) ينظر الشعر الجاهلي وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن ، ص ٨٣ .

وكان معظم من يشنون الغارات ، ويقومون بالحروب والغزوات يحرصون على استجلاب المال والغنائم وكذلك الأسرى والسبايا ويحرصون على الاغتناء والثراء ابتعادا عن شرور الفقر المادية والاجتماعية* .

ونجد الشعراء الجاهليين قد تمدحوا باستجلاب المال إذا قل أو ذهب ، وذلك عن طريق الغزو . يقول الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وَأَبْيَضَ كَالسَّيْفِ يُعْطَى الْجَزِيلُ
يَجُودُ وَيَغْزُو إِذَا مَا عَدِمَ (١)

وإذا كان ممدوح الأعشى شريفا جوادا يقدر على استجلاب المال من الغزو ، فإن ثمة فقيرا أشعث ذا عيال فقراء ، همهم ما ينفقون في صيفهم وشتائهم ، أشاروا على أبيهم أن ينصرف ويغزو على رجليه "وسط الأراجل" حتى يكسب لهم نفقتهم من هذا الغزو ؛ وإنما طلبوا أن يكون غزوه وسط الأراجل لأنه ليس له ما يركبه لفقره . فذهب هذا الغازي وقد احتضن نعليه ولبس نصف فروة خروف واستقر مكان الغزو راجيا الكسب لأولاده من غزو قوم أبي ذؤيب الهذلي الشاعر . فماذا كانت النتيجة ؟ ... لقد قتله أبو ذؤيب فأراحه من غيظه الذي يجده من الفقر وكثرة العيال بطعنة أخذ الدم يرش على قدميه . يقول من ذلك أبو ذؤيب الهذلي :

وَأَشْعَثُ بُوْشَيْ شَقِينَا أَحَا حَهُ
أَهَمَّ بَنِيهِ صَيْفُهُمْ وَشِتَاؤُهُمْ
غَدَاتِي ذِي جَرْدَةٍ مَتَمَاحِلِ
فَقَالُوا : تَعَدَّ وَاغْزُ وَسَطَ الْأَرَا جِلِ
وَقَالَ : أَلَيْسَ النَّاسُ دُونَ حَفَائِلِ (٢)

ونجد من لا يقصر عن الغزو ما دام ماله ينقص ويموت ولو كانت نهايته في هذا الغزو ، فإنه من ثقل إبله ويقصر عن الغزو يفتقر ويكون غبوقه ماء خالصا ، وسيكف عن الغزو إذا اتسع المراح وصار صاحب إبل كثيرة ، لذلك فهو جاد في الغزو ... يريد الغنى والثرا ، لأن الأغنياء ينشئ عليهم بالرغم من قبح وجوههم ، فالمال يزينهم ويستر على الناس عيوبهم ، ترى الفقراء

(١) ديوانه ، ص ٨٥ . والمعنى : ربما حل الأعشى برجل شريف كالسيف الصقيل وجود على سعة ، فإذا أعوزه المال استجلبه من وجهه بالغزو .

(٢) ديوان الهذليين ، ٨٣/١ . أحاحه : غيظه . ذي جردة أراد شملة صفراء خلقة . المتماحل : الطويل ما بين الطرفين . حفائل : موضع . تأبط شق فريره : حمل معه نصف خروفه أو لبس نصف فروه . والشاعر يريد السخرية بهذا الغازي في البيت الثالث .

* ولقد كان الصعاليك يحرصون كل الحرص على استجلاب المال من الغارات والغزوات ، ينظر مثلا ديوان عروة ، ص ٤٣ .

يعظمون ويسجدون للأغنياء وإن لم ينالوا منهم شربة لبن مخلوط بالماء . (١) .

ومن الجاهليين من كان يغزو كل عام ، يتحمل المشاق والصعاب ، لأن في الغزو المال والمجد . يقول الأعشى في مدح هوزة بن علي :

وَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمٌ غَزْوَةً
مَوْرَثَةً مَالاً وَفِي الْحَمْدِ رِفْعَةً
تَشُدُّ لَأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَ
لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَ (٢)

ففي القتال والحروب استجلاب المال ، فالكل يذهب إلى هذه الحروب من كلا الفريقين يبحث عن مال يقتنيه أو مغنم يصيبه (٣) ومن أجل الإبل (٤) ومن أجل الحصول على المال والإبل معا (٥) ومن أجل الغنائم (٦) يقول قتادة بن مسلمة مختتما قصيدته الطويلة في الحروب والقتال ، معاهدا نفسه على الغزو :

فَلَنْ بَقِيَتْ لَأَرْحَلَنَّ بَغْزَوَةً
تَحْوِي الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ (٧)

والأعشى يمدح قيس بن معد يكرب الكندي بأنه رفيق حاذق لشئون الحرب مغامر قد ألف القتال وأحبه ، لا تنال يداه غنيمة حتى يشد الركاب لغنيمة أخرى يغتصبها من صاحب نعمة مترف ليصل بها رحمه وذوي قرياه ، يقول :

تَقِفْ إِذَا نَالَتْ يَدَاهُ غَنِيمَةً
شَدَّ الرِّكَابَ لِمِثْلِهَا لِيُنَالَهَا (٨)

(١) ينظر شعر لمالك بن الحارث أخو بني كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل في ديوان الهذليين ، ٨١/٣-٨٢ .

(٢) ديوانه ، ص ١٤١ . جشم الشيء وتجشمه تكلفه وتحمل متاعبه . العزيم : العزم والجهد والعدو الشديد . العزاء : الصبر . القراء : الخيض أو هو ما بين الحيضتين : يعني عندما تعود بالمال والمجد من غزوك يعوضك عما عانيت من البعد عن نسائك اللاتي يتربحن عودتك .

(٣) ينظر شعر للأعشى في ديوانه ، ص ٣٥٩ . وينظر ص ٨٥ : دخول الحروب والغزو من أجل المال .

(٤) ينظر مثلاً : ديوان سلمة بن جندل ، ص ٢٠٠-٢٠١ يخاطب ابنته التي تخاف عليه أن يذهب وحده للغزو ، فيجيبها أنه يريد هجمة من الإبل أو يتلف نفسه ، ديوانه ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٥) ينظر مثلاً : ديوان الهذليين ، ٨٢/٣-٨٣ . وديوان تأبط شرا ، ص ١٥٧، ١٨٦ . وديوان عنتره ، ص ٧٩ .

(٦) ينظر مثلاً : ديوان بشر ، ص ١٨٣ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ص ٣٠١، ٣٢٢ .

(٧) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٢٢/١ .

(٨) ديوانه ، ص ٨١ .

ويقاتلون أيضا لجلب الأسرى والسبايا لأن فيهم المنفعة المادية ، لأن الأسير يفدى بمال (١) ، خصوصا إذا كان هذا الأسير من الأغنياء . "فكان الفارس منهم يحرص على اختيار الأسير الغني ليحقق لنفسه المكسب الوفير ، ولا يقتلون الأسير إلا إذا كان مطلوبا بثأر ، ليأخذوا فديته" (٢) يقول عوف بن عطية بن الخرع التيمي ، من تيم الرباب وهو من فرسان الجاهلية يخاطب قوما غزاهم في فتيان من عشيرته ويصف ما أصاب نساء هؤلاء القوم من ذهول واضطراب لما فجعن ورزنن ، ثم يصور حال الرجال بين سابع في الرمح ... ، وأسير وممنون عليه بالفداء . يقول :

فَهُمْ ثَلَاثَةٌ أَفْرَقَاءَ فَسَابِحٌ فِي الرُّمَحِ يَغْتَرُّ فِي النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ
وَمُكَبَّلٌ يَفْدَى بِوَأْفِرٍ مَالِهِ إِنْ كَانَ صَاحِبُ هَجْمَةٍ أَوْ أَيْصَرٍ
أَوْ بَيْنَ مَمْنُونٍ عَلَيْهِ وَقَوْمِهِ إِنْ كَانَ شَاكِرُهَا وَإِنْ لَمْ يَشْكُرْ (٣)

وعلى كل الأحوال كان معظم الجاهليين يدخلون في حروب ونزاعات ويقومون بالغزوات والغارات ، فالفقرير يقاتل طلبا للغنيمة والغني يقاتل دفاعا عن ماله وعزه . يشير طرفة بن العبد إلى ذلك - مخاطبا بني تغلب - وكأنه يقول : يقاتلكم غنينا دفاعا عن ماله ، وفقيرنا طلبا للغنيمة ، يقول :

تَذْكُرُونَ إِذْ نَقَاتِكُمْ لَا يُضَرُّ مُغْدِمًا عَدْمَهُ
أَنْتُمْ نَحْلٌ نَطِيفٌ بِهِ فَإِذَا مَا جَزَّ نَصْطَرْمُهُ (٤)

وكثيرا ما ذكر الشعراء الجاهليون وقت الصباح خير وقت للغزو والغارات والحروب (٥)

(١) ينظر مثلا : ديوان سلامة ، ص ١٧٦ . والمفضليات ، ص ٣٢٨ . وديوان النابغة الذبياني ، ص ١٦٤ .

(٢) الشعر وأيام العرب ... ، عفيف عبد الرحمن ، ص ٨٥ .

(٣) المفضليات ، ص ٣٢٨ . من مقطوعة شعرية من سبعة أبيات . أفرقاء : جمع فريق ، سابع في الرمح : يريد أنه طعنه ثم أجره الرمح . المكبل : المقيد . الهجمة : القطعة من الإبل من ثلاثين إلى مائة . الأيصر : الكساء يحمل فيه الحشيش .

(٤) ديوانه ، ص ١١٦ . نصطرمه : نقطعه . جز : حان جزه .

(٥) ينظر مثلا ديوان الأعشى ، ص ٦٠ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص ٩١ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص ٥٤ . وديوان عمرو بن قمئة ، ص ١٧٩ . والأصمعيات ، ص ١٦٤ . وديوان عنصرة ، ص ٧٩ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص ٣٢، ٣٧، ٤٩، ٦٧، ٩٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١ . وديوان امرئ القيس ، ص ٨ .

وقد تكون الحرب من الغدوة إلى أول الليل (١) .

وقد حرص الجاهليون على أسلحة الحروب والغارات ، فحرصوا على اقتناء رمح مدبب وسيف صقيل ودرع سابغة وفرس جرداء ، واعتمدوا على القوة الجسدية والصفات المعنوية كالإرادة القوية والصبر والتحمل . وإن تقديس العرب للسلح كان ينبثق من الحاجة الحقيقية التي كان يؤمن بها من الإحساس العميق بما كانت تؤديه له كل عناصره .. ولأنها وسائلهم في تحقيق الحياة وصيانة الشرف والدفاع عن العزة وتطمين الرغبات . ولعزة مواقع الأسلحة المادية في نفوسهم وقيمتها في حياتهم كانوا يرهنونها إذا أصابهم أمر عظيم أو حلت بهم كارثة أو تعرضوا لمسألة قاهرة . ولأن هذه العناصر مجتمعة تمنح القوة النفسية التي يتمكن بها من تجاوز مصاعب الحياة ومقاومة أسباب الصراع وإيقاف كل المطامع ... ولأن هذه الوسائل تمثل الطريق الذي يمكن من خلالها الوصول إلى السعادة والسيادة والعزة والمجد (٢) .

ولعل أهم وسائل الحرب والغزو هي الخيل ، فهي أفضل الأسلحة والوسائل لدى الجاهليين في غاراتهم وغزوهم (٣) . وكثيرا ما افتخر الشعراء بالخيال المضمرة العناق واقتنائها (٤) . وكانت حاجة الجاهلي للخيال كبيرة . يقول بشر بن أبي خازم في خيله :

وَمَا يُدْرِيكَ مَا فَقَّرِي إِلَيْهِ إِذَا مَا الْقَوْمُ كَرُّوا أَوْ أَغَارُوا (٥)

وكانت الخيل مكرمة لدى الجاهليين لفضلها وأهميتها وخيرها . فهي تأتي بالنهاج بعد النهاب في الغزو والغارات والحروب (٦) فتشهد غنما وتدافع عن القبيلة أيضا فهي مقربة معزة . يشير إلى ذلك مالك بن حريم - مفتخرا بخيله - في قوله :

مُقَرَّبَةٌ أَذْنَيْتُهَا وَافْتَلَيْتُهَا لَتَشْهَدَ غَنَمًا أَوْ لَتَدْفَعَ مَدْفَعًا (٧)

(١) ينظر ديوان بشر ، ص ٥٢ .

(٢) ينظر "شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري" ، نوري حمودي القيسي ، ص ٧٤-٧٥ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان النابغة الذبياني ، ص ١١١ . وديو ان الأسود بن يعفر ، ص ٢٢ . وديوان

عامر بن الطفيل ، ص ٢١ . وديوان عنتره ، ص ١١٩ .

(٤) ينظر ديوان عامر بن الطفيل ، ص ٤٥ . وديوان عنتره ، ص ١٢٨ .

(٥) ديوانه ، ص ٧٩ . وينسب البيت للسليك بن السلكة في لسان العرب مادة "ركب" .

(٦) ينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٤٣ .

(٧) الأصمعيات ، ص ٦١ . المقربة : المؤثرة بالمكرمة . افتليتها : اتخذتها أو نتجتها ، يعني أنها

ولدت عنده فهو عارف بكرمها .

وتعود الخيل بالإبل والأنفال والأسلاب آخر النهار (١) وبالأسارى والسلب (٢) ، وكان من يرجو أن تأتي له الخيل بالغنائم لأن هناك من ينتظره من أبنائه (٣) . والخيل تغني الصعلوك ، لذلك فهي عز ظاهر ، يقول الأسعر الجعفي :

إِنِّي رَأَيْتُ الْخَيْلَ عَزَّآ ظَاهِرًا تُتَجَّى مِنَ الْغُمَى وَيَكْشِفُنُ الدُّجَى
وَيَبِينُ بِاللَّغْرِ الْمَخُوفِ طَلَانَعًا وَيُبِينُ لِلصَّعْلُوكِ جَمَّةَ ذِي الْغِنَى (٤)

والخيل تغني الفقير ، وفي الوقت ذاته لا تبقى في غاراتها - أحيانا - لا أهل ولا مال (٥) ، فكم من فقير أغنته هذه الخيل بالغنائم ، وغني أغارت عليه فأفقرته . يقول سلامة بن جندل في الخيل :

كَمْ مِنْ فَقِيرٍ بِإِذْنِ اللَّهِ قَدْ جَبَرَتْ وَذِي غِنَى بَوَّأَتْهُ دَارَ مَحْرُوبٍ (٦)

فالخيل مفداة مكرمة لا تباع (٧) تشبع ويجاع لها العيال (٨) ، وهي تشرب حليب النوق وتسقى اللبن كما يقول خُزْرُ بن لُوْذَانَ - ويعرف بالمرقم الذهلي - يخاطب زوجته بأنه سوف يهجرها ذاكرا إطعمه فرسه .. لأنها غالية عليه ، فهي تحمي الديار وتحمي الزوجة ، يقول زاجرا زوجته :

إِنَّ الْغَبُوقَ لَهُ وَأَنْتِ مَسْوَاءٌ فَتَأَوَّهِي مَا شِئْتَ ثُمَّ تَحَوَّيْ (٩)

وتستخدم الإبل - أحيانا - مع الخيل في غاراتهم البعيدة ، فيركبون الإبل ويسوقون أمامها الخيل فلا يركبونها إلا إذا قاربوا موقع الغارة حتى لا تتعب وتجهد ، لينزلوا إلى القتال

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٧٣ ، ٢١٩ .

(٢) ينظر مثلا : الحماسة البصرية ، ٣٣/١ .

(٣) ينظر ديوان بشر ، ص ٢٩ .

(٤) الأصمعيات ، ص ١٥٨ . يثنى : يعطين من الإثابة . الجملة أصلها معظم الماء .

(٥) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٨٣ .

(٦) ديوانه ، ص ١٠٩ . بواته : أنزلته . جبرت : أغنته ولمت شعته . محروم : مسلوب ، والمحروم هو هذا الغني نفسه .

(٧) ينظر ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٦٧/١ .

(٨) ينظر الحماسة البصرية ، ٢٥٥/١ .

(٩) الحماسة البصرية ، ٥٧/١ . الغبوق : اللبن يشرب بالعشي . التحوب : الشكوى والتفجع .

موفورة القوة والنشاط (١) . وذكر الشعراء الغارات البعيدة (٢) وكان المغيرون يتسابقون على القتال كما يتسابق الظماء على الماء (٣) وقد أهريق ما بقي من الماء ليقاتل المقاتلون على ماء العدو (٤) .

وقد قرن بعض الشعراء الحرب برياح الدبور (٥) والشمال (٦) ، والنكباء التي ذكرها رجل من خثعم في رثاء قومه الذين اقتتلوا في داخل حديقة وأغلّقوا بابها حتى تفانوا (٧) . والمعروف أن هذه الرياح يتشاعم منها العرب لأنها تشيع القحط والجذب والفقر .

وللحروب والغارات آثار ونتائج سلبية سيئة على الخاسر أو المنهزم ، وثمة نتائج إيجابية لصالح الفائز أو المنتصر . وقد تسبب الدمار والخراب لكلا الفريقين ، خصوصا إذا كانت هذه النزاعات طويلة .

فالحروب تغير الأحوال (٨) ، فهي تغني وتفقر (٩) . يقول الأعشى ميمون ابن قيس في مدح الأسود بن المنذر اللخمي وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة :

رَبِّ رَفْدٍ هَرَقْتُهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ	مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْتَالَ
وَسُيُوحٍ حَرَبِي بِشَطَطِي أَرِيكَ	وَنِسَاءٍ كَأَنَّهُنَّ السَّعَالِي
وَشَرِيكَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَا	لِ وَكَانَا مُحَالَفِي إِقْلَالِ

-
- (١) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٠١ .
 - (٢) ينظر مثلا المفضليات ، ص ٣٥١ .
 - (٣) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٢٩ .
 - (٤) ينظر السابق ، ص ٨٠١ .
 - (٥) ينظر السابق ، ص ١٤٩ .
 - (٦) ينظر الأصمعيات ، ص ١٥٩ .
 - (٧) ينظر ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٣٤/١ .
 - (٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٦٣ .
 - (٩) ينظر مثلا : ديوان سلامة بن جندل ، ص ١٠٩ . وديوان الأعشى ، ص ٨٣ ، ٢٧٣ .
- وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ١٤٢ .

قَسَمَا الطَّارِفَ التَّلِيدَ مِنَ الْغَنَدِ سَمَ قَابَا كِلَاهُمَا ذُو مَالٍ (١)

فكان من نتائج غارة الأسود هذا : الموت والأسرى وذل النساء ، وشيوخ أخرجوا عما يملكون من مال فأصبحوا فقراء ، ورجلان من جند الأسود كانا معدمين حليفي فقر وإقلال قسما ما اجتمع لهما من الغنائم بين طارف وتلید قآبا كلاهما ذا مال : أي أنهما أصبحا من الأغنياء .
فهذه هي الحروب والغارات في الجاهلية بين عائد بالغنائم والنهاب ومنهزم يخسر ماله وحياته .

ومن نتائج الغزو الفقروالإعدام وإزالة النعم عن أصحابها . وتحدث الشعراء عن ويلات الحروب وأنها تفقر الناس ، وتستلب المال وتسبب الجوع والفقر .

يقول الأعشى في مدح قيس بن معد يكرب في غاراته :

وَلَقَدْ جَرَّرْتَ إِلَى الْغَنَى ذَا فَاقَةٍ وَأَصَابَ غَزْوُكَ إِمَّةً فَأَزَالَهَا (٢)

ويقول بشر بن أبي خازم في الفخر بالأيام والحروب ، ونتائجها على أعدائهم :

فَأَصْبَحُوا بَعْدَ نِعْمَاهُمْ بِمِبَاسَةٍ وَالْدَّهْرُ يَخْذَعُ أَحْيَانًا وَيَنْصَرِفُ (٣)

فليس النجاح والنصر في الحروب والغزوات كالخيبة والهزيمة فيها . وشتان بين الحالتين . فليس الخائب في غزوة كالغنام ، فالأول شبيه بالمرأة العاقر والثاني شبيه بالمرأة الولود . يقول عبيد بن الأبرص من معلقته :

أَعَاقِرْ مِثْلَ ذَاتِ رَحِمٍ أَمْ غَانِمٍ مِثْلُ مَنْ يَخِيبُ (٤)

فقد يغزو أحدهم فيغنم وقد يخيب ، كما يقول الشنفرى الأزدي الصعلوك في تائيته :

(١) ديوان الأعشى ، ص ٦٣ . يكني بإراقة الرfid عن الموت . وأصل الرfid : القدح الضخم .
أقتال : أصحاب ترات جمع قتل بكسر فسكون وهو العدد . حربى جمع حريب : وهو من حرب ماله أي سلبه . السعالي : الغيلان . "... الطارف التلید : يعني : رجلين من جنده غنما هذا المال وكان تلیدا قديما موروثا عند أصحابه فأصبح طارفا أي جديدا مستحدثا عندهما" . وكان في هذا اليوم غارة الأسود على الحليفتين : أسد وذبيان .

(٢) ديوانه ، ص ٨٣ . الإمة : النعمة .

(٣) ديوانه ، ص ١٣٩ . ينصرف أي ينقلب وينصرف عن الوجه الذي كان فيه . المباسة : البؤس : الشدة والفقر . وجاء أيضا في لسان العرب مادة "بأس" أن البأساء إسم للحرب والمشقة ، والبأس والعذاب والشدة في الحرب ، والخوف .

(٤) ديوانه ، ص ٢٦ .

وَمَنْ يَغْزُ يَعْنَمُ مَرَّةً وَيُسَمَّتْ (١)

وَبَاضِعَةٌ حُمَرِ الْقَسِيِّ بَعَثَهَا

وقد يجدون في حروبهم الخسران والبوار (٢).

ولا تخلف الحروب والنزاعات والغارات الآثار المذهلة والمدمرة فحسب بل وتزهق الأرواح وتيتم وترمل النساء وتتكلم الأمهات وتنتشر الجوع والأمراض . وهذا ما يصوره لنا الشعراء الجاهليون .

فتكون آثار الحرب مدمرة على طرفي النزاع والشقاق (٣) وفيها تهديم للدور والبيوت والضياح (٤) . وتنتشر جنث القتل ويكثر الجرحى (٥) وتنتشر الجماجم (٦) وتفرح الضباع لتلك الجنث كما جاء في شعر بعض الجاهليين (٧) ، وتجذ النساء الحبالى مفجعات يبلىن دما من شدة الخوف (٨) وتجذ السبايا الجائعات الهزلى (٩) تمتهن الخدمة كالإماء المبتذلة المهانة الحقيرة (١٠) وترى الأسرى (١١) يشكون من ذلهم وهوانهم . لذلك تجد المفارقة

(١) المفضليات ، ص ١١٠ . الباضعة القاطعة ، يعني قوما غزاة . حمر القسي يعني احمرت قسيهم للشمس والمطر لكثرة غزوهم . يشمت : يخيّب .

(٢) ينظر ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٩٧/١ . وديوان الأعشى ، ص ٣٤١ .

(٣) ينظر مثلا الحماسة البصرية ، ١٧٥/١ ، والمنصفات أو القصائد رقم "١١٦" "١١٧" "١١٨" . وديوان سلامة ، ص ١٦٥-١٦٩ . وديوان عنتره ، ص ٤٠ .

(٤) ينظر ديوان بشر ، ص ٩٣ .

(٥) ينظر السابق ، ص ١١١ . وديوان امرئ القيس ، ص ١٥٧ .

(٦) ينظر ديوان عنتره ، ص ١٣٥ .

(٧) ينظر ديوان بشر ، ص ٩٣ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٤ . والأصمعيات ، ص ١١٩ .

(٨) ينظر ديوان عامر ، ص ١١٨، ١٢٩ .

(٩) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص ١٥٧ .

(١٠) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٣١، ٣١١ . والأصمعيات ، ص ١٧٦ .

(١١) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٦٧-١٧٠ . وديوان الأفوه الأودي ، ص ٨ . وديوان عنتره ، ص ٣٧ . وديوان عامر ، ص ٩٦ .

والتمدح بمن يفك أسيرا أو يفتدي عانيا (١) ، ونجد في شعر الرثاء بكاء الأسرى والسبايا على المرثي (٢) .

وفي الحروب أيضا تنتهك الحرمات وتسلب الأموال (٣) وتتهب الإبل والأنعام (٤) . ولا تخلف الحروب والغارات إلا المعاناة والفقر والفقراء . فتخلف الأيتام والأرامل والأيامى (٥) ، يقول جَحْدَر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة في يوم التحاليق ، وكان هذا اليوم لبكر على تغلب من أيام حرب البسوس التي دامت أربعين عاما :

قَدْ يَتَمَتَّ بِنْتِي وَأَمْتُ كُنْتِي وَشَعْنَتْ بَعْدَ الرَّهَانِ جُمَّتِي (٦)

وتخلف الأسرى والسبايا (٧) ، والرقيق (٨) من الإماء (٩) والعبيد (١٠) . وإن بعضهم كان يعيش الأسير الرئيس في بؤس وشقاء إذا لم يفتد ، وكانوا يطلقون سراح الفقير ، وهذا مدعاة

(١) ينظر ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٧٢ . وشرح ديوان ليبيد ، ص ٢٥١ . وديوان سلامة بن جندل ، ص ٢٠٢ . وديوان الأعشى ، ص ٥٩ . وديوان الخنساء ، ص ٧٥، ١٤ . وديوان زهير ، ص ١٦٨ . وديوان بشر ، ص ١٠٨ . وديوان امرئ القيس ، ص ١٧٣ .

(٢) ينظر شاعرات العرب .. ، ص ٩٣، ٧٣ .

(٣) ينظر ديوان بشر ، ص ١٨ . وديوان عنتر ، ص ٦١، ٤٣ . وديوان شعر المتقرب العبدى ، ص ٢٥٤ . وشرح المعلقات السبع ، ص ١٤٢ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٣٥١، ٢٩٩ . وديوان الأفوه الأودي ، ص ١٧ . وديوان عنتر ، ص ١٧٥ . وديوان الشنفرى ، ص ٣٢ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص ٩٩ . وديوان عنتر ، ص ١٨٧ . والمفضليات ، ص ٤١٧ . والأصمعيات ، ص ٧٦ .

(٦) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١٩٥/١ . آمت من الأيمة : بقيت بلا زوج . والكنة : امرأة الأخ أو الابن . الشعث : اغبرار الرأس . والجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٧) ينظر المفضليات ، ص ٣٣٢ . وديوان عنتر ، ص ٧٩ . وشرح المعلقات السبع ، ص ١١٢ .

(٨) ينظر المفضليات ، ص ٣٣٢ .

(٩) ينظر شرح المعلقات السبع ، ص ١٣٧ .

(١٠) ينظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٤٩ .

للفخر والتمدح عندهم (١) ، وكان الأسير يجوع ويعرى (٢) ، لذلك نرى بعض الشعراء قد هجا من يمنع الأسير عن الطعام ويسلب ثيابه (٣) .

وتخلف وراءها كذلك المحروب والمسلوب (٤) وهما كانا غنيين وأصبحا فقيرين بعد الحرب وغارات الخيل عليهما .

يقول بشر في الحريب و المسلوب وهو يفخر في الحروب بأخذ جميع الأموال من الخصوم وإذلالهم :

لَحُونَاهُمْ لَحَوُ الْعِصِيِّ فَأَصْبَحُوا عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْهَوَانُ حَرِيْبَهَا (٥)

وقد ينتج عن الحروب إذا ما كفت وانتهت بصلح مثلاً : تحمل الحقوق والديات . ولا يستهان بأمر الديات في العصر الجاهلي ، فقد كان يكلف الكثير ، فبعضهم كان يدفع الطرف والتلبد في الديات (٦) والبعض يدفع ثلث الأموال كما يقول عمرو بن كلثوم في أمواله وأموال قومه :

ثَلَاثَةُ أَثْلَافٍ فَأَثْمَانُ خَيْلِنَا وَأَقْوَاتُنَا وَمَا نَسُوقُ إِلَى الْقَتْلِ (٧)

فبحسبة بسيطة كانت حروب عمرو بن كلثوم وقومه تكلفهم ثلثي أموالهم . ويتمدح الشعراء بمن يدفع الديات عن الخصوم المتصارعة (٨) .

وللحروب والغارات والنزاعات الفردية والقبلية آثار نفسية لا تخفى على أحد . فكان الهلع والخوف والقلق الشديد يصيب الأطراف المتحاربة وغير المتحاربة . فمن قسوة البيئة الصحراوية إلى قسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

(١) ينظر ديوان سلامة بن جندل ، ص ١٤٦ .

(٢) ينظر ديوان الهذليين ، ١٣/٣ .

(٣) ينظر الحماسة البصرية ، ٢٠٥/١ .

(٤) ينظر المفضليات ، ص ٥٧ . وديوان بشر ، ص ٤٦ . وديوان طرفة ، ص ٩٩ . وديوان

عبيد بن الأبرص ، ص ٢٤ . وديوان سلامة ، ص ١٠٩ . وديوان الأعشى ، ص ٦٣ . وشرح المعلقات السبع ، ص ١٤١ .

(٥) ديوانه ، ص ١٨ . اللحو : قشر العود . الآلة : الحالة . والحريب الذي سلب ماله .

(٦) ينظر المفضليات ، ص ٣٥٨ .

(٧) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١٨٤/١ .

(٨) ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٥ .

ونجد أن الغارات والحروب قد أثارت الفزع لدى الأغنياء . ونجد من أخذ من القبائل بالرعي في ديارها غير مبتعدة .. خوفا من الغارات عليها ، كما يشير عامر بن الطفيل إلى ذلك :

تَزَعَى فَزَارَةٌ فِي مَقَرِّ بِلَادِهَا وَتَهِيمُ بَيْنَ شَقَائِقِ وَرِمَالِ (١)

ف نجد من يحذر القوم من الأعداء لأن الحروب تؤدي بالأموال وكذلك الأنفس ، كما يشير إلى ذلك لقيط بن حارثة بن معبد الإيادي يحذر قومه من غزو كسرى لهم في قوله :

لَا تُتَمَرُّوا الْمَالَ لِلْأَعْدَاءِ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا يَحْتَوُوكُمْ وَالتَّلَادُ مَعَا (٢)

ونجد بالمقابل التهديد بالحرب وشن الغارات لبث الرعب في قلوب الأعداء (٣) والتغني بالبطولات وبالقوة والشجاعة . فلأمر ما يقول عمرو بن كلثوم مختتما معلقته مفتخرا :

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخَرَّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا (٤)

ولا نعدم من كان يسعى للصلح في العصر الجاهلي ، ويحلم بالسلم والسلام بعيدا عن الحروب والغارات (٥) فالجميع كان إلى الصلح أقفر (٦) في الجزيرة العربية القاسية .

ونتيجة لمراجعة الشعر الجاهلي نستطيع حصر فلسفة الجاهليين في الحروب والغارات في ثلاثة أشياء : المرء ليس له مهرب من الموت ولو كان في فراشه ، فهو غير مخلص (٧) . وعزة وأنفة الإنسان الجاهلي وحب الحرية وتقديسه لها فهو لا يقبل الذل على نفسه (٨) ولو كلفه حياته . ولبناء الأمجاد والتفاخر والذكر الحسن (٩) . وأشك في أن الفقير على فقره يستطيع أن يبني هذه الأمجاد والذكر الحسن ؛ فليتملص من الفقر وسيأطه أولا .

(١) ديوانه ، ص ٨٩ . الشقائق : جمع شقيقة من الرمل قطع غلاظ بين جبلي رمل . وينظر

ديوان الأعشى ، ص ١٢٥ ، يحبس أصحاب الإبل إيلهم خوفا من غارات الممدوح .

(٢) الحماسة البصرية ، ٢٨٨/١ .

(٣) ينظر مثلا : المفضليات ، ص ٢٧٤ . وديوان الشنفرى ، ص ٣٦ .

(٤) شرح المعلقات السبع ، ص ١١٥ .

(٥) ينظر مثلا : ديوان الأفوه الأودي ، ص ١٢ .

(٦) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٥٨ .

(٧) ينظر مثلا ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٥٦ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص ٥٦ . وشرح

شعر زهير ، ص ٢٠٧، ٧٥ .

(٨) ينظر مثلا : ديوان عنتره ، ص ١٦١، ١٨١ . وديوان الحماسة ، ١٧٨/١ .

(٩) ينظر مثلا ديوان طرفة ، ص ٩٢ .

ومن حكم زهير بن أبي سلمى في الموت والمنايا والقناء :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلُتُهُ وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بَسَلَمَ (١)

ويقول أيضا :

بَدَا لِي أَنْ النَّاسَ تَغْنَى نَفُوسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَلَا أَرَى الدَّهْرَ فَانِيَا (٢)

-٣-

الكـرم

١- التغني بالكرم

تغنى العرب منذ العصور القديمة بالكرم والجود ، ومدحوا الكرماء الأجواد ، وكان الجاهليون يقدسون الجود في مجتمعهم القبلي ، ونجد هذا التغني بالكرم في شعر شعرائهم فمدحوا الكريم وذموا البخيل .

والكرم من المروءة عند العرب ، وقد أشار فيليب حتي إلى ذلك عندما تحدث عما يكشفه الشعر الجاهلي من مكونات الطبع البدوي ، فهو يقول : "يكشف هذا الشعر من المثل الأعلى لفضيلة العربي التي تعبر عنها لفظة المروءة ، وللمروءة عناصر تتكون منها هي : الشجاعة والوفاء والكرم ... ويظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعدادة لنحر ناقته وتقديمها طعاما للضيف أو لإطعام الفقراء والمساكين" (٣)

ولا تخلو قصيدة تمدح الكرم إلا وتذم البخل والبخلاء (٤) ، فثمة شعر جاهلي يتحدث عن الكرم ، ومنه ما تحدث عن البخل . وكان في العصر الجاهلي الكريم والبخيل كما صورهما الشعر الجاهلي . ولا نعدم كذلك أشعارا لبخلاء يعتذرون عن بخلهم ، وأشعارا يتخوف أصحابها من الفقر ؛ ويتجلى هذا البخل والحرص على المال في اللوم والعتاب من قبل النساء لأزواجهن على الجود والإسراف في المال . ولكن الكرم كان مثلاً رفيعاً لأسباب مادية واجتماعية ، فنجد

(١) شرح المعلقات السبع ، ٧٥ .

(٣) شرح شعر زهير ، ص ٢٠٧ .

(٤) تاريخ العرب مطول ، ١٣١، ١ .

(٥) قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص ٣٩١ .

الكثير من الشعراء ينفرون من البخل والبخلاء ، وما التمدح بالكرم والكرماء إلا دليل على وجود البخل والبخلاء (١) .

وغالبا ما نجد التفاخر والتمدح بالكرم والكرماء في قصائد المدح والفخر الفردي والقبلي والرتاء ؛ بينما نجد التعبير بالبخل والبخلاء في قصيدة الهجاء ، فكان من دواعي الهجاء عند شعراء الجاهلية - مثلا - إطفاء النار عندما تستتبع الأضياف الكلاب .

وكان العربي في أوقات السلم سخيا يبالغ في كرمه ويستهن بالمال ، فهو يعتبر الكرم إحدى مظاهر التسيد (٢) وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

يَقُولُونَ لِي أَهْلَكَتَ مَالَكَ فَأَقْنَصِدْ وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا تَقُولُونَ سَيِّدَا (٣)

فعلى رئيس القبيلة أن يتحلى بصفات تؤهله لقيادة القبيلة في سلمها وحربها وفي جذبها وخصبها ، وعلى رأس هذه الصفات الشجاعة ورجاحة العقل والرأي .. والكرم والثراء والغنى ؛ لأن أفراد القبيلة تلتجئ إليه أيام الجذب والفقر (٤) . "فالسيدة لا يتولاها الضعيف البخل . ولا بد أن يكون السيد ثريا ثراء عريضا" (٥) .

والكرم ألزم بصفات السيادة من الشجاعة ، لشدة الحاجة في بيئة كان الفقر وقلة الزاد طابعها العام (٦) . فكان بعض الشعراء الجاهليين يفتخرون بالكرم والجود والعطاء أولا ، ثم يفخرون بالشجاعة والقوة (٧) .

(١) ينظر في الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، محمد النويهي ، ٢٣٣/١ . والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص ٣٢٨ .

(٢) ينظر "تاريخ العرب قبل الإسلام" ، الأصمعي ، ص ٢١ . والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الحوفي ، ٣٠٨ . وتاريخ العرب قبل الإسلام ، سيد عبد العزيز سالم ، ص ٣٨٩ .

(٣) ديوانه ، ص ٧٥ .

(٤) ينظر الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن ، ص ٢٠ .

(٥) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، حسين عطوان ، ص ٣٥ . وينظر شعر لحاتم الطائي ديوانه ، ص ٧٥ . وشعر في ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٥٣/٢ .

(٦) ينظر قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص ٣٥٩ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان ذي الإصبع العدوانى ، ص ٥٣ . وديوان الأسود بن يعفر النهشلي ، ص ٥٤ . والحماسة البصرية ٤٢٩/١ شعر لحسان بن ثابت في مدح آل جفنة ملوك الشام .

وَحَوَتْ جَرِيَّةُ النُّجُومِ فَمَا تَشُدُّ رَبُّ أُرْوِيَّةٍ بِمَرِّي الْجَنُوبِ (١)

فهم يبذلون الطعام حتى إذا انقطع المطر ، وهبت ريح الشمال بالتلج والصقيع ومحلت نجوم (المجرة) حتى ما تدر ريح الجنوب ما يسقي وعلا ظمآن .

وكما يقول أبو دواد الإيادي في الرثاء :

وَسَمَّاحٌ لَدَى السَّيْنِ إِذَا مَا قَحَطَ الْقَطَرُ وَاسْتَقَلَّ الرَّهَامُ (٢)

ويقول بشر بن أبي خازم الأسدي في رثاء أخيه "سمير" بعد نعيه بالشجاعة والقوة :

يَا سَمِيرَ مَنْ لِلنِّسَاءِ إِذَا مَا قَحَطَ الْقَطَرُ أُمَّهَاتِ الْعِيَالِ

كُنْتُ غَيْثًا لَهْنٍ فِي السَّنَةِ الشَّهْ بَاءِ ذَاتِ الْغُبَارِ وَالْإِمْحَالِ

الْمُهَيْنُ الْكُومَ الْجِلَادَ إِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ كُلَّ يَوْمٍ شَمَالِ

والمفيد المَالَ التَّلَادَ لِمَنْ يَعُدُّ قُوَّةً وَالْوَاهِبُ الْحِسَانَ الْغَوَالِي (٣)

فسمير كان غيثًا للكرامل أمهات الأيتام في السنة الشهباء المجذبة قليلة المطر ، كريما معطاء إذا هبت ريح الشمال الباردة .

ويتمدحون بالكرم إذا هبت رياح الصبا (٤) ، وقد حلف لبيد ألا تهب الصبا إلا أطعم (٥)

وكما يتفاخرون بالجود إذا ما هبت رياح الشمال الباردة (٦) والنكباء الحرجف (٧) .

(١) ديوانه ، ص ٣٨٣-٣٨٥ . خوت النجوم : أمحلت فلم تمطر ، وكانت العرب تتسبب المطر للنجوم . والجربة : المزرعة والبقعة الحسنة النبات ويقال للمجرة جربة النجوم ، والمجرة نجوم كثيرة . مري الجنوب : استدرارها الغيث وأصله مري الناقة وهو مسح ضرعها لتدر .

(٢) الأصمعيات ، ص ٢١٦ . قحط القطر : احتبس المطر وانقطع . استقل : ارتحل . الرهم : الأمطار الضعيفة الواحدة رهمة بكسر الراء .

(٣) ديوانه ، ص ١٧٤ . الكوم جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنم . الجلاذ من الإبل : الغزيرات اللبن ، وقيل التي لا لبن لها ولا نتاج ويكون أقوى لها .

(٤) ينظر مثلا : الأصمعيات ، ص ١٩٥ .

(٥) شرح ديوانه ، ص ٣٥٧ . وينظر المعلقة العشر ... ، الشنقيطي ، ص ٣٠ .

(٦) ينظر مثلا : ديوان بشر ، ص ١٢٥، ١٧٤ . وديوان أوس بن حجر ، ص ٥٤ . والمفضلليات ، ص ١٢٤، ١٩٤، ٣٧٦، ٤٣١ . والأصمعيات ، ص ٢٦١ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ١٥٢/٢ . وديوان الهذليين ، ١٤٩، ١٤١/٢ و ١٢٦/٣ . وشرح ديوان لبيد ، ص ٢٥٠ .

و ديوان الخنساء ، ص ١٣٩، ١٤٠ .

(٧) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ١٠١ . والحماسة الشجرية ، ٥٢/١-٥٣ .

وَيَتَمَدِّحُونَ بِالكَرَمِ وَالْعَطَاءِ عِنْدَ وَجُودِ الْبَخْلَاءِ وَكَثَرَتِهِمْ وَحِرْصِهِمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ (١) .

٢- مظاهر الكرم وصوره في الشعر الجاهلي

ومن مظاهر الكرم في الشعر الجاهلي إشعال النار يهتدي بها الضيف والغريب وضال الطريق (٢) إلى مكان الكرم والجود والضيافة . ونراهم يهجون البخيل بعدم إيقادها لنفوره من الضيوف (٣) .

وإبراز القدر والجفان من مظاهر الكرم أيضا (٤) . وصورة الكلاب التي لا تتبج الضيف ، لتعودها عليه فهي صورة أخرى من صور الكرم (٥) . فتراهم يهجون البخيل بأن كلابه تتبج في وجه الضيوف (٦) . ومن صور الكرم الإحتفاء بالضيف والترحيب به وإكرامه (٧) وإطعامه وتقديم القرى له (٨) كما يشير إلى ذلك حاتم الطائي مصورا مدى احتفائه بالضيف وإكرامه له في قوله :

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَلَوِيَا وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ الْعَبْدِ (٩)

-
- (١) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ٧٠ . وديوان الأعشى الكبير ، ص ١٥٩، ٥٩ .
 (٢) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ٩٤، ٧٠ . وديوان الأفوه الأودي ، ص ٢٠ . وشرح شعر زهير ، ص ٨٠ . والمفضليات ، ص ١٧٦ .
 (٣) ينظر مثلا المفضليات ، ص ١٧٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٠/١ .
 (٤) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ١٠٣، ٩٤ . وديوان طرفة ، ص ٩١ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص ٥٢ . وشرح ديوان لبيد ، ص ١٣٦ .
 (٥) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ١٠٣، ٩٣ .
 (٦) ينظر مثلا : السابق ، ص ٩٣ .
 (٧) ينظر مثلا : السابق ، ص ١٢٢، ١٠١، ٧٧، ٦٨ . وديوان عنتره ، ص ١٢١، ٨٣ . وديوان بشر ، ص ٢١ . والمفضليات ، ص ١٢٦-١٢٧، ٣٢٦ . والأصمعيات ، ص ٢٦٨، ٦٢ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٧٥/١ .
 (٨) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ١٢٠، ٨٢، ٧٧، ٧٤ . وشرح شعر زهير ، ص ٢٣١ . وديوان الأفوه الأودي ، ص ٢٠ . والمفضليات ، ص ٣٦٨ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٤٠٢، ٣٨٥/١ . و ٣٣٢، ٣٢٧/٢ . والحماسة الشجرية ، ٤٦٩/١ .
 (٩) ديوانه ، ص ٧٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٥/٢ .

ويقول أيضا :

قُدُورِي بَصَحْرَاءَ مَنْصُوبَةً وما يَنْبَحُ الْكَلْبُ أَضْيَافِيهِ
وَإِنْ لَمْ أَجِدْ لِزَيْلِي قِرَى قَطَعْتُ لَهُ بَعْضَ أَطْرَافِيهِ (١)
ومن صور الكرم ما نجده في شعر الجاهليين أيضا من استضافتهم للذئب (٢) .

ومن مظاهر كرمهم وجودهم مساعدتهم الفقير المحتاج (٣) والسائل المَقْرُور . فالأعشى الكبير يقول في مدح هودة بن علي :

طَوِيلَ النَّجَادِ رَفِيعَ الْعِمَا دِ حِمِي الْمَضَافِ وَيُعْطِي الْفَقِيرَا (٤)
ويقول أيضا مفتخرا :

إِذَا أَحْمَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَأَعْصَفَتْ رِيَّاحُ الشَّتَاءِ وَاسْتَهَلَّتْ شُهُورُهَا
تَرَى أَنَّ قِدْرِي لَا تَزَالُ كَانَتْهَا لِذِي الْفَرَوَةِ الْمَقْرُورِ أَمْ يَزُورُهَا (٥)

فالأعشى في هذين البيتين من قصيدة يوجه الخطاب فيها لصاحبه "مي" التي نهضت للرحلة مبكرة ، وقبل هذين البيتين يستكر فعلها هذا ، فيطلب منها ألا تصرمه فلتسأل عن صنيعة حين يشتد الجذب ، وحين يحرص القوم على المرق في القدر فيردون عنها المستعير ، وحين يجتمعون من حولها يرقبون نضجها ، وقد قامت فتاة الحي الكريمة تمدّها بالحطب والوقود . فإذا احمرت آفاق السماء ، وهبت رياح الشتاء الباردة عاصفة هوجاء ، واشتد ظلام الليل في مستهل الشهور ، ضمنت قدر الأعشى للسائل المَقْرُور الدفاء والطعام يغدو إليها ويروح كأنها أمه

(١) ديوانه ، ص ١٠٣ .

(٢) ينظر مثلا الأصمعيات ، ص ٤٤ .

(٣) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص ٩٨، ٩٢ . وشرح شعر زهير ، ص ١٥٤، ٧٩ . وديوان النابغة الذبياني ، ص ٢٠٩، ١٩٠، ١٣٢ . وديوان الحارث بن حلزة ، ص ١٩ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٣٧، ١٩١ . والمفضليات ، ص ١٨٦، ١٢٢ . والأصمعيات ، ص ٣٧ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٢، ٣٠/٢ . وشرح ديوان لييد ، ص ٧١ . وديوان الخنساء ، ص ٦٤، ١٣، ٨ .

(٤) ديوانه ، ص ١٤٧ .

(٥) ديوانه ، ص ٤٢١ . احمر أي اغبر وذلك في القحط . آفاق السماء : جوانبها . والعرب تسمي السنة الشديدة حمراء . المَقْرُور : البردان . الفروة : الكيس الذي يتجمع فيه ما يجمعه هذا المَقْرُور من الناس من صدقات ؛ هذا السائل اعتاد أن يزور هذه القدر كأنها أم رؤوم له .

الرؤوم . وفي بيت نال أن هذه القدر قد برزت للعفاة ، لا تجعل من دونها الستور ، ولاحت نارها حين تخدم النيران .

وهذا الحادثة في مفضليته يخاطب سمية التي بكرت في الرحيل ، فطلب منها أن تراجع جدّها في هذا الرحيل ؟! فهو يطعم الجياح فيطبخ لهم اللحم في القدور بنفسه ويعجل في الطبخ وكان من بين هؤلاء الجوع أشعث يحلف من جهده وضره أن اللحم قد نضج ، ولما ينضج بعد ، يقول الحادثة مفتخرا بنفسه :

ومعرض تغلي المَراجِلُ تَحْتَهُ عَجَلْتُ طَبَخْتَهُ لِرَهْطِ جُوعٍ
وَلَدَيَّ أَشْعَثُ بِاسْطِ لِيَمِينِهِ قَسَمًا لَقَدْ أَنْضَجْتُ لَمْ يَتَوَرَّعْ (١)

والعطف على الفقراء كان من دواعي الفخر والتمدح لدى الشعراء الجاهليين .

يقول سلامة بن جندل في الفخر :

قَوْمٌ إِذَا صَرَّحْتُ كَحَلِّ بَيوتِهِمْ عَزَّ الدَّلِيلُ وَمَاوَى كُلِّ قَرْصُوبٍ (٢)

وكما قال عبید بن الأبرص من قصيدة يبكي فيها على قومه الماضين :

أَيَّامُ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمِ سَوْقَةٍ لِمُعَصَّبٍ وَلِبَائِسٍ وَلِعَانِي (٣)

ويقول الأعشى الكبير في مدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وَأَمَّا نَ صَالِحَ مَالِهِ لِفَقِيرِهَا وَأَسَى وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا وَسَعَى لَهَا (٤)

(١) المفضليات ، ص ٤٦ . المعرض : بشديد الرأء المفتوحة : اللحم الذي لم يبلغ نضجه .
المراجِل : جمع مرجل : ما يطبخ فيه . الأشعث : المضرور المحتاج وأصله من شعث الرأس .

(٢) ديوانه ، ص ١١٧ . صرحت : بينت ، لم يكن فيها غيم ولا مطر . الكحل : السنة الشديدة .
يقول : إذا اشتد الزمان وعم الناس القحط فقنأوهم رفعة للضعفاء المعوزين وملجأ للصعاليك
المشردين أو الفقراء المحتاجين .

(٣) ديوانه ، ص ١٤٨ . سوقة : كل الناس سوقة إلا من كان في يديه سلطان . معصب : الذي يعصب بطنه الحجر من الجوع .

(٤) ديوانه ، ص ٧٩ ، وأسى جراحهم وأصلح بينهم وسعى لخيرهم .

ومن صور كرم الجاهليين عطفهم على الأرملة واليتامى والعناية بهم (١) ونجد هذه الصورة في شعر المدح والفخر وخاصة في شعر الرثاء وبالأخص في مرثي النساء .

يقول ليبد بن ربيعة في أبيه :

وجدتُ أبايَ ربيعاً لليتامى وللأضيافِ إذْ حُبَّ الفقيدُ (٢)

ومن مرثي النساء ، تقول ناجية بنت ضمضم في رثاء أبيها الذي قتله عنتره :

الفَيْدُ ماؤى الأرملة والمدفَعَةُ اليتيمةُ (٣)

ويشيع في شعر الرثاء صورة بكاء الأرملة والأيتام والأسرى على المراثي لأنه كان في حياته يعطف عليهم ويفرج كربهم . تقول أم بسطام بن قيس الشيباني في رثاء ولدها بسطام بن قيس الذي قتل "يوم القلاب" :

وتبكيتُ أسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاغ عيالها (٤) .

لذلك كان من لا يعطف على الأرملة واليتيمة مهجوا معيرا (٥) .

ومن مظاهر وصور الكرم عند العرب ، العطاء قبل السؤال (٦) ، وصلة الأرحام ، وإكرام

(١) ينظر مثلا : ديوان امرئ القيس ، ص ١٣٢ . وديوان حاتم ، ص ٦٧ . وديوان طرفة ، ص ١١٩ . وشرح شعر زهير ، ص ١٦٩ ، ٢١٦ . وديوان الأعشى الكبير ، ص ١٤١ ، ١٥٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٨/٢ . والمفضليات ، ص ٣٦٨ . والحماسة للبحتري ، ص ٢٧٤ . وديوان السموأل ، ص ٧٨ . وديوان الخنساء ، ص ٢٦ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ١٣٨ . وديوان النابغة الذبياني ، ص ٢١٧ .

(٢) شرح ديوانه ، ص ٤٠ . الفقيد : الخبز المليل أو هو الملة ويقال هو الشواء . والفقيد النار نفسها .

(٣) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، ص ٤٨ . وانظر قريبا من هذا المعنى ، ص ٦٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٣٣ .

(٤) السابق ، ص ٩٣ .

(٥) ينظر مثلا السابق ، ص ٢٢ .

(٦) ينظر مثلا : الحماسة للبحتري ، ص ١٤٩ . والمفضليات ، ص ١٢٠ . وشرح شعر زهير ، ص ١٢٠ . وديوان حاتم ، ص ٨٣ .

الجار (١) ، والهبات والعطايا (٢) خصوصا إذا كثر البخال وكثرت اعتذاراتهم (٣) ، ودفع الديات (٤) والمغارم والديون (٥) ، وشراء المؤودة (٦) ، وإيثار الفقراء على النفس (٧) والمساواة بينهم وبين أغنيائهم بالعطف عليهم وخلطهم بأصحاب الغنى والثراء (٨) وفك أزمتهن النفسية والمادية من الفقر وتعقيداته . وفي خلط الفقراء بالأغنياء تقول الخرنق بنت بدر في رثاء قومها الذين قتلوا يوم قلاب:

والخالطونَ نَحِيْثَهُمْ بِنُضَارِهِمْ وذوي الغنى منهمُ بذِي الْفَقْرِ (٩)
ويقول حسان بن ثابت الأنصاري في مدح آل جفنة ملوك الشام :
الْمُلْحِقِينَ فَقِيرُهُمْ بِغَنِيِّهِمْ وَالْمُشْفِقِينَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمُرْمِلِ (١٠)

والكرم من الوسائل التي تخفف من حدة الفقر والجوع والألم ، وهذا لا شك فيه . ويمكن أن يمسح الفقر عن وجه البسيطة في يوم من الأيام ، كما يشير إلى ذلك حجية بن المضرب في مدح يغفر بن زرة أحد الملوك :

وَلَوْ لَامَسَ الصَّخْرَ الْأَصَمَّ أَكْفَهُمْ أَفَاصَ يَنَابِيعَ النَّدى ذَلِكِ الصَّخْرُ
وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ الْبَسِيطَةُ مِثْلَهُمْ لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَّا عُرِفَ الْفَقْرُ

-
- (١) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ، ص ١٣٥ . وديوان علقمة الفحل ، ص ١٢٦ . وديوان السموأل ، ص ٨٠ . وديوان حاتم ، ص ٩٤ .
- (٢) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ، ص ٨٩، ٧١، ٥٩، ١٠٠، ١٤٩، ٢٩٥، ٣٤٧، ٣٨٩، ٣٩٧ . وديوان أوس بن حجر ، ص ٢٥ . وديوان النابغة الذبياني ، ص ١٤٣ .
- (٣) ينظر مثلا : ديوان الأعشى الكبير ، ص ٥٩ . والحماسة البصرية ، ١/ ١٢٧ .
- (٤) ينظر مثلا في ديوان الأعشى الكبير ، ص ٢٥٣ .
- (٥) ينظر مثلا في ديوان النابغة الذبياني ، ص ١٥٢ .
- (٦) الأغاني (بيروت) ، ٣٠٢/٢١ .
- (٧) ينظر مثلا : ديوان عامر بن الطفيل ، ص ٧٨ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ٥٩ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٤٤٢/١ .
- (٨) ينظر مثلا : ديوان حسان بن ثابت ، ص ٨٩ . والحماسة البصرية ، ١/ ٥٤٣ .
- (٩) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، ص ٨١ . والبيت لحاتم الطائي في ديوانه ، ص ٨٧ .
- (١٠) الحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ . المرملة : الفقير ، ومن معاني المرملة قليل الزاد .

شَكَرْتُ لَكُمْ آلَاءَكُمْ وَبَلَاءَكُمْ وَمَا ضَاعَ مَعْرُوفٌ يُكَافِئُهُ شُكْرُ (١)

وإذا كان الكرم والجود يخفف جزءا بسيطا من الفقر في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، فإنه - في نفس الوقت قد يفقر صاحبه :
يقول لبيد بن ربيعة :

وَلَكِنْ مَالِي غَالَهُ كُلُّ جَفْنَةٍ إِذَا حَانَ وَرَدَ أَسْبَلَتْ بِدُمُوعِ
وَإِعْطَائِي الْمَوْلَى عَلَى جِنِّ فَقْرِهِ إِذَا قَالَ أَبْصِرْ خَلَّتِي وَخُشُوعِي (٢)

ومن مظاهر وصور كرم الجاهلي الميسر (٣) ، وشرب الخمر ، فإذا ما شربوا الخمر وانتعشوا ، أخذوا يكرمون ويجودون بما في اليد . يقول طرفة بن العبد مفتخرا بقومه :
فَإِذَا مَا شَرِبُوهَا وَانْتَعَشُوا وَهَبُوا كُلُّ أُمُونٍ وَطِمِرٍ (٤)
وهو نفسه الذي يقول في إنفاقه ماله طريقه وملتده على لذاته وشرب الخمر :

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذَّتِي وَبِنَعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ (٥)

ونجد الأعشى الكبير ميمون بن قيس - أيضا - قد شرب الخمر "غنيا وصعلوكا" (٦) وأنفق ماله على ثلاثة أشياء : الخمر والنساء وفاخر الطعام (٧) ، وفي موضع آخر يشير الأعشى إلى

(١) السابق ، ٤٥٧/١ . وحجية .. شاعر جاهلي نصراني أدرك الإسلام ولم يسلم عاش لزمان (٢) شرح ديوانه ، ص ٧٠-٧١ . غاله : ذهب به . إذا حان ورد : إذا حان ورد الناس إياها - للقدر - سألت بدموع من الدسم . الخلعة : الحاجة . المولى : ابن العم . خلتي وخشوعي : الاستكانة وسوء الحال .

(٣) ينظر مثلا : ديوان طرفة ، ص ٨٨، ٩١ . وشرح شعر زهير ، ص ١٢٤، ١٥٩ . وديوان بشر ، ص ٧٣ . وديوان النابغة الذبياني ، ص ١٢٧ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ٢٠٣ . والمفضليات ، ص ٢٣٣، ٣٥٠، ٤٠٣ . والأصمعيات ، ص ٨٤، ٥٣-٨٤، ٩٩، ١٠٧ . وللميسر حديث آخر ليس هنا موضعه .

(٤) ديوانه ، ص ١٣٥ . أُمُون : ناقة موثقة الخلق . طمر : فرس طويل .

(٥) السابق ، ص ٤٥ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٥٠-٥١ .

(٦) ديوانه ، ص ١٣٥ .

(٧) شعراء النصرانية ، ص ٣٨٩ . ونرى كذلك أن بشر بن أبي خازم ينفق ماله على الخمر والقمار والنساء ، ديوانه ، ص ١١٩ .

إتلاف المال في الخمر واللعب والغناء واللذة وسماع الألحان (١) ونجد في العصر الجاهلي "أعبد
ستهلك في الخمر أثمانها" (٢) .

وهذه عبلة بنت خالد التميمية كانت عند رجل من جشم اسمه محجن بعثها لتبيع له سمنا في
عكاظ ، فباعته السمن والراحلتين وشربت بثمانها الخمر ، فلما نفذ المال رهنه ابن أخيه وهربت
وقالت في ذلك :

شَرِبْتُ بِرَاحِلَتِي مَحْجَنَ
فَيَا وَيْلَتِي مَحْجَنَ قَاتِلِي
وَبَابْنِ أَخِيهِ عَلَى لَذَّةٍ
وَلَمْ أَحْتَفِلْ عَذْلَةَ الْعَاذِلِ (٣)

فشرب الخمر قد يكون سببا أو دافعا للإكرام . وقد يكون سببا في إتلاف المال لغلاء ثمنها
وإذا ما أدمن شاربها عليها . والبخيل الذي يحرص كل الحرص على أمواله تراه يهين ماله في
شربها . يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُهْرَتْ
عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينًا (٤)

فلا نعدم من البخلاء من كان يهين ماله من أجل نفسه ، ولكن لا ينتفع الفقراء والمحتاجون من
أمواله شيئا .

ولعل أجود الكرم عند الجاهليين أن يجود الشخص وهو محتاج فقير ، وتمدح الشعراء
بذلك ، فهذا دريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله يشير إلى ذلك بقوله :

وَإِنْ مَسَّهُ الْإِقْوَاءُ وَالْجُهْدُ زَادَهُ
سَمَاحًا وَإِتْلَافًا لِمَا كَانَ فِي الْيَدِ (٥)

ويقول ذو الإصبع العدواني :

أَكْرَمَ الضَّيْفَ وَالنَّزِيلَ وَإِنْ بَتَّ
تُ حَمِيصًا يَضُمُّ بَعْضِي بَعْضِي (٦)

(١) ديوانه ، ص ٤٠٩ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٧٣ .

(٣) شاعرات العرب ... ، بشير يموت ، ص ٩٥ .

(٤) شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ١٠٢ ، اللحز : الضيق الصدر . الشحيح : البخيل
الحريص والجمع الأشعة والأشعاء والشحاح والفعل شح يشح والمصدر الشح وهو البخل معه
حرص .

(٥) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٥٤/٢ . الإقواء : الفقر ، أي إذا افتقر زاده الفقر سماحا وبذلا
لما في اليد .

(٦) ديوانه ، ص ٥٣ .

ومن مظاهر الكرم والبخل ما نقرأه في شعر الجاهليين من قصص لوم وعتاب النساء أو الزوجات لأزواجهن على الجود والكرم والإسراف (١) ، لأن النساء أكثر حرصا على المال وأبخل من الرجال على ما يبدو ، وأكثر نفورا من الفقر والحاجة من الرجال .

فزوجة لبيد بن ربيعة - على سبيل المثال - تلومه على فقره وسوء حاله ، وكثيرا ما كانت تلومه .. ولكنه لم يكن مطيعا ..؟ وكأنه يهدد في عزة وعنفوان الشباب .. أن تدع اللوم أو تفارقه .. كما يفارق أحد نصفي الثوب النصف الآخر - عند تمزقه أو إذا أراد هو أن يفرق بين الشقين - ، ثم يهون من الأمر مانحا الخيار لزوجته في الفراق عنه إذا أحبت ذلك ، ثم يعطي رأيه فحسب بأنها ستكون راضية مرضية لو أنه أمسك عليه ماله - كما يفعل البخلاء - ثم يبرر ذهاب ماله وفقره وسوء أحواله بأنه كان كريما جوادا سخيا معطاء . يقول لبيد :

دَعِيَ اللُّومُ أَوْ بَيْنِي كُشِبَقَّ صَدِيعٍ	فَقَدْ لُمْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ غَيْرَ مُطِيعٍ
وَإِنْ كُنْتَ تَهْوِينَ الْفِرَاقَ فَفَارِقِي	لَأَمْرٍ شَتَاتٍ أَوْ لَأَمْرٍ جَمِيعٍ
فَلَوْ أَنْتِ تَمَرَّتْ مَالِي وَنَسَلُهُ	وَأَمْسَكْتُ إِمْسَاكَ كَبْخَلٍ مَنِيعٍ
رَضِيتُ بِأَذْنَى عَيْشِنَا وَحَمْدَتِنَا	إِذَا صَدَرْتُ عَنْ قَارِصٍ وَنَقِيعٍ
وَلَكِنْ مَالِي غَالَهُ كُلُّ جَفَنَةٍ	إِذَا حَانَ وَرْدُ أَسْبَلَتْ بِدُمُوعٍ
وَإِعْطَائِي الْمَوْلَى عَلَى حِينِ فَقْرِهِ	إِذَا قَالَ أَبْصِرْ خَلَّتِي وَخُشُوعِي (٢)

وكانني بالشاعر كبعض الأزواج يرد على لوم وعتاب زوجته له وزجرها ووعيدها وتعييرها له على فقره وسوء حاله ... حتى يطفح الكيل والميزان من شدة اللوم ... فيهددها بالفراق ... فترمقه بنظراتها الحادة ... فيترجع عن رأيه المتصلب ... حتى تهدأ العاصفة في نفسه خاضعا لواقعه وحقيقة أمره فيبدأ بتقديم المبررات لسوء حاله .

(١) ينظر مثلا : ديوان حاتم ، ص ١٠٤، ١١٠ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص ٤٧ . والمفضليات ، ص ٣٥٦، ٣٠ . والأصمعيات ، ص ١٢٧، ١٣٤، ٢٤٦، ٢٤٧ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢١٢/١ ، ٣٥/٢ . والحماسة الشجرية ، ٤٧٧/١ - . وديوان الأسود بن يعفر ، ص ٢٤ تلومه ابنته على الإنفاق .

(٢) شرح ديوانه ، ص ٧٠-٧١ . صديق : ثوب مشقوق بنصفيين . صدرت : يعني الإبل . قارص من اللبن ؛ والقارص الذي قد أخذ الطعم . وحذى : وحذي اللبن يحذيه إذا قرصه . النقيع : الحليب المبرد . غاله : ذهب به .

وكثيرا ما نجد صورة المرأة اللائمة في الشعر الجاهلي ، وموقف الشاعر من هذا اللوم وهو لا يبتعد كثيرا عن موقف ليبيد .

قلنا فيما سبق أن النساء أبخل من الرجال عادة . ولكن هذه القاعدة لا تشمل كل نساء الجاهلية . فنجد من كن أكرم وأجود . فهذه غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي كانت فياضة اليد ، فلا تبقي شيئا ، فبددت ثروتها على السائلين والضيوف ، فحجر إختها عليها مالها ، حتى إذا وجدت ألم الفقر أعطوها طائفة من إيلها ، فجاعتها امرأة تسألها فقالت لها :
دونك هذه الإبل فخذها ، فوالله لقد عضني الجوع ما لا أضيع معه سائلا وقالت في ذلك شعرا ، من هذا الشعر :

لَعَمْرَكَ قَدَمًا عَضَّنِي الْجُوعُ عَضَّةً فَأَلَيْتُ أَنْ لَا أَمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعًا
فَقُولَا لِهَذَا اللَّائِمِ الْيَوْمَ أُعْفِنِي وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَعُضَّ الْأَصَابِعَا (١)

فلسفة الجاهليين في الكرم

نقرأ في الشعر الجاهلي دوافع الكرم والبذل والعطاء ، ونجد من يعلل سبب كرمه وعطائه وسخائه .

فهم يكرمون ويجودون لحماية العرض والحسب (٢) ، ويبذلون الغالي والنفيس من أموالهم صونا لأعراضهم وأحسابهم . يقول حاتم الطائي :

دَرِينِي يَكُنْ مَالِي لِعِرْضِي جَنَّةً يَبْقِي الْمَالُ عِرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا (٣)
ويقول المتقرب العبدى :

أَجْعَلُ الْمَالَ لِعِرْضِي جَنَّةً إِنَّ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَدَّى الذَّمَّ (٤)

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، ص ٩١ .

(٢) ينظر مثلا ديوان حاتم ، ص ١٠٢، ١٠٦ . وديوان قيس بن الخطيم ، ص ٢٠٠ . والمفضليات ، ص ٢٩٥ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٥٩/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٧٤ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٣٣ .

ويكرمون لا بتناء المجد والسؤدد (١) ، ومن أجل الشهرة والذكر الحسن (٢) والخوف من مذمات الناس (٣) ، فالبخيل يتبعه سوء النشاء ويخله يزري به وبأهله (٤) . يقول حاتم مثلاً :
 أَمْوَالِي إِنْ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ (٥)
 وحاتم يكرم أيضاً لأنه يخاف مذمات الأحاديث من بعده (٦) :
 ولأن النشاء هو الخلود وفيه السعادة والسرور لذلك يبرر الحادة الإحسان بقوله :
 فَأَتَشْوَا عَلَيْنَا لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ بِإِحْسَانِنَا إِنْ النَّشَاءُ هُوَ الْخُلْدُ (٧)
 ويجودون كذلك بأموالهم لأن المال زائل (٨) وإلا فإنه سيسعد به الوارث ولا يستفيد منه صاحبه (٩) .

ويكرمون لأن الكل ستخترمه المنية يوماً ما ؛ ولأن المال لا ينفع صاحبه إذا جاءت منيته ، ولأن البخيل غير مخلد (١٠) . فالنفوس تقنى وكذلك الأموال ، يقول زهير بن أبي سلمى :
 بدا لي أن الناس تقنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر قانياً (١١)
 فالجواد لا يموت من الهزال كما يرى حطائط بن يعفر متحدياً أمه "رهم" أن تريبه جواداً مات هزلاً . يقول مخاطباً أمه وقد لامته على جوده وعاتبته :

-
- (١) ينظر مثلاً : ديوان طرفة ، ص ٦٨ .
 (٢) ينظر مثلاً : ديوان حاتم ، ص ٨٤ . وديوان طرفة ، ص ٩٢ . وديوان الأسود بن يعفر ، ص ٣٥ . وشرح شعر زهير ، ص ١٨٠ . والمفضليات ، ص ٣٧١ ، ٤٠١ ، ١٢٧ ، ٢٤٠ . والأصمعيات ، ص ٢٥٨ .
 (٣) مثلاً : ديوان حاتم ، ص ١٠٤ ، ٩٩ . وشرح شعر زهير ، ص ١١٩ .
 (٤) مثلاً : ديوان عدي بن زيد العبادي ، ص ١٠٧ - ١٠٨ . وديوان حاتم ، ص ١٠٤ . والحماسة الشجرية ، ٤٧٧/١ .
 (٥) ديوانه ، ص ٨٣ .
 (٦) ينظر ديوانه ، ص ٧٧ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢/٢٤٥ .
 (٧) ديوان شعر الحادة ، ص ٣٣١ .
 (٨) ينظر مثلاً ديوان حاتم ، ص ١٢٢ ، ٧٢ .
 (٩) ينظر مثلاً السابق ، ص ١٠١ . وديوان عدي بن زيد ، ص ١٠٣ .
 (١٠) ينظر مثلاً ديوان حاتم ، ص ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٣ . وديوان علقمة الفحل ، ص ٦٤ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢/٢٤٣ .
 (١١) شرح شعره ، ص ٢٠٧ .

أَرِينِي جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لَعَلَّنِي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلًا مَخْلَداً (١)

يتبين لنا مما سبق من فلسفة الجاهليين للكرم ودوافعهم للجود ، أنهم يكرمون ويجودون حفاظاً على أعراضهم وأحسابهم وأنسابهم ، ولبناء أمجادهم ومفاخرهم ، ومن أجل الشهرة والذكر الحسن والخوف من مذمات الناس ، ولأن المال زائل وكذلك النفوس ، والبخيل غير مخلد ، كما رأينا ذلك في بعض أشعارهم التي اقتبسنا منها القليل .

وإذا كانت هذه أكثر دوافعهم للكرم والجود والعطاء ، فأين الإنسانية البحتة في كرمهم ؟ ألم يجودوا بمالهم على الفقراء والمحتاجين والمعوزين من أجل المساعدة والعون وشفقة عليهم من قسوة الظروف ؟ أم أن ثمة دوافع أقوى تكمن خلف هذا الكرم ؟ ولماذا هذا الحرص على الشهرة والذكر الحسن والتناء في الأشعار ؟ .

كان البعض - بلا شك - ممن يجودون ويكرمون بدافع الإنسانية ، وبدافع الواجب كصلة القرابة مثلاً أو الواجب القبلي أو الاجتماعي . ولكن الكثرة الكثيرة تحرص كل الحرص على أن تتسامع القبائل عن كرمهم ، فهم يتفاخرون ويتمدحون . فلماذا هذا الحرص على الذكر الجميل والشهرة بين الناس ؟ .

يقول بعض الباحثين : إن مبدأ الضيافة عند العرب كان يخفف إلى حد ما شر الغزو الذي خيم على الجزيرة العربية وجفاف الصحراء وقسوتها . وإن الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة أنشأ فيهم الإحساس بحاجة ماسة مقدسة إلى الضيافة (٢) . ويشير بعضهم إلى أن صفة الكرم "مبعثها حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال" (٣) . ويقول آخر إن العرب في الجاهلية "يكرمون لأنهم يحيون في بادية شحيحة بالزاد . وحياتهم ترحال وتجوال ، فهم سوف يضطرون إلى أن يضافوا في يوم من الأيام" (٤) . ويلخص آخر رأيه بقوله : "فالبدوي في تلك البيئة التي لا تستقر على حال فترة طويلة ، جعلته كريماً يوقد النار ليلاً للضيف ليراها فيقبل نحوها ، وهو الذي يبيع كل ما هو ملك لغيره .

-
- (١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٢٤٣/٢ . والبيت منسوب لحاتم الطائي في ديوانه ، ص ٧٤ .
يرد حاتم على عاذلته التي قالت له أن عليه أن يمسك ماله فالمال عند صاحبه معبد .
(٢) تاريخ العرب مطول ، فيليب حتي ، ٣٢/١ .
(٣) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٦٨ .
(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص ٣٠٨ .

وهذا ما جعل هذا التصرف يبدو متناقضا مع تصرفه الثاني ، ولكنه في الحقيقة عندما يكرم وهو حر لا يجبره أحد على ذلك ، "ولأنه يعتقد أنه لا بد يوما أن تقوده رحلته إلى مكان قفر فيجد من يكرمه ، ولأنه عندما يكرم يجعله مشهورا في المجتمع القبلي ، تتسامع به القبائل ، ويتغنى به الشعراء" (١) .

ويرى محمد النويهي أن السبب الاقتصادي هو السبب الأساسي في إيجاد الكرم الجاهلي وإجلاله . فالحياة البدوية المتقلبة والاعتماد على المطر ، وثمة ثراء يقوم على إرشاد القوافل التجارية التي تتحول مرارا عن الطرق فيفتقرون في أية لحظة . فالكرم وسيلة للاحتياط من هذا التقلب .. أو هو نوع من ضمان المستقبل (٢) .

فالكرم كان فضيلة أو قيمة اجتماعية ولم يكن فضيلة نفسية أي أنه لم يكن نابعا من نفس خالصة لأجل الكرم ، ولكن كان من أجل الفخر والحسب والنسب إلا عند البعض كزهير مثلا .

والكرم الجاهلي في معظمه من منظور الفائدة المادية على النفس ، والإحسان والتفضل للشهرة والذي نهى عنه فيما بعد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . (٣)

فمهما يكن ، فالكرم مبعثه البيئة المتقلبة بين الخصب والجذب والغنى والفقر . والجاهلي يكرم في أكثر الأحوال مندفعاً من خوفه من ظاهرة الفقر الشخصي والبيئي .

(١) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عيد الرحمن ، ص ٥١ .

(٢) الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، ٢٣٥/١ .

(٣) السابق ، ٢٣٦/١ .

الفصل الرابع

صورة الفقراء في الشعر الجاهلي

الفصل الرابع

صورة الفقراء في الشعر الجاهلي

-١-

ثمة الفقير الأشعث المتغير اللون والهيئة من الجوع والهزال يلبس الأثواب البالية . فهو "ذي طمرين طملال" (١) ، "وَمَهْتَكْ بِأَلِي الدَّرِيسَيْنِ عَائِلُ" (٢) . وجاء في لسان العرب في معنى الطَّمَلال والطَّمَل والطَّمْلِيل والطَّمْلُول : الفقير السيء الحال القشف القبيح الهيئة الأغبر ، وقيل هو العاري من الثياب ، وأكثر من يوصف به القانص (٣) . وجاء في معنى العائل وكذلك العيل : الفقير ، والعالة : الفقراء . وعال : افتقر واحتاج ، والاسم العيلة ، والعيلة والعالة : الفاقة ، يقال : عال يعيل عيلة وعيولا إذا افتقر ... قال أحبحة ابن الجلاح :

وما يَنْدِرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وما يَنْدِرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْيلُ (٤)

ونرى المرأة الفقيرة سملة الهدم بالية الثياب ضعيفة ، بدت وتعت عروق ساعديها ، وهي تصمت ابنها السيء الغذاء بالماء ، لأنه ليس لديها لبن من شدة الضر . يقول بشر بن أبي خازم :

وَذَاتُ هِدْمٍ بَادٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوَلِبًا جَدْعًا (٥)

والمرأة الفقيرة والمسكينة الضعيفة تلبس الثياب القصيرة البالية لشدة فقرها ، فهي تشبه البلية في قلة تصريحها وعجزها عن الكسب وامتناع الرزق منها . وهي تشبه الناقة التي تخلف في السفر لفرط هزالها ، فتري هذه الفقيرة تأوي إلى أطناب البيت . يقول ليبد بن ربعة العامري في معلقته :

(١) ديوان أوس بن حجر ، ص ١٠٣ . الطمر : الثوب البالي .

(٢) ديوان الهذليين ، ١٤٩/٢ . الدريس : الثوبان الخلقان .

(٣) مادة "طمل" .

(٤) مادة "عيل" .

(٥) ديوانه ، ص ١٢٧ . والبيت أيضا لأوس بن حجر في ديوانه ، ص ٥٥ مع تغيير في لفظة "باد" فهي عند أوس "عار" . والتولب في الأصل ولد الحمار ، واستعاره لولد هذه المرأة . جدع : سيء الغذاء .

تَأْوِي إِلَى الْأَطْنَابِ كُلِّ رَذِيَّةٍ مِثْلُ الْبَلِيَّةِ قَالَصِ أَهْدَامُهَا (١)
ويقولُ الْجُمَيْحُ الْأَسَدِي فِي الرَّثَاءِ :

أَوْ مَنْ لِأَشْعَثَ بَعْلٍ أَرْمَلَةٍ مِثْلُ الْبَلِيَّةِ سَمَلَةٍ الْهَدْمِ (٢)

ونجد المرأة سوداء المعاصم من الجهد والجذب والهزال ، فلم تلبس قفازين على يديها ، ولم تصن نفسها من شدة البرد والجوع وحضور النيران إذا حضرتها تصطلي . يقول عروة بن الورد في مخاطبة عاذلة :

أَبَى الْخَفَضُ مَنْ يَغْشَاكَ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ وَمِنْ كُلِّ سَوْدَاءٍ الْمَعَاصِمِ تَعْتَرِي (٣)

والفقراء لشدة فقرهم وحاجتهم الشديدة لمعونة غيرهم وصفهم أوس بن حجر بالأموات ، يقول أوس في الرثاء :

الْمُطْعِمُ الْحَيِّ وَالْأَمْوَاتِ إِنْ نَزَلُوا شَحْمَ السَّنَامِ مِنَ الْكُومِ الْمَقَاحِدِ (٤)

فمن الفقراء في الشعر الجاهلي :

١- الضريك

الضريك : الفقير اليبس الهالك سوء حال ، والأنثى ضريكة . قال الأصمعي : الضريك الضرير ، وهو أيضا الفقير الجائع والضرائك جمع ضريك وهو الفقير السيء الحال . وقيل الهزيل (٥) .

فالضريك فقير محتاج هزيل لسوء حاله وظروفه . يقول الأعشى :

فَيَفْجَعَنَّ ذَا الْمَالِ الْكَثِيرِ بِمَالِهِ وَطَوْرًا يَقْنَيْنَ الضَّرِيكَ فَيُلْحَقُ (٦)

(١) شرح ديوانه ، ص ٣١٩ . وشرح المعلقات السبع ، ص ٩٨ .

(٢) المفضليات ، ص ٣٦٨ .

(٣) ديوانه ، ص ٦٩ . وفي الأصمعيات ، ص ٣٨ . والمعنى : أبى هذا الذي تريد من خفض العيش ، والدعة من يطرقك من ذي قرابة يأتونني فيسألونني . وأبى أيضا من يعتريك من الفقراء فإن قعدت عن الطلب لم يكن عندك ما تقرين به ضيفا ولا تصلين به قرابة .

(٤) ديوانه ، ص ٢٥ . الكوم جمع كوماً وهي الناقة السمينة . المقاحيد جمع مقحاد وهي الناقة العظيمة السنم . ووسمهم شاعر آخر بـ "الهالك" في ديوان الحماسة ، ١٥٤/٢ .

(٥) من لسان العرب لابن منظور مادة "ضرك" .

(٦) ديوانه ، ص ٢٧٣ . يقنين : يغنين ، من قنا . يلحق أي يلحق بذى الغنى .

وقد يكون للضريك شيء من مال أو إيل (١) ولكنه يظل من زمرة المحتاجين والفقراء .
 وثمة صورة لهذا الضريك الفقير من شعر ساعدة بن جوية الهذلي ، عندما شبه حبه لـ "نعم"
 مثل حب الضريك لتلاد المال ؛ هذا الضريك فقره قطع عنه الخير قطعاً ، فلم يجد له ملجأ عند
 الناس ، وهو خال من مبارك الإبل ، ذو خلقين ، مهزول ، إذا نظرت إليه قلت : قد فتح فاه
 للموت ، وهو أنفر من حمار الوحش ، في قوائمه اتساع ، ما يزال يحيي ليلته يسير . يقول
 ساعدة :

إِنِّي لَأَهْوَاكَ حَقًّا غَيْرَ مَا كَذِبُ وَلَوْ نَأَيْتُ سَوَانَا فِي النَّوَى حَجَجَا
 حُبَّ الضَّرِيكِ تِلَادُ الْمَالِ زَرَفُهُ فَقَرُّ وَلَمْ يَتَّخِذْ فِي النَّاسِ مُلْتَحَجَا
 صِفْرِ الْمَبَاءَةِ ذِي هِرْسَيْنِ مُنْعَجِفٍ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ قَدْ فَرَجَا
 أُنَدُّ مِنْ قَارِبِ رُوحِ قَوَائِمِهِ صَمَّ حَوَافِرُهُ مَا يَفْتَأُ الدَّلَجَا (٢)

ولفقر هذا الضريك وحاجته ، نجد التمدح والتفاخر في الشعر الجاهلي بمن يساعده ويعينه على
 قضاء حاجته ، ويجد له مأوى ، كما يقول قيس بن الخطيم في جواد كريم :
 مَأْوَى الضَّرِيكِ إِذَا الرِّيحُ تَتَاوَحَّتْ ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مُخْلِيفٌ مُتَلَاغٍ (٣)
 ويقول ربعة بن مقروم في الفخر :

وَيَسْعُدُ بِي الضَّرِيكِ إِذَا اعْتَرَانِي وَيَكْرَهُ جَانِبِي الْبَطْلُ الشَّجَاعُ (٤)

وكان قتادة بن مسلمة أحد أجواد العرب وقد لقب بغيث الضريك ، وضرب به المثل فقليل
 "أقرى من غيث الضريك" ، وقد مدحه طرفة بن العبد في إحدى قصائده ، وكان قد أصاب قومه
 سنة ، فأتوه ، فبذل لهم (٥) .
 ونجد في شعر الرثاء أن المرثي يكون مأوى للضريك الفقير المحتاج ، ويمنحه عطاياه
 دائماً (٦) .

(١) ينظر ديوان الهذليين ، ٦١/٢ .

(٢) ديوان الهذليين ، ٢٠٨/٢-٢٠٩ . نأيت سوانا : أي عند غيرنا . النوى : النية وهو الوجه
 الذي تريده .

(٣) ديوانه ، ص ٢٣٧ . الدسيعة : العطية .

(٤) المفضليات ، ص ١٨٦ .

(٥) ينظر ديوان طرفة بن العبد ، ص ١١٨-١١٩ . ومقدمة ديوان حاتم الطائي ، ص ٣٧ .

(٦) ينظر شرح ديوان لبید ، ص ١٦٤ . ديوان الخنساء ، ص ٨، ٦٤ .

٢- القرضوب

جاء في لسان العرب من مادة "قرضب" : القرضية : شدة القطع . قرضب الشيء ، ولهذه : قطعه ، وبه سمي اللصوص لهاذمة وقراضية ... وسيف قُرْضُوب وقِرْضاب ومُقْرَضِب ، قطاع . والقُرْضوب والقِرْضاب : اللص والجمع القراضية . والقُرْضوب والقِرْضاب أيضا : الفقير . والقراضية : الصعاليك ، واحدهم قرضوب . والقُرْضوب والقِرْضاب والقِرْضابية والقِرْضاب والمُقْرَضِب : الذي لا يدع شيئا إلا أكله ... وقُرْضَب الرجل إذا أكل شيئا يابساً فهو قِرْضَاب .

فالقرضوب الفقير واللص والصعلوك ، من الفقراء جميعا .

يقول المرقش الأكبر ، ينعت جيش ملك من آل جفنة وفنكة ببعض القبائل العربية :

حَارَبَ وَاسْتَعْوَى قَرَاضِبَةً لَيْسَ لَهُمْ مِمَّا يُحَارَزُ نَعَمْ (١)

كما يشير الحارث بن حلزة الشكري في معلقته إلى القراضية كالعقبان عندما تجمعت في الحروب والغارات لرجل وصفه الشاعر بالقوة والشجاعة :

فَقَاتَوَتْ لَهُ قَرَاضِبَةٌ مِّنْ كُلِّ حَيٍّ كَأَنَّهُمْ أَلْقَاءُ (٢)

ونجد من يتمدح ويفتخر بإيواء القرضوب لفقره وحاجته . يقول سلامة بن جندل :

قَوْمٌ إِذَا صَرَّحْتَ كَحَلِّ بَيُّوتِهِمْ عِزُّ الدَّلِيلِ وَمَأْوَى كُلِّ قُرْضُوبٍ (٣)

ونجد من يكون حديبا على المولى الضريك المحتاج ويساعد القرضوب الفقير والمحتاجين (٤) .

٣- المعصب

المعصب ، يقال للرجل الجائع ، يشتد عليه سخفة الجوع ، فيعصب بطنه بحجرا . والمعصب : الذي عصبته السنون أي أكلت ماله . وعصبتهم السنون : أجاعتهم . وعَصَبَ الدهر ماله : أهلكه . ورجل معصب : فقير . من يوم عصيب شديد : وقيل هو الشديد الحر . وليلة عصيب . وعصب القوم أمر يعصبهم عسبا إذا ضمهم واشتد عليهم .. (٥)

(١) المفضليات ، ص ٢٣٩ . استعوى : استدعى واستنصر . النعم : الإبل .

(٢) شرح المعلقات السبع لسوزني ، ص ١٣٨ . وجاء في شرح القراضية : القرضوب والقِرْضاب اللص الخبيث .

(٣) ديوانه ، ص ١١٧ .

(٤) ينظر شرح شعر زهير ، ص ٧٩ . والمفضليات ، ص ٣٤١ .

(٥) لسان العرب مادة "عصب" .

فالمعصب هو نفسه الفقير المحتاج يعصب بطنه بحجر أو بالخرق إذا اشتد عليه الجوع .
يقول بشر بن أبي خازم في المدح :
بحرٍ يفيضُ لمنْ أَنَاخَ بَبَابِهِ مِنْ سَائِلٍ وَثِمَالٍ كُلِّ مُعَصَّبٍ (١)

والمعصب الفقير المحتاج يعصب رأسه (٢) ورجليه بالخرق للجهد ، عليه ثياب مشدودة بعضها إلى بعض كما جاء في شرح الطوسي لبیت من قصيدة للبيد بن ربيعة العامري في الرثاء ، يتحدث لبيد فيها عن النوق والإبل :
وَقَدْ كَانَ الْمُعَصَّبُ يَعْتَفِيهَا وَتَحَبَّسَ عِنْدَ غَايَاتِ الذَّمَامِ (٣)

لذلك نرى من يرثي قومه متمدحا بأنهم كانوا خير قوم لهذا الفقير الذي يعصب بطنه بالحجر من الجوع . يقول عبيد بن الأبرص يبكي على قومه الماضين :
أَيَّامُ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ سَوْقَةٍ لِمُعَصَّبٍ وَلِبَائِسٍ وَلِعَانِي (٤)

٤- الْمُجَرَّفُ

جاء في لسان العرب ، الجرف : الأخذ الكثير الجارف : شؤم أو بلية تجترف مال القوم . والجارف الموت العام يجرف مال القوم . ورجل مجرّف ومجرّف مهزول . وكبش متجرف : ذهب عامة سمته . وجرف النبات : أكل عن آخره . وجرف في ماله جُرْفَةً إذا ذهب منه شيء . والمجرّف والمجّارف : الفقير ورجل مجرّف : قد جرفه الدهر أي اجتاح ماله وأفقره (٥) .

فالمجرّف بهذا المعنى كان ذا مال ذهبت به الخطوب والأحداث المهلكة للأموال المهزلة لأصحابها .

-
- (١) ديوانه ، ص ٣٨ . الشمال : الملجأ والغياث والمطعم في الشدة .
(٢) ينظر ديوان الحارث بن حلزة ، ص ١٩ .
(٣) شرح ديوانه ، ص ٢٠٣ . يعتفياها : يأتيها يطلب خيرها . غايات الذمام : يريد ما يلزمه من الحياء والتكريم .
(٤) ديوانه ، ص ١٤٨ .
(٥) مادة "جرف" .

فهذا زهير بن أبي سلمى - إذا ما ذهبت بأمواله الجوارف مرة - تكفل بحاجته ابن سنان ،
فيقول مادحا :

إِذَا جَرَّفْتُ مَالِي الْجَوَارِفُ مَرَّةً تَضَمَّنَ رِسْلًا حَاجَتِي ابْنُ سِنَانٍ (١)

ونرى أن هذا الفقير كان كريما ولكن أصابته خطوب جرفت ماله وأهزلته ، لذلك نرى عروة بن
الورد يعطف ويوجد عليه ويكرمه أشد الكرم حتى يفتقر عروة نفسه من جوده على هذا المجرف
الفقير الأعرج أبي العيال الصغار (٢) .

والأشعث المتجرف الذي جرفت السنون ماله يأوي إلى القوم زمن الشدة والبرد . يصرح
بذلك طرفة بن العبد مفتخرا بأن هذا الأشعث يأوي إلى قومه :

تَبَيَّتْ إِمَاءَ الْحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثُ الْمُتَجَرِّفُ (٣)

وهذا عمرو بن الأهتم يوصي ابنه بالأشعث الذي أذهبت ماله مصيبة نزلت به مرة بعد
مرة (٤) .

٥- المخذول

الخذل ترك الإعانة والنصرة . والخاذل : ضد الناصر . خذله وخذل عنه يَخْذُلُهُ خَذْلًا
وخذلانا : ترك نصرته وعونه ... والمخذول الذي تركه قومه ولم ينصروه ... وتخاذلت رجلا
الشيخ : ضعفتا ... ورجل خذل الرجل : تخذله رجله من ضعف أو عاهة أو سكر (٥) .
فالخذل يكون لسبب ما كالضعف مثلا أو للفقر والحاجة . لذا نجد من يفتخر بمساعدة
المخذول الفقير الذليل الذي غاب عنه الأقربون . يقول في ذلك طرفة بن العبد مفتخرا :

وَالْمَجْدُ نَنْمِيهِ وَنَنْتَلِيهِ	وَالْحَمْدُ فِي الْأَكْفَاءِ نَدْخِرُهُ
نَعْفُو كَمَا نَعْفُو الْجِيَادُ عَلَى	الْعَلَاتِ وَالْمَخْذُولُ لَا نَذُرُهُ
إِنْ غَابَ عَنْهُ الْأَقْرَبُونَ وَلَمْ	يُصْبَحْ بِرَيْقِ مَائِهِ شَجَرُهُ
إِنَّ التَّبَالِيَّ فِي الْحَيَاةِ وَلَا	يُغْنِي نَوَائِبَ مَا جِدَّ عَذْرُهُ

(١) شرح شعر زهير ، ص ٢٦٩ . رسلا : على هيئته .

(٢) ينظر في ذلك شعر لعروة بن الورد في ديوانه ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٣) ديوانه ، ص ٩٨ .

(٤) ينظر في ذلك شعره في المفضليات ، ص ٤١٠ .

(٥) لسان العرب مادة "خذل" .

كل امرئ فيما أَلَمَّ بِهِ يَوْمًا يُبَيِّنُ مِنَ الْغِنَى فَقْرُهُ (١)

٦- المدفع

جاء في لسان العرب : الدفع : الإزالة بقوة . وَدَفَعَهُ يَدْفَعُهُ دَفْعًا وَدَفَاعًا وَدَفَعَهُ فاندفع ووتدفع وتَدَفَّع وتَدَافَعوا الشيء دَفَعَهُ كُلُّ واحدٍ منهم عن صاحبه وَالْمُدْفَعُ وَالْمَتَدَفِّعُ : المحقور الذي لَا يُضَيَّفُ إن استضاف ولا يُجَدَى إن استجدى ، وقيل : هو الضيف الذي يتدافعه الحي ، وقيل : هو الفقير الذليل لأن كلا يدفعه عن نفسه .. (٢) .

وفي الشعر الجاهلي نعرث على صورة للمدفع الفقير الذي برته السنون وأهزلته الخطوب (٣) لذلك فهم يفتخرون ويتمدحون بالعطف عليه ومساعدته والأخذ بيده . وثمة من يفتخر باستضافة المدفع عندما لا يضيفه أحد لشدة حال الناس وما هم فيه من الجهد . وذلك في فصل الشتاء . يقول لبيد بن ربيعة مفتخرا :

وَإِذَا شَتَوْنَا عَادَتْ عَلَى جِيرَانِهِمْ
رُجَحَ تَوْفِّيْهَا مَرَابِعَ كُومٍ
لَا يَجْتَوِيهَا ضَيْفُهُمْ وَفَقِيرُهُمْ
وَمُدْفَعُ طَرَقِ النَّبُوحِ يَتِيمٌ (٤)

٧- الضعفاء

كان المجتمع الجاهلي - لاعتماده على القوة في الغالب - لم يكن لضعيف البنية هزيل الجسم حظ في الرزق كما ينبغي . ونستدل على ذلك من الشعر الجاهلي ، وكيف أن الضعفاء كانت تحل عليهم الشفقة والحنية والمساعدة ، فكان العطف على الضعفاء مدعاة للتفاخر

(١) ديوانه ، ص ٩٢ . ننميه : نرفعه . نتلده : نجعله تالدا ونورثه أولادنا . نعفو : نعطي دون مسألة . تعفو الجياد : تسرع الخيل دون زجر ولا ركض بالأرجل . على العلات : أراد مهما كنا في ضيق وفقر . ريق كل شيء : أوله . وقوله لم يصبح شجره بريق مائه : أي إذا افتقر وذل . التبالي : المبالاة والإهتمام . العذر الواحدة عذرة : ما يعتذر به .

(٢) مادة "دفع" .

(٣) ينظر في ذلك ديوان الأسود بن يعفر ، ص ٥٤ .

(٤) شرح ديوانه ، ص ١٣٦ . رجح : جفان عظام تقال . توفئها : تملؤها . مراتع : اللواتي نتجن في الربيع . كوم عظام الأسنمة مفردها كوما . يجتويها : يكرها . النبوح : الأحياء قال الأصمعي هي ضجة الناس والحي وأصواتهم .

والتمدح (١) . ونجد من يفخر بأنه لا يرهب الهزال والضعف لعلو همته قويا وضعيفا (٢) . مع
أننا نجد من يشكو من الهزال والضعف بسبب الخطوب والمصائب (٣) .
ولهوان الضعيف وقلة حيلته وعجزه وفقره نجد من يوصي امرأة بأن لا تقترن بضعيف
عاجز (٤) .

ونجد في جانب من الشعر الجاهلي التمدح بالعطف والشفقة على الضعيف الفقير . يقول
حسان بن ثابت في مدح آل جفنة ملوك الشام :

الْمَلْحَقِينَ فَقِيرُهُمْ بَغْنِيَهُمْ وَالْمُشْفِقِينَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمُرْمِلِ (٥)

ويقول امرؤ القيس في بيتين من الشعر يرثي فيهما الحارث بن حبيب السلمي وكان خرج معه
إلى الشام بأنه كان أبا رحيمًا يعطف على الأيتام والضعاف الهزلي .. ويحل مشاكل الضعفاء :

ثَوَى عِنْدَ الْوُدِيَّةِ جَوْفَ بُصْرَى أَبُو الْإِيْتَامِ وَالْكَلَّ الْعِجَافِ
فَمَنْ يَحْمِي الْمُضَافَ إِذَا دَعَاهُ وَيَحْمِلُ خُطَّةَ الْأَنْسِ الضَّعَافِ (٦)

ويقول الحادرة مفتخرا ومخاطبا سمية :

إِذَا لَا يَدْنَسْنَا الشَّتَاءَ وَلَا نَطَأُ الضَّعِيفَ إِرَادَةَ الْأَكْلِ (٧)

ونجد صورة مغايرة بعض الشيء في شعر السموأل بن عادياض للضعيف الدقيق عند دعوة
الشاعر إلى القناعة والرضا . فالأرزاق لا تجري على القوة والاجتهاد وإنما يصرفها الخالق
بقضائه وإرادته . يقول السموأل من ذلك :

لَيْسَ يُعْطَى الْقَوِيُّ فَضْلاً مِنَ الرِّزِّ قِ وَلَا يُحْزَمُ الضَّعِيفُ الشَّخِيتِ

-
- (١) ينظر مثلاً ديوان حاتم الطائي ، ص ٩٣ .
 - (٢) ينظر مثلاً الحماسة البصرية ، ٥٨٨/١ .
 - (٣) ينظر مثلاً شرح ديوان لبید ، ص ١٠٠ .
 - (٤) ينظر في ديوان الحماسة ، ١٣١/١ .
 - (٥) الحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ .
 - (٦) ديوانه ، ص ١٣٢ . ثوى : مات . الودية وجوف بصرى موضعان في الشام . الخطبة :
 - الأمر المشكل . الأنس : الناس ، الجماعة الكثيرة .
 - (٧) ديوان شعره ، ص ٣٤١ .

بَلْ لِكُلِّ مِنْ رِزْقِهِ مَا قَضَى اللَّهُ وَإِنْ حَزَّ أَنْفَهُ الْمُسْتَمِيتُ (١)

٨- كبير السن

إذا لازم الفقر بعض الضعفاء فإنه قد لازم بعض كبار السن أيضا . لأنه في الكبر والتقدم في العمر عجز جسمي ونحول وهزال وانحناء في الظهر ، فيصعب من هي حاله هكذا أن يطلب الرزق كما لو كان شابا . فيشتد فقر كبير السن إذا لم يجد معيناً من صلبه أو من ذوي قربه .

ف نجد من يشكو - من كبار السن - من ابتعاد ابنه عنه وجفوته له وخيانتة لأبيه في وقت كبره وهو أحوج إلى معين في هذا الوقت (٢) خصوصا إذا كان كبيرا محني الظهر ذا عيال (٣) .

ونجد من الشعراء الجاهليين من يذم الشيب ويشكو الكبر والشيخوخة (٤) . فالشيب عار (٥) وهم وشقاء (٦) . والنساء لا يحببن الكبير ذا الشيب (٧) بل يرغبن الغني الشاب (٨) ويبتعدن عنه إذا ما كبر وشاخ (٩) .

يقول عبيد بن الأبرص يخاطب عرسه التي تلومه على كبره وقلة ماله :

زَعَمْتَ أَنَّي كَبُرْتُ وَأَنِّي قَلَّ مَالِي وَضَنَّ عَنِّي الْمَوَالِي (١٠)

(١) ديوانه ، ص ٨٢ . وينظر البيتان في الأصمعيات ، ص ٨٦ ، مع اختلاف في الرواية . وإن حَزَّ أي لو استمات في سبيل طلبه .

(٢) ينظر شعر في ذلك ديوان الحماسة ، ٣٨٩/٢ .

(٣) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص ١٥٦ .

(٤) ينظر السابق ، ص ٣٤ .

(٥) ينظر ديوان عبيد ، ص ٢٤ .

(٦) ينظر ديوان عدي بن زيد ، ص ١١٣ ، ١٢٣ .

(٧) ينظر ديوان علقمة الفحل ، ص ٣٦ . وديوان الحطيئة ، ص ١٧٣ .

(٨) ينظر ديوان ذي الإصبع العدواني ، ص ١٤ .

(٩) ينظر ديوان الأسود بن يعفر ، ص ٥٩ .

(١٠) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ١١٤ . الموالى : أبناء الأعمام .

وعروة بن الورد يصور الكبير في السن : أنه يدب على العصا فيشمت به الأعداء ويسأله أهله ، وهو رهينة قعر البيت لا يبرحه ، منحن كأنه فرخ النعامة يطيف به الولدان ، وهو ضعيف الخطو ، يقول عروة في ذلك من قصيدة له يذكر فيها الغزو ، والطواف أفضل من الجوع والهزال والقعود في البيت كهذا الشيخ :

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنَّ أَدَبَ عَلَى الْعَصَا فَيَشْمَتُ أَعْدَائِي وَيَسْأَمُنِي أَهْلِي
رَهْنَةً قَعْرِ الْبَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ يُطِيفُ بِي الْوِلْدَانُ أَهْدَجَ كَالرَّأْلِ (١)

٩- الضرير

قال ابن منظور في لسانه من مادة "ضرر" ... "والضَّرُّ ، بالضم ، الهزال وسوء الحال .. وكل ما كان من سوء حال وفقر أو شدة في بدن فهو ضرر ، وما كان ضدا للنفع فهو ضرر . والضَّرَاءُ : السنة . والضرارواء : القحط والشدة . والضَّرَّ : سوء الحال وجمعه أَضَرَّ . والضَّرَاءُ نقيض السراء . اختبرنا بالضراء : بالفقر والشدة والعذاب فصبرنا ... والضَّرُّ أيضا هو حال الضرير ، وهو الزمن . والضرء : الزمانة . ورجل ضَرِيرٌ ذاهب بصره . والرجل ضرير : من الضَّرِّ سوء الحال . والضَّرِير : المريض المهزول ، والجمع كالجمع ، والأنثى ضَرِيرَةٌ .

لذلك نجد حاتم الطائي وقومه يهينون الأموال في سني القحط والشدة ، ويكفون حاجة الضرير فلا يشكو هما . يقول حاتم مفتخرا :

وَأَنَا نُهِنُ الْمَالَ فِي غَيْرِ ظَنَّةٍ وَمَا يَشْتَكِينَا فِي السَّنِينَ ضَرِيرُهَا (٢)

وكان الضرير يشكو ويلج إلحاحا بحاجته . وقد شبه بعض الشعراء إلحاح الذئب إلحاحا بحاجته - يريد طعاما يأكله - بشكوى الضرير (٣) .

ونجد هذا الضرير المحتاج هزيلا مريضا قد جفاه بنو عمه وأقاربه ، فهو كالكساء أو الشيء المطروح لا فائدة مرجوة منه . وليس له همة ولا عزم في الأمور ، وتفاجر ربيعة بن مقروم وقومه بإعطائه والتوسعة له في عيشه . يقول ربيعة :

(١) ديوانه ، ص ١١٤ .

(٢) ديوانه ، ص ٩٣ .

(٣) ينظر شعر في ذلك ، الأصمعيات ، ص ٤٥ .

وَأَشَعَتْ قَدْ جَفَا عَنْهُ الْمَوَالِي لَقِيَ كَالْجَلَسِ لَيْسَ بِهِ زَمَاعُ
ضَرِيرٍ قَدْ هَنَأْنَاهُ فَأَمْسَى عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ اتَّسَاعُ (١)

١٠- الغارم

جاء في لسان العرب : غَرِمَ يَغْرِمُ غُرْمًا وَغَرَامَةً ، وَأَغْرَمَهُ وَغَرَّمَهُ ، وَالْغُرْمُ : الدِّينُ .
ورجل غارم : عليه دين . وفي الحديث : لا تحل المسألة إلا لذي غُرْمٍ مَفْطَعُ أي ذي حاجة
لازمة من غرامة منقولة . والغريم الذي له الدين والذي عليه الدين جميعا والجمع غرماء .
والغريمان سواء المغرم والغارم (٢) .

والدين شديد الوطأة على الغارم لأنه يظل مطلوبا لتسديد ما عليه من دين ، فيقع في حزن
وهم كبيرين ، خصوصا إذا لم يكن له من يعينه على تسديد هذا الدين لأصحابه ، وكان الدائن
كثير الإلحاح على المدين ، كثير الترداد عليه .

وكان بعض الشعراء الجاهليين يشبهون طيف المحبوبة بكثرة معاودته في خيال المحب كما
يلح الدائن على المدين لكثرة ترداده عليه . كما يشير إلى ذلك سَلَمَةُ بْنُ الْخُرَشَبِ الْأَنْمَارِيُّ فِي
بداية قصيدته :

تَأَوَّبَهُ خَيَالٌ مِنْ سَلَمَى كَمَا يَعْتَادُ ذَا الدِّينِ الْغَرِيمُ (٣)
وكما يقول زهير بن أبي سلمى :
تَطَالَعْنَا خَيَالَاتٍ لِسَلَمَى كَمَا يَتَطَلَّعُ الدِّينُ الْغَرِيمُ (٤)

لذلك نرى التفاخر بإعطاء القروض وتأجيل أخذها (٥) ، وعدم الإلحاح على الغارم برد
الدين (٦) .

(١) المفضليات ، ص ١٨٧ .

(٢) لسان العرب مادة "غرم" .

(٣) المفضليات ، ص ٣٩ . تأوبه : راجعه . ذو الدين : الذي عليه الدين . الغريم : الذي له
الدين .

(٤) شرح شعره ، ص ١٥٣ .

(٥) ينظر مثلا : شعر لأوس بن حجر في ديوانه ، ص ٢٧ .

(٦) ينظر مثلا : شعر لطرفة بن العبد في ديوانه ، ص ٨٨ .

ويتمدح الشعراء بمن يعين الغارم (١) وبمن يدفع المغارم والديون عن المحتاجين الذين يتقل عليهم الدين . كما ينوه إلى ذلك بشر بن أبي خازم في مدح أوس بن حارثة قائلا :
إلى ماجدٍ أعطى على الحمدِ مالهُ جميلُ المحيَا للمغارمِ دافعُ (٢)

ونراهم أيضا يفخرون بحمل الغرامات والديات وبأداء الحقوق عن غيرهم ، فيدفعون الديات عن المعسر (٣) وينوبون عن قومهم في الحقوق ودفع الغرامات والديات (٤) .
ونجد في شعر الرثاء صورة المرثي الذي يكرم الضيف ويرعى الجار ويتحمل الحقوق ويعطف على الفقير ويحمل الغرم . من ذلك يقول الجميح الأسدي في رثاء نضلة :
يا نَضْلَ للضيفِ الغريبِ وللـ جارِ المضيمِ وحاملِ الغرمِ (٥)

١١- المولى الفقير

للمولى معان متعددة . ويأتي المولى بمعنى الحليف ، وابن العم أو القريب ، والموالي بنوال العم . وقيل للمعتقين الموالى .. (٦) .

فثمة من يعطف على الموالى ويصبر على مصائبهم إذا ضن عليهم ذوو القربى (٧) . ورب قريب خذله أقاربه وجفوا عنه وتحاموه كما يتحامى الناس البعير الأجرب الذي طلي بالقار لما به من الجرب يعطف عليه أحدهم حين لا تعطف الوالدة على ولدها لشدة الزمان وعموم المحل وقلة الدر ، يقول أحدهم في هذا المعنى :

وَمَوْلَى جَفَّتْ عَنْهُ الْمَوَالِي كَأَنَّهُ مِنَ الْبُؤْسِ مَطْلَبِي بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ
رَثِمْتُ إِذَا لَمْ تَرَأْمِ الْبَازِلُ ابْنَهَا وَلَمْ يَكُ فِيهَا لِلْمُبْسِينَ مُحَلَبُ (٨)

(١) ينظر مثلاً ديوان أوس بن حجر ، ص ١٢٥ .

(٢) ديوانه ، ص ١١٤ .

(٣) ينظر مثلاً ديوان الأعشى ، ص ٢٥٣ . والمفضليات ، ص ٣٥٦ .

(٤) ينظر المفضليات ، ص ٣٥٨ .

(٥) المفضليات ، ص ٣٦٨ ، والبيت في الأصمعيات ، ص ٢٥٥ . المضيم : المظلوم .

(٦) لسان العرب مادة "ولي" .

(٧) ينظر في ذلك شعر لعمر بن قميئة في ديوانه ، ص ١٢ .

(٨) ديوان الحماسة ، ٣٠/٢ . والبازل : الناقة التي لها تسع سنين . المبسون الحالبيون المصوتون عند الحلب : بس بس ، لتدر الناقة .

وإذا كان المولى فقيراً محتاجاً ذليلاً سيء الحال ، يفتخر البعض بإعطائه وسد حاجته ، وهذا ما فعله لبيد بن ربيعة ، حتى أنه افتقر لكثرة كرمه وجوده على الضيوف والمحتاجين والموالي الفقراء ، يقول لبيد يرد على اللاتمة التي تلومه على سوء حاله ، بأن ماله قد زال لكرمه وجوده ومساعدته القريب الفقير :

ولكنّ مالي غاله كلّ جفنة ، إذا حان ورد أسبلت بدموع
وإعطائي المولى على حين فقره ، إذا قال أبصر خلتي وخشوعي (١)

وهذا الأعشى يفتخر بقومه بإهانتهم الأموال زمن السوء ، يعطفون على القريب إذا ضن الموسرون وطووا مالهم عن الصديق والقريب ، وكشفت الشدة عن مخبوء الطبائع وعن حقائق الأخلاق ، يكون قومه كذلك إذا :

وإذا ذو الفضول ضنّ على المؤلى وصارت لإخيمها الأخلاق (٢)
لذلك نجد التمدح بصلة الرحم والعطف على الأقرباء وعدم قطعهم (٣) .

١٢- الجار الفقير

عني الجاهليون بمساعدة الجار المحتاج ، وتمدح الشعراء وتفاخروا بعونه وسد حاجاته زمن الجذب والشدة . وهجوا من كان يبيت شعباناً وجاره جائع ، ولو كان هذا الهجاء مخالفاً للواقع ، فهذا الأعشى يهجو علقمة بن علاثة وقومه بقوله :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم ، وجاراتكم غرئى يبيتن خمائصاً
يراقبن من جوع خلال مخافة ، نجوم السماء الطالعات الشواخصاً (٤)

وقد وجد في المجتمع الجاهلي الغني المتخم بالمال والطعام وجاره الفقير الجائع (٥) . فمن هنا افتخر الشعراء وتمدحوا بأن الجيران يألفونهم في الشتاء (٦) ، ويحمدونهم ويبتون

(١) شرح ديوانه ، ص ٧٠-٧١ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٦٣ .

(٣) ينظر السابق ، ص ٢٨٥ . وديوان عروة ، ص ٦٨ . وديوان حاتم ، ص ١٠٤ ، ١١٢ .

(٤) ديوانه ، ص ١٩٩ . وفي البيت الثاني وصف للجارات ، فلا يزلن في جوعهن يترقبن غفلة الحي في الليل وطلوع النجوم ليخرجن فيلتقطن ما يقوتهن .

(٥) ينظر في ذلك ديوان الحماسة ، ١٨/٢ .

(٦) ينظر في ذلك ديوان عبيد ، ص ١٤٩ .

عليهم (١) . وتفاخروا بأنهم عون للجار القريب والغريب والبعيد وهم غيث للجيران يعطونهم ويقربونهم ويؤمنونهم من المصائب (٢) . ويكرمون الجار عند القحط وشدة الزمان وإذا ما هبت الريح الباردة (٣) . وهم نعم مناخ الجار عند الشدة والجوع ، يقول لبيد بن ربيعة من ذلك :
 وَنِعْمَ مُنَاخُ الْجَارِ حَلَّ بَيْتِهِ ،
 إِذَا مَا الْكَعَابُ أَصْبَحَتْ لَمْ تَسْتَرِ (٤)
 فيدفعون هذا الجوع عن جارهم حتى يقوى ويشتد ويصير كالغصن المورق النضير يقول الأعشى متمدحا :

وَالشَّافِعُونَ الْجُوعَ عَنْ جَارِهِمْ °
 حَتَّى يَرَى كَالْغُصْنِ النَّاصِرِ (٥)

ويفتخرون بإطعام ابن جارهم إذا جاع (٦) ، وأن جارتهم لا تجوع (٧) ، فيقومون مقام الأهل والعشيرة للجارة ، لا يطمعون في مالها فيسعون لنكاحها إن كانت ذا ثراء ولا يضيّقون بها فيسلمونها إن كانت فقيرة معدمة ، يشير الأعشى إلى ذلك في مدح سلامة ذا فائش بن يزيد بن مرة الحميري وهو أحد أمراء اليمن بقوله :

وَقَوْمُكَ إِنْ يَضْمَنُوا جَارَةً °
 يَكُونُوا بِمَوْضِعِ أَنْضَادِهَا
 فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا لِلْغِنَى
 وَلَنْ يُسَلِّمُوهَا لِإِزْهَادِهَا (٨)

ويخزي أحدهم - كذلك - إذا بات شعبانا وجاراته جوعى (٩) ، يشير إلى مثل هذا المعنى عدي ابن زيد :

-
- (١) ينظر في ذلك المفضليات ، ص ١٢٠ . وشاعرات العرب .. ، ص ٦٩ .
 (٢) ينظر في ذلك شرح ديوان لبيد ، ص ٣١٨ . وديوان سلامة ، ص ٢٢٦ . وديوان الأسود ، ص ٥٤ .
 (٣) ينظر في ذلك ديوان الأعشى ، ص ٣٥٩ . وشرح ديوان لبيد ، ص ١٠٣ - . وديوان شعر المتقّب العبدى ، ص ٢٢٩ . والمفضليات ، ص ٢٩ . وديوان الحماسة ، ١/ ١٠٨ .
 (٤) شرح ديوانه ، ص ٥٠ .
 (٥) ديوانه ، ص ١٩٥ .
 (٦) ينظر ديوان علقمة ، ص ١٢٦ .
 (٧) ينظر ديوان حاتم ، ص ٩٣ .
 (٨) ديوانه ، ص ١٢٥ .
 (٩) ينظر ديوان حاتم ، ص ١٠١ .

وَبَسَلَ أَنْ أَرَى جَارَاتِ بَيْتِي يَجْعَنْ وَأَنْ أَرَى أَهْلِي شَبَاعاً (١)

وفي شعر الرثاء يكون المرثي للجار المظلوم والمحتاج عوناً وغيثاً ، فمن لهذا الجار بعد موت المرثي (٢) .

١٣- الضيف والمستنبح وابن السبيل

لكثرة التنقل والارتحال في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ثمة من يضل الطريق ، فيسير على غير هدى في صحراء واسعة يكثر فيها الآل والسراب ، فيبتغي الاهتداء لأي شخص أو حي يستضيفه ، أو يهديه السبيل . وأثناء هذه الرحلة قد يتعرض هذا الضال ، الذي يمشي ليله ونهاره ، لأخطار ومشاكل قد تؤدي بماله وزاده ؛ فتراه هزيعاً ضعيفاً فقيراً مضيعاً رث الثياب في بيئة قاسية لا ترحم .

يقول عمرو بن الأهتم في هذا الضيف الأشعث وقد جرفت المصائب ماله :

يُؤُوبَ إِلَيْكَ أَشْعَثَ جَرَفَتُهُ عَوَانَ لَا يَنْهِنُهَا الْفَتُورُ (٣)

لذلك نجد عمرو بن الأهتم يوصي ابنه بإكرام هذا الضيف إذا نزل بأدبار البيوت في الوقت الذي لا يحفظ فيه جار ولا يقرى ضيف لشدة الزمان فيرمى بأكوارهم وراء البيت .

وهذا حسان بن ثابت يصور ضيفاً مقبلاً قام بنحر الكوماء له ، يقول :

وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ مَسْرَبِلٍ أَثْوَابَ مُحَلٍ مُقْفِرٍ
أَوْمَى إِلَى الْكُومَاءِ هَذَا طَارِقٌ نَحَرْتُيَ الْأَعْدَاءَ إِنْ لَمْ تَنْحَرِي (٤)

والضيف قريباً كان أم بعيداً غريب الدار ، من داخل القبيلة أو من خارجها ، قد يجد من يضيفه ويحسن مثواه ويكرمه . فيسعد القوم أو المضيف به إذا اشتد الزمان وعم الجذب في برد الشتاء (٥) . وكان "الإكرام في العام المستن" (٦) .

(١) ذيل ديوانه ، ص ١٤٧ . بسل : حرام .

(٢) ينظر المفضليات ، ص ٣٦٨ .

(٣) المفضليات ، ص ٤١٠ . العوان : التي ليست بأول : يعني مصيبة نزلت مرة بعد مرة . لا ينهنها : لا يردّها . الفتور : السكون .

(٤) شرح ديوان حسان بن ثابت ، ص ٥٦ .

(٥) ينظر في ذلك مثلاً : ديوان سلامة ، ص ٢٢٦ . وشرح ديوان ليبيد ، ص ١٠٣ . وديوان الحماسة ، ١/١٩٩، ٢/٢٥٦، ٢٤٩ .

(٦) البخلاء للجاحظ ، ص ٢٣٠ .

وكان بعض الجاهليين يعطفون ويأخذون بيد الضيف الضعيف (١) الهزيل الفقير (٢) الجائع المحروم (٣) ، وكان البعض يقدمون الضيف على العيال (٤) ، خصوصا عند هبوب رياح الشمال وضمن البخلاء على ضيوفهم فلم يوقدوا النار خوفا من اهتداء الضالين طريقهم إليهم (٥) .

وتفاخر الجاهليون بإكرام الضيف الغريب (٦) البعيد الدار (٧) وتقديم النوق عظيمة السنام لهم إذا نزل بأحدهم (٨) . ونجد من يوصي بإكرام الضيف لأن للضيف حقوقا (٩) . وتراهم يذمون من يبيت عندهم الضيف جائعا محروما من الحليب أو اللبن (١٠) .

ونجد في المجتمع الجاهلي صورة للفقراء الذين يطرقون الأبواب طلبا للمعروف والإحسان (١١) . ويقوم البعض بمساعدة طارق الليل ، فيرحب به ويستقبل استقبالا حسنا (١٢) .

وثمة من يضل طريقه ليلا فينبج أو يعوي للكلاب كي تسمعه فتزد عليه . فيستدل بصوتها على أناس يستضيفهم ، وكان الأعرابي ينجح إذا أراد القرى "وينجح وهو على راحلته" (١٣) وفي الشعر الجاهلي صورة لهذا الأعرابي (١٤) .

(١) ينظر ديوان حاتم ، ٩٣ .

(٢) ينظر ذو الإصبع ، ٩٣ .

(٣) ينظر بشر ، ٢١ . الأسود ، ٥٨ .

(٤) ينظر عامر ، ٧٨ .

(٥) ينظر الحماسة البصرية ، ١/١٢٧، ٣٦٥ . وشاعرات العرب ، ٤٤ .

(٦) ينظر الأعشى ، ١٣٦، ٢٥٣ . والمفضليات ، ٣٦٨ .

(٧) ينظر سلامة ، ٢٢٦ .

(٨) ينظر السموأل ، ٨٨، ٩١ .

(٩) ينظر الأعشى ، ٣٥٩ . وشرح ديوان أمية ، ٢٥ .

(١٠) ينظر الأسود ، ٥٨ .

(١١) ينظر عروة ، ١٨ .

(١٢) ينظر المفضليات ، ٣٢٦ .

(١٣) البخلاء للجاحظ ، ص ٢٣٨ .

(١٤) ينظر ديوان شعر المثلث الضبعي ، ص ٣١٧ .

وفي الشعر الجاهلي صورة لهذا المستبج أو طارق الليل ، جاء يريد المبيت (١) يخشى من الهلاك في الأرض الخالية (٢) وخوفا من البرد الشديد .

يقول عمرو بن الأهتم بن سمي السعدي المنقري في المستبج :

وَمُسْتَبَجٍ بَعْدَ الْهَدْوِ دَعْوَتُهُ وَقَدْ حَانَ مِنْ نَجْمِ الشَّتَاءِ خُفُوُّ
يُعَالَجُ عَزِينًا مِنَ اللَّيْلِ بَارِدًا تَلْفُ رِيَّاحُ ثَوْبِهِ وَبَرُوقُ (٣)

فقام عمرو بالترحيب به واستضافته في أبيات شعر له بلغت عشرة أبيات .

ونجد في جانب من الشعر صورة أخرى للمستبج أو طارق الليل ، فهو يجيء ليلاً وكانت تضربه ريح باردة نكباء من جمادى صرصر ، يكاد رأسه يسقط من مكانه لكثرة تلفته وشدة حيرته وتسمعه للصوت ، أي صوت ، كي يلتجئ لأي شخص يؤويه لأنه ضل الطريق ، وقد وردت صورة هذا المستبج في ديوان الحماسة لأبي تمام . يقول أحد الشعراء في ذلك :

وَمُسْتَبَجٍ تَهْوِي مَسَاقِطُ رَأْسِهِ إِلَى كُلِّ شَخْصٍ فَهُوَ لِلْسَّمْعِ أَصَوْرُ
يُصَفِّقُهُ أَنْفٌ مِنَ الرِّيحِ بَارِدَةٍ وَنَكْبَاءٌ لَيْلٍ مِنْ جُمَادَى وَصَرَصَرُ (٤)

ونجد كذلك في جانب من الشعر الجاهلي صورة المسافرين آخر الليل أو ابن السبيل فقيرا بائسا ، تمدح بعضهم بتقديم العون له ومساعدته . وكانوا يشعلون النار ويرفعونها لعلها تضئء لساير آخر الليل مقتر (٥)

وفي شعر الرثاء كان المرثي يقرئ ابن السبيل ، وكان للمسافر ليلاً خير معين وللغادين بالنهار خير مقبل (٦) .

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ٣٢٩/٢ .

(٢) ينظر المفضليات ، ص ١٧٦ .

(٣) ينظر السابق ، ص ١٢٦ . والنجم هنا الثريا ، وذلك أنها تخفق للغروب جوف الليل في الشتاء . العرنين : الأنف ، والمراد به هنا أول الليل . بروق : إنما اللف للرياح خاصة ، فأتبع البروق الرياح على مجاز الكلام ، كأنه قال : وتلمع له بروق .

(٤) ٢٩٦/٢ . الأصور : المائل . يصفقه أي يضربه . الأنف من الريح أوله . النكباء كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الأربع . جمادى : شهر من شهور الشتاء . الصرصر الريح الباردة . والمراد من البيت الثاني وصف الضيف بما لاقاه من أذى الريح وشدة البرد والمطر ليكون له عذر في استباحه الكلاب وطلبه من ينزل عنده .

(٥) ديوان الحماسة ، ٣٣٧/٢ .

(٦) ينظر السابق ، ٤٤٠/١ .

١٤- الجادي

جاء في لسان العرب في مادة "جدي" : والجادي : السائل العافي .

والعافية والعفاة والعفى : الأضياف وطلاب المعروف ، والعافية : طلاب الرزق من الإنسان والدواب والطير .. والعوافي . والعافي : السائل من عفا يعفو (١) .

يقول حجية بن المضرب في مدح يعفر بن زرعة :

وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ الْبَسِيطَةُ مِثْلَهُمْ لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَّا عُرِفَ الْفَقْرُ (٢)

فالعافي فقير ، وإلّا لما عرف الفقر على رأي حجية .

وكان العفاة أو السائلون كثيرون العدد في العصر الجاهلي ، لا يستهان بهم ، نجد لهم صورة عند الأعشى عندما مدح قيس بن معد يكرب الكندي ، فهم يطوفون بأبواب الممدوح كما يطوف النصراني ببيت الوثن :

يَطُوفُ الْعَفَاءُ بِأَبْوَابِهِ كَطُوفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الْوَثْنِ (٣)

ولا يخفى أمر المتعبد في عبادته كيف يكون متخشعا متضرعا في شيء من الذل والمسكنة .

ويكثر طلاب المعروف والسائلون في الزمن المحل . يقول الحطيئة مادحا :

وَمَنَاخُ الْعَافِينَ فِي الزَّمَنِ الْمَحْ لَ إِذَا أَحْجَرَتْ حَنِينُ الشَّمَالِ (٤)

وسائل الحاجة لا يستهان به ، أيضا ، كونه ينقل أخبار القوم ويذيعها بين الناس ، فإن أكرم وأحسن مثواه ، ونال حاجته ، مدح القوم وأذاع صيتهم بالخير ، وإلا فسوف يشهر بمن يضمن عليه ويمنعه حاجته بالسوء والبخل .

يشير إلى ما سبق عدي بن زيد بقوله :

عَسَى سَائِلٌ فِي حَاجَةٍ إِنْ مَنَعَتْهُ مِنْ الْيَوْمِ سَوْلاً أَنْ يَسُوءَكَ فِي غَدٍ (٥)

فنراهم يعطفون على المستهنئ طالب العطاء والمعتفين طلاب الأرزاق والمعروف (٦) ،

(١) لسان العرب مادة "عفا" .

(٢) الحماسة البصرية ، ٤٥٧/١ . المختبط : طالب المعروف .

(٣) ديوانه ، ص ٧١ .

(٤) ديوانه ، ص ٢٤٤ .

(٥) ديوانه ، ص ١٠٧ .

(٦) ينظر ديوان ذي الإصبع العدوانى ، ص ٧٤ . وديوان عامر ، ص ٧٦ . والمفضليات ،

ص ٢٧٧، ١٨٣ . وديوان الحماسة ، ٢٤٩/٢ .

ويتفاخرون بالميسر لرد جوع العفاة (١) ، وغيث المحوج الجادي * .

وكانوا يكرمون المعتقين وطلاب الفضل والرزق قبل العيال بالسود من الخيل والإبل . يقول عمرو بن قميئة مفتخرا بقومه :

وَهُمْ مَا هُمْ عِنْدَ بَلَكِ الْهَنَاتِ إِذَا زَعَزَعَ الطَّلْحُ رِيحُ الشَّمَالِ
بَدَّهْمُ ضَوَامِينَ لِلْمَعْتَفِ مَنْ أَنْ يَمْنَحُوهُنَّ قَبْلَ الْعِيَالِ (٢)

ونرى العطف على المتسول ذي الكيس يجمع فيه الصدقات من الناس يقربه الأعشى ويعطف عليه ، فقد اعتاد هذا المتسول زيارة قدر الأعشى التي نصبها للمعتقين حتى أصبحت هذه القدر لهذا الشحات الفقير أما رؤوما ، وكان هذا زمن القحط والجذب في فصل الشتاء والبرد . يقول الأعشى في القدر مفتخرا بنفسه :

تَرَى أَنَّ قِدْرِي لَا تَزَالُ كَانَهَا لِذِي الْفَرَوَةِ الْمَقْرُورِ أَمْ يَزُورُهَا (٣)

والفروة الكيس الذي يجمع فيه ما يجمعه هذا المتسول من الناس من الصدقات .

وإذا كان هذا المتسول الذي عطف عليه الأعشى ذا فروة واحدة فثمة متسول مدفع قد أهزلته السنون صاحب فروتين ، عطف عليه الأسود بن يعفر (٤) .

فأي متسول وما قيمته هذا الذي يفتخر الشاعر - الأعشى مثلا - بإطعامه والشفقة عليه ؟!

أظن أن الشاعر لا يقدم على هذا الفخر إلا إذا كان هذا المحتاج الفقير نفرا واحدا من مجموعة كبيرة من المحتاجين والعفاة والفقراء الذين يشكلون ظاهرة لا يستهان بها في المجتمع الجاهلي .

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ٢١٣/١ .

(٢) ديوانه ، ص ٥٨-٥٩ . الهنات : الشرور والفساد والشدائد والأمور العظام . الطلح : أعظم العضاه شجر كثير الورق وأشدّه خضرة وله شوك . ضوامن : ضوامر . العيال : الذي يتكفل بهم الرجل ويعولهم .

(٣) ديوانه ، ص ٤٢١ .

(٤) ينظر ديوانه ، ص ٥٤ .

* ينظر شاعرات العرب ، ص ٧٠ .

فقراء من أصحاب الحرف

١- الصائد

إذا تحدثنا عن الصائد في العصر الجاهلي كما يصوره لنا الشعر الجاهلي ، فإننا نرى غير صنف للصائدين ، باعتبار الغاية من الصيد ؛ فكان البعض يخرج للصيد باعتباره رياضة بدنية يروح عن نفسه كما يفعل الأغنياء ، فكانوا يلاحقون الطرائد بأنفسهم أو بواسطة الخدم والغلمان .. كما تحدث في ذلك امرؤ القيس وطرفة بن العبد .

ولكننا نجد من كانت مهنة الصيد عنده حرفة يعتاش منها ، ولا سبيل رزق له ولعِياله غيرها (١) . فكان البعض يعتمدون في قوتهم على صيد الحيوانات البرية ، وكثيرا ما تندر وتقل هذه الحيوانات ، زمن القحط والمحل ، فمن لهذا الصائد يعوله ويعول عِياله ؟ إذا كان يعتمد الاعتماد الأكبر على حيوانات الصحراء .

فصائد القوت يعد من الفقراء ، لاعتماده الأساسي على الصيد ، ولا حرفة له غيرها ، في تلك البيئة الفقيرة الصحراوية التي يقل عطاؤها ، خصوصا في أوقات الجفاف والمحل ، فيجوع الصائد إذا لم يجد ما يصيده (٢) ، ويجوع أولاده (٣) ، وتجوع زوجته (٤) ، فلا يجد هذا الصائد أمامه إلا الاستجداء وطلب المعونة من الآخرين .

وعدا عن ذلك ، فقد يكون الصائد حاذقا يحقق هدفه من الصيد فيرجع إلى أهله باللحم الطري فرحا بما اصطاد (٥) . وقد يخيب في رحلته الشاقة في مطاردة حيوانات الصحراء ، فيلهف أمه أسفا على سوء حظه (٦) . وكثيرا ما كان الصائد الذي يصوره الشعراء الجاهليون

(١) ينظر : ديوان امرئ القيس ، ص ١٠٣ . والمفضليات ، ص ١٠١-١٠٢ ، ١٨٩ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ١٥٤ . وديوان أوس بن حجر ، ص ٧٠-٧١ . وديوان الأعشى ، ص ٤١٣ .

(٢) ينظر ديوان الأسود بن يعفر ، ص ٤١ .

(٣) ينظر المفضليات ، ص ١٨٩ .

(٤) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ١٥٤ .

(٥) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص ١٠٣ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٣٢٩، ٤١٣ . وديوان أوس ، ص ٧٢ . وديوان عمرو بن قميئة ، ص ١٥٣ . والمفضليات ، ص ١٨٣، ١٨٩ .

في قصائدهم عند حديثهم عن الرحلة وتشبيه الناقة بثور الوحش وبقر الوحش وحمار الوحش وأتانه ، كثيرا ما كان يخيب .

فكان الشعراء الجاهليون يشيرون إلى الصيد في قصائدهم ، ويصفون الصائد غالبا عند حديثهم عن الرحلة على ناقة تشبه الحمار الوحشي أو الثور .. أو البقرة ، فيصفون هذه الحيوانات المشبه بها ، إذ تفاجأ بهذا الصائد المسكين الذي لاحيلة له إلا قوسه وسهامه وحيطته وتربصه بهذه الحيوانات ، ليصطاد منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلا (١) .

وصور الشعراء الصائد الفقير ذا الصبية الشعث والزوجة الفقيرة . وسموا الصائدين أحيانا بأسمائهم ، ووصفوا مطاردتهم لحيوانات الصحراء .

ونجد من الشعراء من خصص قصيدة كاملة في وصف صائد القوت الفقير الذي ليس له حرفة يعتاش منها سوى الصيد (٢) .

ومن الصيادين في العصر الجاهلي قيس أبو عامر (٣) و "صفوان" (٤) و "صائد من بني جلان" (٥) ، وآخر من "جديلة" أو "لحيان" (٦) ، وصائد من "ثعل" (٧) وآخر من بني صباح (٨) .

(١) لمن يريد الإطلاع على صورة الصائد في قصة الثور والبقرة والحمار الوحشية ينظر كتاب "الرحلة في القصيدة الجاهلية" ، وهب رومية ، ص ١١٤ ، - ١١٨ ، - ١٢٨ ، - ١٤٥ ، - ١٤٨ ، - ١٥٠ .

(٢) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص ١٠٣ .

(٣) المفضليات ، ص ١٨٢-١٨٣ .

(٤) السابق ، ص ٥٠ .

(٥) السابق ، ص ١٨٩ .

(٦) ديوان الأعشى ، ص ٢٦٣ .

(٧) السابق ، ص ٤١٣ .

(٨) ينظر المفضليات ، ص ١٠١ .

وكان هذا الصائد "أخو قترات" (١) و "أخو قنص" وأخو ققرة (٢) وكان صاحب كلاب
"مكلب" (٣) ، فليديه "أكلب جسر" (٤) يسعى بها . أو هو "كلاب" (٥) .

وهو "صياد أغبر نحيل" خفيف لحم الفخذين (٦) ، "أزل كسرحان القصيمة
أغبر" (٧) ضامر البطن كالسرحان أو الذئب . ظمآن "غائر العينين" (٨) غليظ الأصابع
أو "ثشن البنان" (٩) ، قصير غليظ (١٠) ، مهزول جائع (١١) ، مشغول عن التزین ،
كبير في السن (١٢) .

والصائد "أبو صبية شعث" (١٣) أو "ذو صبية" (١٤) . وهو شقي تعيس "طويل شقاؤه"
(١٥) ، كان يبیت جائعا إذا ما خاب في صيده (١٦) ، وكان أولاده يصيبهم من هذا الشقاء
الشيء الكثير .

-
- (١) ديوان أوس ، ص ٧٠ .
 - (٢) شرح ديوان لبید ، ص ٦٩ .
 - (٣) ديوان بشر ، ص ٤٠ . شرح ديوان لبید ، ص ١٤٥ .
 - (٤) شرح ديوان لبید ، ص ٦٩ .
 - (٥) ديوان الأعشى ، ص ٤١٣ .
 - (٦) نظر ديوان الأعشى ، ص ٣٢٩ .
 - (٧) ديوان بشر ، ص ٨٤ . وشرح ديوان لبید ، ص ١٤٥ .
 - (٨) ديوان أوس ، ص ٧١ .
 - (٩) ديوان أوس ، ص ٧١ . وشرح ديوان لبید ، ص ٦٩ .
 - (١٠) ينظر ديوان أوس ، ص ٧٢ . وشرح شعر زهير ، ص ٢٧٩ .
 - (١١) السابق ، ص ٧١ .
 - (١٢) ينظر ديوان امرئ القيس ، ص ١٠٣ .
 - (١٣) ديوان بشر ، ص ٨٤ .
 - (١٤) ديوان الأعشى ، ص ٤١٣ .
 - (١٥) المفضليات ، ص ١٠١ .
 - (١٦) ينظر ديوان الأسود ، ص ٤١ .

وكان أولاد الصائد شعنا عوابس هزلي كاليعاسيب (١) قد حالفوا الفقر والضعف زمانا (٢) . وكانوا ينتظرون أباهم الصائد ليأتي لهم باللحم "إن صباحا أو مساء" (٣) وكانت الزوجة تشارك أولادها في هذا الانتظار . وكثيرا ما كان أولاد هذا الصياد الصغار يجوعون إذا رجع أبوهم خائب الرجاء (٤) فتراهم من الهزال كالسهم (٥) . وقد نجد زوجة الصائد ضعيفة هزيلة ثرثارة ، أخذت تلطم على وجهها لأن زوجها عاد إليها دون صيد (٦) . وقد تجد هذه الزوجة حمقاء (٧) .

ونجد في الشعر الجاهلي عند حديثهم عن الصيد ذكرا للرائث صانع ريش السهام أو الذي يريشها ، وكذلك نجد ذكرا للناجش الذي يحوش الصيد أو يثيره ليمر على الصائد (٨) ، ونجد من يصف الصياد الرابع ، لصق بالأرض استتارا من الصيد لئلا ينفر منه ، وترى هذا الربيفة لاصقا به التراب دائما (٩) .

ونلاحظ صورة الصائد الفقير وأولاده وزوجته الفقراء واضحة إلى حد ما في الشعر الجاهلي .

فلوس بن حجر وصف صائدا عند معرض حديثه عن حمار الوحش وأنته ، حيث كانت ذاهبة لتشرب من مورد الماء ، وهناك وجدت الصائد وقد بنى له قنطرة أو مصيدة أو ناموسا ، مصنوعة من صخور رقيقة . وكان هذا الصائد أسود غائر العينين ، عطشان ، شقق لحمه شدة الحر ، وهو مشغول عن التزين ، فهو أشعث ، قصير غليظ ، خشن البنان ، مهزول وجائع إذا لم يصد صيدا ثميناً ، أخو قنرات ، لا يبيت مع أهله كثيرا ، إنما يبيت مع الوحوش أكثر ... لأن

-
- (١) ينظر ديوان بشر ، ص ٨٤ .
 - (٢) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٤١٣ .
 - (٣) ديوان عمرو بن قميئة ، ص ١٥٤ .
 - (٤) ينظر المفضليات ، ص ١٨٩ .
 - (٥) ينظر المفضليات ، ص ١٠٢ .
 - (٦) ينظر ديوان عمرو بن قميئة ، ص ١٥٤ .
 - (٧) ينظر المفضليات ، ص ١٠١ .
 - (٨) ينظر مثلا الأصمعيات ، ص ٢٠٤ .
 - (٩) ينظر مثلا ديوان امرئ القيس ، ص ١٣٥ . والأصمعيات ، ص ٢٠٠، ٢١٩ .

الصيد عنده كل شيء ، فهي حرفته ومهنته ، يعتاش منها ، ورزقه فيها . وكان هذا الصائد يعتني بأسهمه التي يصوبها نحو الفريسة ، قام بإطلاق السهم نحو الفريسة وهو مستيقن الظن أنه سيصيب جوف الوحش ، ولكن السهم مر بذراعه ونحره ولم يصبه . عندها أحس هذا الصائد بالندم الشديد ، فعض إبهام يمينه وكانت القوس في يساره :

فَعَضَّ بِإِبْهَامِ الْيَمِينِ نَدَامَةً وَلَهَفَ سِرّاً أُمَّهُ وَهُوَ لَاهِفٌ (١)

وهذا صائد آخر تقترب صورته من صورة الصائد عند أوس . صاحب أسهم له براءة أو فترة أقام فيها ليختل منها الصيد ، وكان يفرح إذا ما رأى لحما طرياً ، قام بإطلاق سهمه على مقتل الفريسة ، وكانت فريسته الحمار الوحشي وأتانه ، ولكنه أخطأ سهمه الفريسة . فأخذ هذا الصائد ، بعدما خاب مسعاه كما يقول عمرو بن قميئة :

وَعَضَّ عَلَى أَنَامِلِهِ لَهْفًا وَلَاقَى يَوْمَهُ أَسْفًا وَغِيًّا
وَرَأَى بِحِجْرَةٍ لَهْفًا مُصَابًا بَنِي عِرْسِهِ أَمْرًا جَلِيًّا
فَلَوْ لَطِمْتَ هُنَاكَ بِذَاتِ خَمْسٍ لَكُنَّا عِنْدَهَا جَنَّتَيْنِ سَيًّا
وَكُنَّا وَإِثْقَيْنَ إِذَا أَتَاهُمْ بَلَحْمٍ إِنْ صَبَاحًا أَوْ مُسَيًّا (٢)

وهذا صائد له صبية صغار قد حالفوا الفقر زماناً طويلاً ، وكان كسبهم وقوتهم يعتمد على صيد الكلاب التي يستعين بها أبوهم في اقتناص الحيوانات . يقول الأعشى :

ذُو صَبِيَةٍ كَسَبَ تِلْكَ الضَّارِيَاتِ لَهُمْ قَدْ حَالَفُوا الْفَقْرَ وَاللَّوَاءَ أَحْقَابًا (٣)

وكانت الكلاب للصائد وسيلة مهمة للصيد . فهذا صائد من بني صباح ، طويل شقاؤه ، يصيد بسهامه وقوسه ، وأكلبه ، وقد فقد هذا الصائد كلبين من كلابه ، كان يحتاج إليهما في

(١) من يريد الاطلاع على صورة هذا الصائد في شعر أوس يراجع ديوانه ، ص ٧٠-٧٢ . ومن يريد الاستزادة في دراسة القصيدة التي فيها صورة هذا الصائد ، يراجع كتاب وهب رومية "الرحلة في القصيدة الجاهلية" ، ص ٢٤٨-٢٥٠ .

(٢) ديوانه ، ص ١٥٣-١٥٤ . الحرة والحرارة : العطش ، وقيل شدته . ذات خمس : اليد ، إشارة إلى أصابعها الخمس . حنتان : مثى حتن وهو المثل والقرن والمساوي . ويقال هما حنتان وحنتان أي سيان إذا تساويا في الرمي . وقد قام وهب رومية بدراسة القصيدة التي أخذت منها هذه الأبيات في كتابه "الرحلة في القصيدة الجاهلية" ، ص ١٤٥ .

(٣) ديوانه ، ص ٣١٤ . اللواء : الشدة والمحنة . أحقاباً : من حقبة المدة من الزمن .

الصيد ، ويعتمد عليهما في حياته المعيشية ، فساعت حاله بعد موتهما ، وأيقن بالجوع الشديد بعد خيبته في الصيد . فأخذ يستجدي الناس فلم يعطوه شيئاً . فرجع إلى أولاده وزوجته الفقراء الضعفاء فارغ اليدين ، يذم الناس من الفقر وقلة الحيلة ، وطلب من زوجته أي طعام ليسد به جوعه أو جزءاً منه ، لكن بيته كان خالياً من أي طعام ، لذلك أشارت عليه زوجته أن يستغني بالماء عن الطعام ... فلم يستطع النوم من شدة الجوع (١) .

وفي جوع الصائد يقول الأسود بن يعفر :
مُعْصَبًا مِنْ صَبَاحٍ لَا طَعَامَ لَهُ وَلَا رَعِيَّةَ إِلَّا الطَّوْفُ وَالْعَسَسُ (٢)

وهذا صائد آخر من بني جلان من عنزة ليس له متاع غير قوسه وأسهمه ، حرفته الصيد ، حاذق في الرمي ، وكيف لا يكون حاذقا وهو يعيل أسرة تنتظر رجوعه حاملا لحما طريا من هوادي الوحش ، وإلا كابدوا عناء الجوع والحرمان ، يقول ربيعة بن مقروم الضبي :
إِذَا لَمْ يَجْتَزِرْ لِبْنِيهِ لَحْمًا غَرِيضًا مِنْ هَوَادِي الْوَحْشِ جَاعُوا (٣)

ويصف امرؤ القيس صائدا حاذقا ماهرا محترفا ، لا يخطئ سهمه ، أصاب فريسته ، فهو ليس له وسيلة يكتسب منها عيشه وطعامه غير الرماية والصيد على كبر سنه ، فهو كما يقول امرؤ القيس :

مُطْعَمٌ لِلصَّيْدِ لَيْسَ لَهُ غَيْرَهَا كَسْبٌ عَلَى كِبَرِهِ (٤)

(١) ينظر في ذلك شعر لـ "مزرد بن ضرار" في المفضليات ، ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) ديوانه ، ص ٤١ .

(٣) المفضليات ص ١٨٩ .

(٤) ديوانه ، ص ١٠٣ .

٢- المشتار

اشتهر الهذليون * باشتيار العسل (١) في العصر الجاهلي وجوز مخارم الجبال لأن طبيعة ديار هذيل جبلية ، ويكثر فيها النحل . "ويعتبر أبو ذؤيب الهذلي شاعر النحل في العصر الجاهلي" (٢) .

وتحدث الشعراء عن العسل في قصائدهم ومشتاره عند وصفهم الخمر الممزوجة بالعسل ليستساغ شرابها (٣) وعند تشبيه طيب فم المحبوبة (٤) الممزوجة بالخمر (٥) ورضابه إذا ذقته (٦) . بل ريق المحبوبة أطيب طعما من الخمر بطعم العسل (٧) ومذاقه بطعم الزنجبيل والتفاح قد مزجا بعسل النحل (٨) ، فالحديث للصاحبة مثل جنى النحل لحلاوته (٩) .

(١) ينظر الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص ٦٩ . و العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٣٤٦ . ومقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، د. حسين عطوان ، ص ٤٤ .

(٢) الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي ، الجاهلي الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص ٦٩ .

(٣) ينظر ديوان الهذليين ٧٥/١ .

(٤) ينظر المصدر السابق ١٤٤/١ ، ٢١١ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ص ٣٢٧ . وينظر ما قاله شوقي ضيف في كتابه "العصر الجاهلي" عن قصيدة الأعشى رقم ٥٢ والتي يذكر فيها اشتيار العسل . وشك في صحة هذه القصيدة في نسبتها للأعشى ، وعلى ذلك بأنها تفنر لموضوع محدد . وكذلك لم تشتهر قيس بن ثعلبة باشتيار العسل ولكن هذيل هي التي اشتهرت .

(٦) ينظر ديوان الهذليين ١٧٦/١ ، ١٧٧ .

(٧) ينظر السابق ، ١٨٣/١ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ص ٣٢٧ .

(٩) ينظر ديوان الهذليين ١٤٠/١ .

* في قصة اشتيار العسل رجل من بني خالد أو هو الخالدي - كما سماه أبو ذؤيب الهذلي ، لما رأى جماعة النحل تستقل في الجبل ، أي ترتفع ثم تنزل عنه ، علم أن ثمة عسلا ، فاعتزم أن يدخل بيتها ويجنيه وتدلنا ذلك على شهرة بني خالد من الهذليين في اشتيار العسل ينظر ديوان الهذليين ٧٧/١ .

وقد أسهب بعض الشعراء الهذليين ، كابي ذؤيب وساعدة بن جؤية وغيرهم من الذين ذكروا العسل في قصائدهم في الحديث عن طريقة جنيه ، وهي تحتاج لجهد كبير يتكلفها الشائر الذي يتكدب العناية الشديد في تسلقه الجبال ، ليحصل على فضلات النحل . وهذا المشتار كما صورته الشعراء : أشعث قليل اللحم ضامر (١) ، مجرب خبير (٢) "أخو حزن" (٣) صبور على المشي "ذو رجلة" (٤) قصير "جَحْنَب" (٥) غليظ الأصابع "شَنُّ الْبَرَانِ" (٦) "شَنُّ الْبَنَان" (٧) . وجمع ساعدة بن جؤية الصفات الثلاث الأخيرة في عجز البيت :

حَتَّى أُسِبَّ لَهَا وَطَالَ إِيَابُهَا ذُو رُجْلَةٍ شَنُّ الْبَرَانِ جَحْنَبُ (٨)
والمشتار "مَكْدَم" (٩) قد أكلت أظفاره الصخر . وبه آثار ونقر من كلوم الجراح .
وهو قليل المال كل ماله "فضلات ثول" (١٠) كما يقول أبو ذؤيب الهذلي :
وَأَشْعَثَ مَالَهُ فَضْلَاتُ ثَوْلٍ عَلَى أَرْكَانٍ مَهْلَكَةٍ زَهْوٍ (١١)
ويقول ساعدة بن جؤية :
قَلِيلٌ تِلَادَ الْمَالِ إِلَّا مَسَائِبَا وَأَخْرَاصُهُ يَغْدُو بِهَا وَيَقِيمُهَا (١٢)
وله أيضا من المال سهام طويلة يصيد بها وقوس لينة (١٣) .

-
- (١) ينظر ديوان الهذليين ، ٨٧/١ .
(٢) ينظر السابق ، ١٤٢/١ .
(٣) السابق ٢٠٨/١ ، والحزن الأمكنة الغلاظ .
(٤) ، (٥) ، (٦) ، السابق ١٨٠/١ ، والبرائن ، استعملها الشاعر مجازاً لأنها لا تكون للإنسان ، وإنما هي للكلب والنسر ونحوها .
(٧) السابق ، ٢٠٨/١ .
(٨) السابق ، ١٨٠ / ١ ، وأشب لها : أتيح لها أي للنحل كان ذاهبا يجمع الشمع ، وهذا خطأ علمي فالمعروف أن النحل يصنع الشمع بنفسه . طال إيابها أي أبطأ رجوعها احتبست عن العسل فاستمكن من أخذها .
(٩) السابق ٢٠٨/١ .
(١٠) السابق ٨٧/١ والثول : النحل .
(١١) ديوان الهذليين ، ٨٧/١ ، مهلكة زهوق يقصد على صخرة ملساء .
(١٢) السابق ، ٢٠٨/١ ، والمسأب والسأب : سقاء العسل . يقيمها : يسوي عوجها .
والأخراس : عيدان يؤخذ بها العسل .
(١٣) ينظر السابق ، ٩٠/١ .

وصور الشعراء هذا المشتار يتسلق الجبال العالية ليصل قممها (١) وصخورها الملساء والتي يصعب الارتقاء إليها (٢) ولا تثبت على هذه الصخور مخالب العقاب (٣) بل ويزل عنها الغراب (٤) . وذلك أن النحل يأتي الجبل فيعسل في ملقة أو وقبة ، وهي كالكهف في الجبل عند صخرة ملساء (٥) ، فيأتي الشائر الذي يشتار العسل فيصعد من وراء الجبل حتى يصير في أعلاه ، فيضرب وتدا في أعلى الصخرة ثم يشد الحبل فيه ويتدلى عليها (٦) قد يصل طول هذه الحبال إلى "ثمانين قامة" وسبعين باعا" (٧) حتى يصل الصخرة الملساء حيث خلية النحل . وهذا العسل قد تأبط خريطة فيها سقاء العسل ، وصار يتتبع الحبل المربوط بالشيق ، ومعه أعواد ليخرج بها العسل (٨) ، وهو يتذبذب على هذه الحبال (٩) في هذا الجبل الأسود الشاهق وقد أحاطت به الصحراء من كل نواحيه فهو فزع خائف (١٠) ، فأيقن أنه سيدخل بيت النحل أو ينقطع الحبل فيهوي إلى الأرض ليصير كالطحين (١١) .

فعندما يصل خلية النحل [يوقد ناراً] ليطرد بدخانها النحل لئلا تلسه (١٢) فينبعث من حوله النحل كأنه صغار البعوض يطن طنيناً عالياً ، ويدفعه هو عن نفسه (١٣) وهو لا يخاف لسعها أحيانا (١٤) [فمن يطلب الشهد فلا من بد من إير النحل] .

(١) ينظر السابق ، ١٨١/١، ١٤٢، ٨٨، ٨٧، ٧٨/١ . وديوان الأعشى الكبير ، ص ٣٢٧ .

(٢) ينظر السابق ، ١٤١/١ .

(٣) ينظر السابق ، ١٨١/١ .

(٤) ينظر السابق ، ٧٩/١ .

(٥) ينظر السابق ، ١٨١/١، ١٤٢، ٨٨، ٧٩/١ .

(٦) ينظر السابق ، ١٨١/١، ١٤٢، ٧٩/١ . وديوان الأعشى الكبير ، ص ٣٢٧ .

(٧) السابق ، ١٤٢/١ .

(٨) ينظر ديوان الهذليين ، ١٨٠، ٨٧/١ .

(٩) ينظر السابق ، ١٨١/١ . وديوان الأعشى الكبير ، ص ٣٢٧ .

(١٠) ينظر ديوان الأعشى الكبير ، ص ٣٢٧ .

(١١) ينظر ديوان الهذليين ، ٧٨/١ .

(١٢) ينظر السابق ، ٢٠٩، ٧٩/١ .

(١٣) ينظر ديوان الأعشى الكبير ، ص ٣٢٧ .

(١٤) ينظر ديوان الهذليين ، ١٤٣/١ .

ويأتي المشتار بهذه العسل - بعد كد وتعب - ولم يعلق به العسل السائل ولم يتلطح به لخفته ونشاطه وقوته على استخراج العسل من الوقة طيبة (١) سلافا صهباء (٢) ، تسبق الريق إلى الحلق لسهولة ابتلاعها ، جاء بها طيبة وقد خلطها بماء سحابة أصابتهم في شهر رجب في الشتاء ، وذلك أبرد لها ، ومزجها بماء ذلك الغدير البارد في شق الجبل حتى تقطع العسل (٣) . وهذا المشتار ، وبعد جهد وتعب شديدين ، يتغني العيش من وراء بيعه العسل ، ولكن كسبه من ذلك قليل لا يكفي (٤) . فهو يبغى كسبا آخر - أحيانا - فنجدته يجمع بين مهنتين ، اشتبار العسل في وقته ، والصيد في وقته ، فهو المشتار الصائد كما أطلق عليه الدكتور نصرت عبد الرحمن (٥) .

فانظر إلى صورة هذا المشتار الصائد في قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي من أحد عشر بيتا (٦) :

وأشعث ما له فضلاتٌ نولٍ	على أركانٍ مهلكةٍ زهوقٍ (٧)
قليلٌ لحمه إلا بقايا	طفافٍ لحمٍ ممحوصٍ مشيقٍ (٨)
تأبط خافةً فيها مساب	فاضحٍ يقتري مسداً بشيقٍ (٩)

(١) ينظر السابق ، ١/٨٠، ١٨٢ .

(٢) ينظر السابق ، ١/٨٩، ١٤٣ . وسلاف صهباء : سهلة الإبتلاع .

(٣) ينظر السابق ، ١/١٨٢، ٢٠٩ .

(٤) ينظر "الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي" ، الدكتور نصرت عبد الرحمن ، ص ٩٣ .

(٥) في كتابه ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ وما بعدها .

(٦) ديوان الهذليين ، ١/٨٧ - ٩٠ .

(٧) النول : جماعة النحل ، وفضلاتها المقصود "العسل" . مهلكة زهوق : على صخرة ملساء [هذه صفتها] ، وهذه الصخرة تكون أيضا جرداء مثل بساط الأديم يزل عنها الغراب كما يقول أبو ذؤيب في موضع آخر :

تدلى عليها بين سبّ وخيطة
بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

(٨) طفاف : مما استرخى من جانبي بطنه . ممحوص : انمحص وذهب . مشيق : ضامر .

(٩) تأبط : جعلها تحت إبطه . خافة : خريطة "العسل" . المساب : سقاء العسل . يقتري : يتبع . مسدا : حبلا . شيق : أعلى الجبل .

- | | |
|--|---|
| وَمَا فِي حَيْثُ تَنْجُو مِنْ طَرِيقِ (١) | عَلَى فَتَخَاءٍ يَغْلَمُ حَيْثُ تَنْجُو |
| دَوَيْنَ الشَّمْسِ ذَاتَ جَنَى أُنَيْقِ (٢) | وَكَانَتْ وَقْبَةً فِي رَأْسِ رَيْقِ |
| عَلَى ذِي النَّيْقَةِ اللَّبِقِ الرَّفِيقِ (٣) | فَيَمَّمْ وَقْبَةً أَعْيَا جَنَاهَا |
| قَذَى صَهْبَاءَ تَسْبِقُ كُلَّ رَيْقِ (٤) | فَجَاءَ بِهَا سُلَافًا لَيْسَ فِيهَا |
| نَظَائِرُ ، كُلُّ خَوَارٍ بَرُوقِ (٥) | فَذَلِكَ تِلَادُهُ وَمُسْلَجَمَاتٌ |
| قَعَائِدُ قَدْ مَلُنْنَ مِنَ الْوَشِيقِ (٦) | لَهُ مِنْ كَشْبِهِنَّ مُعَذَّلَجَاتٌ |
| تَرَنَّمَ نَغَمَ ذِي الشَّرْعِ الْعَتِيقِ (٧) | وَبَكَرَ كُلَّمَا مُسَّتْ أَصَاتَتْ |
| يُرْدُ مِرَاحَ عَاصِيَةٍ صَفُوقِ (٨) | لَهَا مِنْ غَيْرِهَا مَعَهَا قَرِينٌ |

٣- الحادي

كثرة الحداة (٩) في العصر الجاهلي يعود إلى اعتماد الكثيرين من السادة وغير السادة على الإبل في معيشتهم ، وكانوا يكثررون من التنقل والارتحال طلباً للكلاً والماء ، وهذه الإبل تحتاج إلى سائق يقودها ويهدها السبيل . وكان من الحداة من يسوق الطعائن ؛ فقد اقترن ذكر الحداة في

(١) على فتخاء : يريد يقتري على فتخاء ، وهي يده فيها فتح ، أي لين ، يريد يد الذي يأخذ العسل .

(٢) الوقبة ، كالكهف في الجبل . جنى ، يعني العسل .

(٣) النيقة : الذكاء والحق .

(٤) أي أراد بها سلافا صهباء .

(٥) مسلجمات : سهام طويلة يصيد بها . نظائر يشبه بعضها بعضا . خوار في صوته وبروق في صفائه . . يقول : فذلك العسل ماله مع سهام طوال تصوت عند نقرها وتبرق من صفائها .

(٦) معذلجات : مملوءات . الوشيق : ما جف من اللحم . قعائد : يصفه بأنه كثير الصيد بتلك السهام التي ذكرها في البيت السابق ، فغرائره مملوءة باللحم المجفف .

(٧) بكر : يعني قوساً أول ما رمي بها . أصاتت : صوتت . ذي الشرع : يعني عودا عليه أوتار ، الواحد شرعة .

(٨) قوله عاصية : تعصي : تمتع ، وهي قوس . صفوق : يقلبها كيف شاء . القرين : سهم .

(٩) ينظر كثرة عدد الحداة مثلاً في شعر للحارث بن حلزة الشكري في معلقته ، شرح المعلقات

السبع ، ص ١٤٢ . وشرح شعر زهير ، ص ١٢٨ ، ٤١ .

الشعر الجاهلي بالحديث عن هذه الطعائن (١) وارتحال المحبوبة غالبا .

فترى بعض الشعراء يبغضون الحداة تارة ويغبطونهم ويحسدونهم تارة أخرى ، لأنهم ساقوا المحبوبة بعيدا عن الديار ورافقوها في رحلتها . يقول عدي بن زيد أثناء حديثه عن رحلة الصواحب الناعمات وقد ساءه الحداة ، فحملهم الذنب في هذه الرحلة ، ودعا عليهم بالفرقة والحمى جزاء صنيعهم :

شَدَّ مَا سَاعَنَا حُدَاةٌ تَوَلَّوْا	حِينَ حَنُّوا نِعَالَهَا بِالسَّيَاطِرِ
فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ مِنْ حُدَاةٍ	وَاسْتَفَادُوا حَمَى مَكَانِ النَّشَاطِ
مِثْلَ مَا هَيَّجُوا فَوَادِي فَاْمَسَى	هَائِثًا بَعْدَ نِعْمَةٍ الْأَغْتِبَاطِ (٢)

وهذا عبيد بن الأبرص يحزن لرؤيته الحاديين ذاهبين بالمرأة التي يهواها وهما مطمئنان ناعما البال ، يقول :

فَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَادِيَيْنِ تَكَمَّشَا	نَدِمْتُ عَلَى أَنْ يَذْهَبَا نَاعِمِي بَالِ (٣)
---	--

وكان الحداة يسوقون الإبل ، وهذه مهنتهم في العادة (٤) . ومن الحداة من كان ضعيفا هزيلا بالي الثياب أشعث أغبر ، ضعيف الرأي لا يخالط الناس . يصرح بذلك عبيد بن الأبرص في وصفه لحادي الإبل يجتاب صحراء مقفرة :

مُشَمَّرٌ خَلَقَ سِرْبَالَهُ مَشِيقٌ	قَادُورَةٌ فَائِلٌ مُغْذِمِرٌ قَطَطٌ (٥)
--------------------------------------	--

وإذا كانت صورة الحادي هكذا ، فعلام يحسده بعض الشعراء ! أم ترى أن عبيدا هو الآخر يشمت بهذا الحادي فيصفه بأبشع الأوصاف ؟ .

لذلك ترى هؤلاء الحداة يحدون الإبل ، ويغنون الحداء ، يسلون عن أنفسهم وعناء وحدتهم .

(١) ينظر مثلا ديوان بشر ، ص ٦٢ .

(٢) ذيل ديوانه ، ص ١٣٨ .

(٣) ديوانه ، ص ١١٨ . تكمشا : أسرعا .

(٤) ينظر مثلا شرح شعر زهير ، ص ٤٣ .

(٥) ديوانه ، ص ٩٣ . مشق : من يحنك أحد أصول فخذه بالآخر . فيصبيه تحرق . القاذورة :

الذي لا يخالط الناس لسوء خلقه . الفائل : الضعيف الرأي . المغذمر : الغضوب . القطط : القصير الشعر الجعدة .

٤- الراعي

اعتمدت فئة كبيرة من المجتمع الجاهلي على الراعي ؛ وليس بالضرورة أن يقوم صاحب الإبل أو الغنم برعيها والقيام بأمرها ، وإنما يعهد بهذه المهمة لمن هم أدنى منه منزلة ، كالعبد ، والأمة والأجير .

وكان الجاهلي الأصيل من جانبه يعيب مهنة الراعي ؛ ويعير من كان راعي إبل أو غنم ، ويذم - كذلك - من كان ابن راعية ، فذو الإصبع العدوانى يفتخر بأن أمه ليست براعية ترعى المخاض :

عَنِّي إِلَيْكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ تَرْعَى الْمَخَاضَ وَلَا رَأْيِي بِمَغْبُونٍ (١)

ويذكر تأبط شرا -تارة- ترفعه عن مهنة الراعي وأنه يأنف من القيام بها ، ويصرح - تارة أخرى - بأنه يخل من الوقوف وسط قطعان الغنم وقد حمل في يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائي الطويل المنقار وقد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة (٢) .

فإذا كان الصعلوك يترفع عن مهنة الراعي ، فالسادة من الجاهليين أولى بهذا الترفع والأنفة ، لأن هذه المهنة من أعمال العبيد والإماء .

ويفتخر أحدهم بأنه ليس بالعبد ولا راعي إبل (٣) . وهذا رشيد بن رميض العنبري يقول في شريح بن ضبيعة عندما غزا اليمن ، مادحا إياه بأنه ليس راعي إبل ولا غنم وليس بجزار :

لَيْسَ بِرَاعِيِ إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٍّ (٤)

ومنهم من يفتخر بأنه ليس راعي إبل ، لأنه شريف ، ليس شأنه شأن العبد الذليل تنقطع نعله من عدوه (٥) .

ومن هوان أمر الراعي وذلّه ، كان أشعث الرأس ملبد الشعر ليس له خبرة في الحرب (٦) ، تراه حين يعدو يصوت ، مشيته مشية الشيخ ، يحك رأسه لاتساخه وقلة

(١) ديوان ذي الإصبع العدوانى ، ص ٩٣ .

(٢) ينظر في لسان العرب مادتي "رعى" و "رسل" .

(٣) ينظر ديوان الحماسة ، ٢٦١/١ .

(٤) ديوان الحماسة ، ١٣٣/١ . الوضم : شيء يوضع عليه اللحم ليقيه من الأرض . والبيت في "البيان والتبيين" للجاحظ ، أنشده الحجاج في خطبة له في الكوفة ، ٣٠٨/٢ . وفي الكامل للمبرد ، ٢٢٤/١ .

(٥) ينظر السابق ، ٢٦١/١ .

(٦) ينظر المفضليات ، ص ٢٩ .

استحمامه (١) ، وهو قليل التمتع هزيل (٢) . إذا تعب من الرعي ينام وسط السوام ، وإذا ما استيقظ عرف مواضعها لما يسمع من أنفاسها وزفيرها ، يقول الحطيئة في هذا الراعي :
 إِذَا نَامَ طَلَحَ أَشْعَثُ الرَّأْسِ وَسَطَهَا هَذَا لَهَا أَنْفَاسُهَا وَزَفِيرُهَا (٣)

وقد ينام الراعي عن غنمه ، حتى إذا وقعت فيها الذئاب هب من نومه مذعورا . قال سلامة ابن جندل مشبها فرسه لحدثه وطموح بصره بهذا الراعي الحذر :
 كَأَنَّهُ يَرْقُبُ نَامٌ عَنْ غَنَمٍ مُسْتَفِرٌّ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مَذْذُوبٌ (٤)

ونجد صورة للراعي الذي يعجل ويسرع إلى إبله ونوقه يؤويها خشية البرد (٥) ، ونجده أحيانا يميل عن إبله ويتركها إلى ناحية يتي فيها شر هذا البرد (٦) . وقد يروح الراعي إبله لأنه لا يجد مرعى لها من المحل (٧) ، ولاستحكام الجذب فتسقط الإبل جوعا على الأرض من الإعياء حتى يمشي إليها الناس يضعون الأعمدة تحت بطونها ليعينوها على الوقوف (٨) .

ولكننا نجد من يصرح بأنه كان يرعى للقبيلة منذ فطامه كما يصرح عنتره العبسي بذلك لصاحبه عبلة ولكنه أتبع هذا التصريح بأنه أصبح يحمي حمى قبيلته (٩) . ويفصل عنتره عن صورته راعيا في قوله مخاطبا عبلة :

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي خَبَّرْتُ عَنْهُ رَعَيْتَ جَمَالَ قَوْمِي مِنْ فِطَامِي
 أَرُوعُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى مُغِيبِ وَأَرْقَدُ بَيْنَ أَطْنَابِ الْخِيَامِ (١٠)

(١) ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٢٠-٢٢٢ .

(٢) ينظر ديوان تأبط شرا ، ص ١٣٨ .

(٣) ديوانه ، ص ٢١٥ .

(٤) ديوانه ، ص ١٠٤ . وفي البيت إقواء . فروي القصيدة مكسور .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٣٧ .

(٦) ينظر ديوان طرفة ، ص ٩٨ .

(٧) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٧٥ . وديوان شعر الحادرة ، ص ٣٤٠ .

(٨) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٦٣ .

(٩) ينظر ديوانه ، ص ٨٥ .

(١٠) السابق ، ص ٥٤ .

ويكون الراعي أحيانا حبشيا أسود عيبا ، كما يشير إلى ذلك عنتره أثناء حديثه عن ناقته في رحلته ، وقد شبه سرعتها بسرعة الظليم ، هذا الظليم الأسود الذي لا نطق له عندما تأوي إليه صغائر النعام يشبه انضمام الإبل اليمانية - التي يغلب عليها السواد - إلى راع حبشي أسود عيب لا يفصح ، يقول عنتره في الظليم :

تَأْوِي لَهُ قُلُوصُ النَّعَامِ كَمَا أُوتِ حَزَقُ يَمَانِيَّةٍ لِأَعْجَمِ طَمْطَمِ (١)

وكان بعض الجاهليين يفتخرون بكثرة إبلهم حيث لا يستطيع الرعاء على جمعها لكثرتها ، فتبقى في البرية (٢) .

ونجد من يفتخر أيضا بأن إبله أصبحت قليلة لجوده وكرمه ، فلا يغلب الراعي معها (٣) ، فترى الراعي يحدو بها .

فالراعي يظل ملازما للإبل أو للغنم ، ماهر أحيانا بالطلب والصر ، ليس له شأن يذكر لانحطاط شأنه وزله وهوان أمره ، ولم يكن ذا قيمة تذكر في الأحداث الجسام في العصر الجاهلي .

٥- العضروط

العضروط هو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه ، والجمع عضاريط كما جاء في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي عند فخره بالحروب والأيام ، وقد تركوا نساء بني عامر سبايا في أيديهم وحملوهن على أقتاب غليظة ، وأسرعوا بهن في السير ، فدميت أعجازهن ، وقد قام العضاريط بحمل هؤلاء النساء البيض الأسيرات خلفهم على حقائب أرحلهم ، يقول بشر في ذلك :

بَنِي عامرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُمْ مِنْ الشَّلِّ والإِجَافِ تَدْمَى عُجُوبُهَا

(١) شرح المعلقة السبع ، ص ١٢١ . القلوص من الإبل والنعام بمنزلة الجارية من الناس والجمع قلص وقلانص . أوت : انضمت . حزق : جماعات واحدها حزقة . طمطم : عيب لا يفصح .

(٢) ينظر الأصمعيات ، ص ٢١٦ .

(٣) ينظر المفضليات ، ص ٣٥ .

عَصَارِيطُنَا مُسْتَحَقُّو الْبَيْضِ كَالْدَمَى مُضَرَّجَةً بِالزَّعْفَرَانِ جُيُوبُهَا (١)

٦- الحداد

الحداد هو البواب والسجان ، ويبدو أن الحدادة كانوا من الفقراء وذوي الحاجة ، وهم في ضيق عيش ، مما جعل الحارث بن وعلة الجرمي يتخوف من أن يكون من أسرته حدادة إنما همها قوت العيال ؛ فحتى لا يكون ذلك كان أول منهزم في يوم الكلاب الثاني وكان صاحب لواء أهل اليمن ضد تميم وحلفائهم ، فأكثرت يومها تميم القتل في أهل اليمن ، فأخذ الحارث لا يألو عدوا وهربا مخافة أن يؤسر . يقول في شعره :

وَلَمَّا سَمِعْتُ الْخَيْلَ تَدْعُو مَقَاعِسًا تَطَالَعَنِي مِنْ ثَغْرَةِ النَّحْرِ جَائِرُ
فَإِنْ أَسْتَطِيعُ لَا تَلْتَبِسُ بِي مَقَاعِسُ وَلَا يَرْنِي مَبْدَاهُمْ وَالْمَحَاضِرُ
وَلَا تَكُ لِي حَدَادَةٌ مُضَرِّيَّةٌ إِذَا مَا غَدَتْ قُوَّةُ الْعِيَالِ تُبَادِرُ (٢)

٣-

الرقيق من الإماء والعبيد

الرق ، بكسر الراء : الملك والعبودية . وَرَقٌّ : صار في رق . وعبد مرقوق وَمَرْقَ ورقيق ، وجمع الرقيق أرقاء . وقيل : أمة رقيق ورقيقة من إماء رقائق فقط . وقيل : الرقيق اسم للجمع والرقيق المملوك واحد وجمع . الرق : العبودة والرقيق العبد . رق فلان صار عبدا . والرق الشيء الرقيق ... (٣) .

والعبد : المملوك خلاف الحر .. الجمع أعبد وعبيد .. فقالوا هؤلاء عباد الله .. وهؤلاء

(١) ديوانه ، ص ١٩ . الشل : السوق والطرْد . الإيجاف : السير الشديد على الخيل والإبل جميعا . العجوب : يريد بها الأعجاز . مستحقبو البيض : أي هم يحملون النساء البيض على أرحلهم . الجيوب جمع الجيب وهو جيب القميص أي فتحته .

(٢) المفضليات ، ص ١٦٦ . مقاعس أراد بني مقاعس ، وهم من تميم . تطالعني : طلع مني وارتفع يعني فزعا . ثغرة النحر : النقرة في أعلى الصدر . الجائر : حر يؤذي الجوف عند الجوع . التبس : اختلط ، والمراد لا يدركوني . مبداهم من بدا منهم في البادية . محاضرم : من نزل الحاضرة . وأصلها مكان البدو والحضر .

(٣) لسان العرب مادة " رقق " .

عبيد ممالك .. (١) .

فترى أن الرّق هو العبودية للإنسان ، والرقيق هم من الإماء والعبيد المماليك .

فالأمة في عرف المجتمع الجاهلي هي المملوكة (٢) ، أو هي المملوكة ذات العبودية (٣) ، أو هي الجارية التي تمتن الخدمة والقينة أو المغنية التي تمتن الغناء (٤) ، وكانت القينة تمتن الخدمة كالرعي (٥) .

وكانت الإماء تؤلف طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلي . وكذلك العبيد . فكثرة الرقيق من العبيد والإماء كثرة بالغة جعلت الرقيق طبقة اجتماعية كبيرة لها معالمها المميزة وسماتها الواضحة* (٦) .

وكان تملك الرقيق من الإماء والعبيد يحصل في العصر الجاهلي بطرق أهمها : النهب والأسر والشراء (٧) . وكان الرقيق من أصل عربي خالص عن طريق الحروب والغارات ، تسبى النساء ويسترق الرجال . وهناك مورد آخر من موارد الرقيق لا يقل عن الجزيرة العربية غزارة هو الرقيق الأجنبي الذي جلب من خارج الجزيرة العربية من البلاد التي كانت الصلة محكمة بينها وبين بلاد العرب .. عن طريق التجارة (٨) .

فالنساء كن يجتلبن بطريق من هذه الطرق من البلاد المجاورة ، كما يؤخذن سبيات من القبائل العربيات نفسها فيمتلكن ، لذلك أصبحن يؤلفن طبقة مميزة - مع العبيد - في العصر الجاهلي لشيوع الحروب والغزو عندهم وكثرة النهب والسلب .

ومهما تكن أسباب الحروب التي ثارت في الجاهلية فإن غايتها كانت الإستيلاء على أكبر قدر من الغنائم والأسرى . فإن كانت الحرب أخذاً بالثأر ، قتل الأسرى في الغالب ، وإلا احتفظوا بهم طمعاً في الفدية . وكان الرجال المشتركون في الإغارة يطمحون دائماً إلى أن يأسروا نساء أعدائهم ، وكانت النساء اللاتي لا تفديهن قبائلهن أو لا يطلقهن الرجل الذي كن من نصيبه ،

(١) السابق مادة "عبد" .

(٢) القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ، ٣٤٩/٤ .

(٣) لسان العرب مادة "عبد" و "رقيق" .

(٤) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص ٢٤٦ .

(٥) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٢٧ .

(٦) القيان والغناء في العصر الجاهلي ، الدكتور ناصر الدين الأسد ، ص ٣٠ .

(٧) ينظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص ٢٤٦ .

(٨) ينظر القيان والغناء في العصر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد ، ص ٣١ .

يقيّن في حوزته إماء له أو للقبيلة التي أسرتهم (١) ؛ فيقمن بأعمال سادتهن ويتوفرن على خدمتهم (٢) .

وكثرة الرقيق في الجاهلية تطالعنا عند قراءة أيام العرب وحروبهم فنجد كثرة السبايا اللواتي يصبحن في كثير من الأحيان إماء . وكما يشير شعر الشعراء إلى ذلك .

يقول امرؤ القيس - مثلا - في الحروب مفتخرا :

إِنَّا تَرَكْنَا مِنْكُمْ قَتْلَى وَجَزْ
يَمْشِينَ بَيْنَ أَرْحُلِنَا مَعْتَرِفَا
حَى وَسَبَايَا كَالسَّعَالِي
بِ مَا بَجُوعٍ وَهَزَالٍ (٣)

والحارث بن حلزة النشكري يشير في معلقته إلى الغارات والغزوات مع قومه وسيرهم من مكان إلى آخر ، وكيف طووا ما بين البحرين إلى الحساء سيرا وإغارة على القبائل حتى انتهوا إلى الحساء ، وقد دخلوا الشهر الحرام ، ومعهم سبايا القبائل ، استخدموهن إماء لهم ، يقول مفتخرا :

ثُمَّ مِلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمَ
نَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمِ إِمَاءٍ (٤)

ويقول عامر بن الطفيل مفتخرا بالغارات ، وقد سبوا النساء اللواتي دمين خدودهن بأظافرهن ذعرا وولها :

وَأَزْدَفْنَا نِسَاءَهُمْ وَجَنَّنَا
وَقَدْ دَمِيتُ مِنَ الْخُمْسِ الْخُدُودُ (٥)

ويقول أيضا مفتخرا بالإياب بالغنائم والسبايا اللاتي يصرخن ويولولن بعد أسرهن لأنهن أصبحن غريبات :

فَأَبْنَسَا غَانِمِينَ بِمَا اسْتَفَانَا
نُسُوقُ الْبَيْضِ دَعَاها الْأَلِيلُ (٦)

لذلك نرى خوف النساء من السبي واضحا في شعر الجاهليين (٧) .

(١) ينظر مثلا شعر في ذلك في ديوان الأعشى ، ص ٣١١، ٣١ .

(٢) ينظر قبل السابق ، ص ٣٦ .

(٣) ديوانه ، ص ١٥٧ .

(٤) شرح المعلقات السبع ، ص ١٣٧ .

(٥) ديوانه ، ص ٥١ .

(٦) السابق ، ص ٩٧ .

(٧) ينظر مثلا ديوان عنتره ، ص ١٨٧، ٤٢ .

وكان لانتشار أسواق النخاسة والرقيق في المدن الكبرى خاصة في مكة .. ، وسوق عكاظ وسوق دومة الجندل .. وغيرها من الأسواق (١) أثر في انتشار الرقيق في شتى أرجاء الجزيرة العربية ؛ فكان الناس يتجرون في هذه الأسواق بالإماء والعبيد الذين كانوا يعتبرون سلعة ، ومن أهم السلع (٢) .

وكان الأسر والسبي - كما قلنا - من أوضح الموارد للإماء والعبيد (٣) ، كان البعض يعرض هؤلاء الأسرى والسبائا في الأسواق لبيعها .

وكان من الإماء السوداوات من إفريقية وغيرها ، ومنهن الروميات والفارسيات والهنديات . فكان منهن الكادحات المجهودات ، ومن الإماء اللاهيات المغنيات العابثات (٤) .

منزلة الإماء والعبيد الإجتماعية وصورتهم في الشعر الجاهلي :

والإماء والعبيد من الفقراء عموما ، فيكفي كونهم مملوكين لغيرهم كأي سلعة من السلع ليستدل على فقرهم .

وكان الشعراء الجاهليون يتمدحون بمن يهب القينات (٥) والجواري من المغنيات (٦) والعبيد والرعاة .

فالإماء طبقة مهانة محتقرة ، تلقى على عاتقها الأعمال المرهقة التي تحتاج إلى مجهود مادي وبدني كبير . وهذه الإهانة وهذا الإحتقار ينتقلان إلى الأبناء بالوراثة . يقول السليك بن السلعة ، وكانت أمه حبشية ، وهو منسوب إليها :

(١) ينظر في أسواق العرب تاريخ يعقوبي" ، ج١/٢٧٠ - ٢٨٠ . والمحبر لابن حبيب ، ص ٢٦٤ - .

(٢) ينظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٦١ . والقيان والغناء في العصر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد ، ص ٣٥ .

(٣) ينظر أيضا ديوان الأعشى ، ص ٣٥١ . وديوان عامر ، ص ١١١ .

(٤) ينظر القيان والغناء ... ص ٣٣، ٤١ . والمرأة في الشعر الجاهلي ... ، ص ٢٤٩ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٧١ .

(٦) ينظر السابق ، ص ٣٨٩ .

أَشَابَ الرَّأْسَ أَنِّي كُلَّ يَوْمٍ أَرَى لِي خَالَةً وَسَطَ الرَّحَالِ
يَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يُلْقِينَ ضَيْمًا ويعجزُ عَنْ تَخْلَصَهُنَّ مَالِي (١)

وأبناء الإمامة محقرين ، وبيوتهم لم تكن مصنونة مكرمة ، فيلج الناس على بيت ابن الأمة يزورون زوجته دون أن يحسبوا له حسابا ، وهو إن أراد أن يزور بيتا للناس لا يسمح له إلا إذا شاء أهل البيت وبالطريقة التي يرونها . يقول السليك بن السلعة وقد وجد قوما يتحدثون إلى زوجته وهم من بني عمها :

يَزُورُونَهَا وَلَا أَزُورُ نِسَاءَهُمْ أَلْهَفِي لِأَوْلَادِ الْإِمَاءِ الْخَوَاطِبِ (٢)

فكانت نظرة الجاهليين للأمة وللعبء هي نظرة ازدراء واحتقار ، فشاع في بعض الشعر الجاهلي الهجاء والتعيير بالإمام والعبيد .

يقول أوس بن حجر يهجو بني لبني :

أَبْنِي لُبْنَيْيَ إِنَّ أُمَّكُمْ أَمَةٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ عَبْدُ (٣)

وللسود بن يعفر هجاء لبني نجيح ، إذ يقول :

أَبْنِي نَجِيحَ إِنَّ أُمَّكُمْ أَمَةٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَقَبُ (٤)

وهذا الأعشى الكبير في قصيدة له يهجو فيها علقمة بن علاثة قائلا :

فَهَلْ كُنْتُمْ إِلَّا عَبِيدًا وَإِنَّمَا تَعْدُونَ خُوصًا فِي الصَّدِيقِ لَوَامِصًا (٥)

وهذا عميرة بن جعل يهجو رجلين بأن قومهما كانوا عبيد قومه في شدة الزمان وأن

جديهما عبدان وأميهما أمتان . يقول :

فَمَنْ مَبْلِغَ عَنِي إِيَّاسًا وَجَنْدَلَا أَخَا طَارِقٍ وَالْقَوْلُ ذُو نَفْيَانِ
- لِيَالِي إِذْ أَنْتُمْ لِرَهْطِي أَعْبَدَ بَرْمَانَ لَمَّا أَجْدَبَ الْحَرَمَانِ

(١) الكامل ، للمبرد ، ٢٢٩/١ .

(٢) الأغاني (بيروت) ٣٥٤/٢٠٠ . ولهذا البيت مع بيت آخر للسليك قصة أوردها الأصفهاني في الأغاني .

(٣) ديوانه ، ص ٢١ .

(٤) لسان العرب مادة "وقب" .

(٥) ديوانه ، ص ٢٠١ . خوص : جمع أخوص وهو الذي ينظر بشق عينيه بغضا أو عداوة .
لوامص : جمع لموص وهو الكذاب الخداع .

وَإِذْ لَهُمْ ذُودٌ عَجَافٌ وَصِيبَةٌ وَإِذْ أَنْتُمْ لَيْسَتْ لَكُمْ غَنَمَانِ
وَجَدَاكُمَا عَبْدًا عُمَيْرٌ بْنُ عَامِرٍ وَأَمَّاكُمَا مِنْ قَيْنَسَةٍ أَمْتَانِ (١)

ويقول عامر بن الطفيل في هجاء رجل ، وقد عيره بأنه ملصق ليس من قلب قومه ، بل من نسل الإمام الطوامث ، يقول في أبيات ثلاثة :

وَأَنْتَ لِسَوْدَاءِ الْمُعَاصِمِ جَعْدَةٌ وَأَقْعَسُ مِنْ نَسْلِ الْإِمَاءِ الْعَوَارِكِ
تُبِيعَ لِقَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ صَمِيمِهِمْ وَلَكِنَّهُ مِنْ نَسْلِ آخِرِ هَالِكِ
أَبُوكَ أَبُو سُوءٍ وَخَالُكَ مِثْلُهُ وَهَلْ تُشَبِّهُنَّ إِلَّا أَبَاكَ وَخَالُكَ (٢)

وكان الشاعر الجاهلي يفتخر بأنه ليس بالعبد ولا راعي إبل ، فكثيرا ما كان هذا العبد تتقطع به السبل ويتمزق نعله (٣) .

وكان العبيد يزجرون من قبل أسيادهم ، وكانو يسكرون غالباً على أرجلهم فتتقطع نعالهم ، وتتمزق ثيابهم (٤) .

وكان من يعلم عبيده على الصبر في قيادة الإبل ، فكانوا يخلعون نعالهم ليسلكوا بالإبل أو بالخيول السهلة . وكان العبد يوعد بالركوب بعد أن يسير نوبته فلم يدرك ذلك إلا مع الصباح ، وقد أخذ هذا العبد يتقاطر الدم من عقبه كما يتقاطر الرعاف من الأنف والدمع من العين لكثرة سيره ومرافقته للخيول والإبل . يقول مالك بن حريم من قصيدة له في الفخر :

ونخلع نعل العبد من سوء قوده لَكَيْمًا يَكُونَ الْعَبْدُ لِلْسَّهْلِ أَضْرَعَا
وَقَدْ وَعَدُوهُ عُقْبَةً فَمَشَى لَهَا فَمَا نَالَهَا حَتَّى رَأَى الصَّبْحَ أَذْرَعَا
وَأَوْسَعَنَ عُقْبَتَهُ دِمَاءً فَأَصْبَحَتْ أَصَابِعُ رَجُلَيْهِ رَوَاعِفَ دُمْعَا (٥)

وكان الإمام والعبيد يقومون بالأعمال المهينة المحقرة التي يأنف الأحرار وأبناء السادة من القيام بها .

(١) المفضليات ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ . ذو نفيان : يتفرق ههنا وههنا . رمان : اسم بلد . الذود :

الثلاث من الإبل إلى العشر . غنمان أراد قطعتي غنم .

(٢) ديوانه ، ص ٨٧ - ٨٨ . الأقعس : الذي في ظهره انحناء .

(٣) ينظر ديوان الحماسة ، ٢٦١/١ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٤٣ .

(٥) الأصمعيات ، ص ٦٠ - ٦١ . أضرع : أدنى أو أميل . الأدرع : ما فيه من بياض وسواد ،

والأصل أن يوصف الليل بالأدرع الذي تفجر فيه الصبح .

فكانت الأمة تقوم بالطبخ ولوازمه ، وتقوم بالطحن والخبز ، وتقوم بالخدمة في المنازل . وكانت تقوم بإعداد الطعام ، وحمل الأثقال للترحال ، وتقوم بالتحطيب وقطع الأخشاب ، ومنهن من تتبع الأحطاب والثمار (١) .

يقول طرفة بن العبد مثلاً :

تَبَيَّتْ إِمَاءُ الْحَيِّ تَطْهِي قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثُ الْمُتَجَرِّفُ (٢)

ويقول طرفة أيضاً مشبها النعام تسير في الأطلال رافعة أجنحتها بالإماء اللاتي كن يحملن حزم الحطب بجامع دقة الرجلين ، وسوادهما وسعة القسم العلوي .
لَا أَرَى إِلَّا النَّعَامَ بِهِرَ كَالْإِمَاءِ أَشْرَفَتْ حَزْمُهُ (٣)

ومثل قول طرفة بن العبد قول الأخنس بن شهاب في حديثه عن الأطلال ومنازل الأحبة التي خلت من أهلها فصارت مساكن للنعام ترعى فيها غير خائفة من أحد ، وهي في مشيها تشبه الجوارى التي تمشي على مهل بالعشي لما على رؤوسهن من الحطب ؛ يقول الأخنس :
تَمْشِي بِهَا حَوْلُ النَّعَامِ كَأَنَّهَا إِمَاءٌ تَرْجَى بِالْعَشِيِّ حَوَاطِبُ (٤)
وفي الحروب يفتخرون بقتل سراة القوم ، لأنهم أقرانهم ، ويعفون عن "أولاد الإماء الحواطب" (٥) لأن هؤلاء لا يليق بسراة القوم أن ينازلوهم ويقاتلوهم ، لضعفهم وذلهم .
وقد ذكر النابغة الذبياني الإماء اللاتي يبعن الأحطاب والثمار بقوله :
لَيْسَتْ مِنَ السُّودِ أَغْقَابًا إِذَا انْصَرَفَتْ وَلَا تَبِيعُ بِجَنَبِي نَخْلَةَ الْبُرْمَا (٦)
وكان الإماء والعبيد يقومون بالرعي ، فكانت الإماء ترعى الإبل (٧) .

-
- (١) ولمن يريد الإطلاع على وظائف الأمة يراجع كتاب "المرأة في الشعر الجاهلي" ، علي الهاشمي ، ص ٢٦٢ وما بعدها .
(٢) ديوانه ، ص ٩٨ .
(٣) ديوانه ، ص ١١٦ .
(٤) ديوان الحماسة ، ٢٩٩/١ . حول : جمع حائل وهي التي لم تحمل . ترجى : تساق .
(٥) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٩١ .
(٦) ديوان ، ص ٦١ . نخلة اسم سوق . البرما : جمع برمة : ثمر الأراك قبل أن يسود .
(٧) ينظر ديوان علقمة الفحل ، ص ٥٤ .

وكانت القيان ترد جمال الحي إذا ارتحلوا (١) . وكانت مهنة الرعي محتقرة في العصر الجاهلي خصوصا للنساء ، كما يقول ذو الإصبع العدواني :

عَنِّي إِلَيْكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ تَرَعَى الْمَخَاضَ وَلَا رَأْيِي بِمُعْبُونٍ (٢)

وكان أولاد الإماء من العبيد ، وكانوا كثيرا يقومون بالرعي والاهتمام بالسوام . فعنتره العبسي الذي أصبح مثالا للشجاعة كان راعيا يحسن الحلب والصر لأنه ابن أمة ؛ وكان يرعى جمال قومه منذ فطامه ، يرعى طول النهار من الصباح إلى المغيب ، ويرقد بين أطناب الخيام آخر النهار ، يقول عنتره في ذلك :

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي خُبِّرْتُ عَنْهُ رَعَيْتُ جَمَالَ قَوْمِي مِنْ فِطَامِي
أَرْوَعُ مِنْ الصَّبَاحِ إِلَى مَغِيبٍ وَأَرْقَدُ بَيْنَ أَطْنَابِ الْخِيَامِ (٣)

وثمة عبيد مقيمون لا يرحلون المكان مستمسكون بالأصنام (٤) .
وأما سقي الخمر والغناء والرقص وإلى غير ذلك من متطلبات الشاربين واللاهين فالإماء تقوم بها كافة . قال عدي بن زيد :

ثُمَّ نَادَوْا عَلَى الصُّبُوحِ فَجَاءَتْ قَيْنَةً فِي يَمِينِهَا ابْرِيْقُ (٥)

كما كانت بعضهن يضربن على الدف .. وعلى آلات الطرب .. وكانت بعضهن من المغنيات .
وكان بعض الجاهليين يكرهون إماءهم على البغاء من أجل المال . مع أن الزنا عند العرب كان عارا في الغالب . ولكن قد يلجأ إليه فقراؤهم لأنهم لا يجدون زواجا (٦) .
وثمة صورة للإماء من الفقراء زمن الشدة والبرد في فصل الشتاء . فهن كالأشجار البالية المقطعة الأغصان في الشتاء ، مقيمات على ما بقي في القدر ، أو ما لصق بأسفلها من مرق أو حطام طعام .. يقول عمرو بن قميئة في هجاء قوم :

وَرَأَيْتَ الْإِمَاءَ كَالْجَعْنِ الْبَا لِي عُكُوفًا عَلَى قُرَارَةِ قَدَرٍ (٧)

(١) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٢٧ .

(٢) ديوانه ، ص ٩٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٥٤ .

(٤) ينظر ديوان الأعشى .

(٥) ديوانه ، ص ٧٨ .

(٦) ينظر المحبر ، لابن حبيب ، ص ٢٦٤ .

(٧) ديوانه ، ص ٢٠٠ .

وكانت القيان تغبر وجوههن حتى لتحسبهن من الأحباش لشدة البرد في الشتاء حين يشح المرعى ويجف اللبن في ضروع النوق (١) .

وثمة صورة لعبد أسود يلبس فروا طويلا لا أذن له ، شبه به الظليم - ذكر النعام - الأصلم الذي لا أذن له ، أضعل صغير الرأس يعود إلى بيضه . يقول عنتره من معلقته :
 صعلٌ يعودُ بذِي العُشَيْرَةِ بَيْضُهُ كالعَبْدِ ذِي الفَرْوِ الطَّوِيلِ الأَصْلَمِ (٢)

الأرامل والأيتام

أ- الأرامل

جاء في لسان العرب مادة "رمل" .. أرمل القوم : نفد زادهم . المُرْمَلُ : الذي نفد زاده ورجل أرمل وامرأة أرملة : محتاجة ، وهم الأرملة والأرامل والأرامله ، وكل جماعة من رجال أو نساء ... أرملة بعد أن يكونوا محتاجين . ويقال للفقير الذي لا يقدر على شيء من رجل أو امرأة أرملة ولا يقال للمرأة التي لا زوج لها وهي موسرة أرملة ، والأرامل المساكين . ويقال : جاءت أرملة من نساء ورجال محتاجين ، ويقال للرجال المحتاجين الضعفاء أرملة وإن لم يكن فيهم نساء . والأرامل المساكين من نساء ورجال .

والأرْمَلُ : الذي ماتت زوجته . والأرملة التي مات زوجها ، سواء كانا غنيين أو فقيرين . والأرملة : التي مات عنها زوجها سميت أرملة لذهاب زادها وفقدتها كاسبها ومن كان عيشها صالحا به ، من قول العرب : أرْمَلَ القوم والرجل إذا ذهب زادهم . ولا يقال للرجل أرمل إذا ماتت زوجته لأن الرجل لا يذهب زاده بموت امرأته إلا في شذوذ إذا كانت زوجته قيمة عليه ..

والرَّمَلُ : المطر الضعيف . عام أرْمَلُ : قليل المطر والنفع والخير وسنة رملاء كذلك . نستطيع لما جاء في لسان العرب أن نقول أن ما يجمع بين الأرامل سواء من النساء أو الرجال أو الاثنين معا هو نفاد الزاد والحاجة والفقر والمسكنة . فحتى الأرملة التي مات عنها زوجها سميت أرملة لذهاب مُعِيلِها ومُؤْمِنِ عيشها وقوتها .

(١) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٨٣ .

(٢) ديوانه ، ص ١٤ . وشرح المعلقات السبع ، ص ١٢١ .

وأعتقد أن التفاخر والتمدح بالعطف على الأرمال في الشعر الجاهلي - في الغالب - يقصدون بالأرمال المساكين الفقراء والمحتاجين الذين نفذ زادهم سواء من الرجال أو النساء . والأرملة للنساء أخص . وإذا ما تفاخروا بمساعدة الأرملة التي مات عنها زوجها تكون هذه المرأة فقيرة بحاجة إلى عون خصوصا إذا كان لديها أطفال صغار يتامى .

وكان الزاد كثيرا ما يفنى في الغزو البعيد ، كما يشير إلى ذلك سنان بن أبي حارثة المري من قصيدة يشكو فيها الكبر وضعف البصر ، ثم يرتاح إلى ذكريات الشباب مفتخرا بقيامه بحق قومه وقبيلته إذا طالت غزوتهم ، يقول :

قَدْ يَعْلَمُ الْقَوْمُ إِذَا طَالَتْ غَزَاتُهُمْ وَأَرْمَلُوا الزَّادَ أَنِّي مُنْفَذُ زَادِي (١)

ولطبيعة الحياة الجاهلية وقلة خيرات الجزيرة العربية وكثرة التنقل والارتحال ، كان كثيرا ما ينقطع عنهم الزاد (٢) ، فتمدحوا بغياث المرملين "في الليلة الغالي قراها" كما يقول بشر في مدح أوس بن حارثة :

غِيَاثُ الْمَرْمِلِينَ إِذَا أَنَاخُوا بِهِ فِي اللَّيْلِ الْغَالِي قَرَاهَا (٣)
وكانوا "ماوى المرملين الدرايق" (٤) .

وكان الجاهليون يعطفون ويشفقون على "الضعيف المرمل" (٥) . ويفخرون بإغاثة الأرمال المساكين المحتاجين في فصل الشتاء (٦) .

وفي شعر الرثاء نجد البكاء على الأشعث البائس زوج الأرملة الفقيرة المحتاجة رثة الثياب التي تشبه الناقة التي كان صاحبها في الجاهلية - إن مات - تربط عند قبره حتى تموت جوعا وهزالا - يقول الجهمي الأسدي واسمه منقذ بن الطماح يرثي نضلة :

يَا نَضْلَ لِلضَّيْفِ الْغَرِيبِ وَلَدٍ جَارِ الْمُضْمِمْ وَحَامِلِ الْغُرْمِ

(١) المفضليات ، ص ٣٥١ . والأصمعيات ، ص ٢٤٣ .

(٢) ينظر على سبيل المثال ديوان الحماسة ، ١٥٣/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٢٣ .

(٤) الحماسة البصرية ٥٤٤/١ ، الدرايق : الصغار .

(٥) الحماسة البصرية ، ٤٢٩/١ .

(٦) ينظر مثلا : شرح ديوان لبيد ، ص ٣٢٢ . وشرح شعر زهير ، ص ٢١٦ . وديوان

بشر ، ص ١٧٦ . وديوان الحطيئة ، ص ٢٣٦ .

أَوْ مَنْ لَأَشْعَثَ بَعْلٍ أَرْمَلَةٍ، مِثْلُ الْبَلِيَّةِ سَمْلَةَ الْهَدْمِ (١)

وكانت النساء في العصر الجاهلي غالبا ما يصبحن أيا م - الواحدة أيم - بعد قتل أزواجهن في الحروب والغارات (٢) ، فتخلف الحروب "أرامل شتى" (٣) ، فيصبحن عائلة على ذويهن وأقربائهن .

وكانت الأرامل من الفقراء العيل اللاتي يحتجن إلى عون ورعاية وتقديم الطعام لهن (٤) . وكان الشعراء يرثون من مات بأنه كان غيثا للأرامل أمهات الأيتام في السنة الشهباء ذات الغبار والأمحال عديمة المطر (٥) .

تقول أم بسطام بن قيس الشيباني ترثي ولدها بسطام الذي قتل :

وَتَبْكِيكَ أَسْرَى طَالَمَا قَدْ فَكَّكْتَهُمْ . وَأَرْمَلَةٌ ضَاعَتْ وَضَاعَ عِيَالُهَا (٦)

ونرى أيضا التمدح بغيث الأرامل والأيتام والأخذ بأيديهم (٧) .

وفي الفخر يقول عبيد بن الأبرص :

نَحْمِي حَقِيقَتَنَا وَنَمْنَعُ جَارَنَا وَنَلْفَ بَيْنَ أَرَامِلِ الْإِيْتَامِ (٨)

وثمة صورة للأرملة شديدة الضر قد أعيأها الفقر والجوع المدني من الموت ، تعتمد على يديها في النهوض إذا قامت ، لما لحقها من الهزال ؛ تفقد أحوالها زريعة بن عمرو وجعلها من جملة عياله يقول زريعة :

وَأَرْمَلَةٌ تَتَوَّءُ عَلَى يَدَيْهَا مِنْ الضَّرَاءِ أَوْ قَصَصِ الْهُزَالِ

(١) المفضليات ، ص ٣٦٨ . والأصمعيات ، ص ٢٥٥ . ورواية الأصمعيات للبيت الثاني :

أم من لأشعث لا ينام وأرمل مثل البلية سملة الهدم .

فهذا الأشعث لا ينام من الجوع .

(٢) ينظر ديوان عامر بن الطفيل ، ص ١٠٩ . وديوان الحماسة ، ١/ ١٩٥ .

(٣) المفضليات ، ص ٤١٧ .

(٤) ينظر ديوان عروة ، ص ١٢٠ .

(٥) ينظر ديوان بشر ، ص ١٧٤ . وشاعرات العرب ، ص ١٣٣ .

(٦) شاعرات العرب ، ص ٩٣ .

(٧) ينظر ديوان الأعشى ، ص ١٥٧ .

(٨) ديوانه ، ص ١٣٢ . تلف أي تجمع الأرامل وما عندهن من أيتام ، ونلجئهم إلينا ، الحقيقة : ما يحق عليه أن يحميه .

خَلَطْتُ بِغَثَّهَا سِمْنِي فَأَضَحَتْ شَرِيكَةً مَنْ يُعَدُّ مِنَ الْعِيَالِ (١)

وكم من أرملة هزيلة تسعى بأطفالها ، وقد تلبدت شعورهم وأغبرت ، كأنها نعامه تسوق فراخها ؛ قام الأعشى وقومه بأيوائها دون من عليها بفضلهم ، فأصبحت هذه الأرملة رغبة البال ، وقد رفعوا عنها الكرب والهزال . يقول الأعشى في ذلك من قصيدة في عتاب صديق :

وَأَرْمِلَةٌ تُسْعَى بِشُعْبٍ كَأَنَّهَا وَإِيَّاهُمْ رَبْدَاءُ حَثَّتْ رِئَالَهَا
هَذَا وَلَمْ نَمُنْ عَلَيَّهَا فَأَصْبَحَتْ رَحِيَّةً بَالٍ قَدْ أَرْحَنَا هُزَالُهَا (٢)

وهذا طرفه بن العبد يمدح قتادة بن مسلمة الحنفي أحد أجواد العرب بأنه كان يبذل ويعطي المحتاجين ، ويشفق على الأرملة الهزيلة الشعناء التي تحمل "منقع البرم" . يقول طرفه :

أَلْقُوا إِلَيْكَ بِكُلِّ أَرْمِلَةٍ شُعْنَاءَ تَحْمِلُ مَنْقَعَ الْبُرْمِ (٣)

ب- الأيتام

أصل اليتيم الانفراد .. "فقدان الأب" في الناس ، وفي الحيوان فقدان الأم . واليتيم الذي يموت أبوه ، والعجى الذي تموت أمه ، واللطيم الذي يموت أبواه والجمع أيتام ويتامى ویتمة . واليتيم الانفراد والغفلة الأنثى يتيمة . والأنثى البنت يتيمة ما لم تتزوج . واليتيم الحاجة (٤) .

فاليتيم غالبا ما يكون محتاجا فقيرا إذا لم يجد من أقاربه من يعينه ويأخذ بيده . لذلك نرى الجاهليين يتفاخرون بمساعدة اليتامى الضعفاء المحتاجين ويتمدحون بإغاثتهم . وكان في العصر الجاهلي اليتيم المخدول الذي خذله أقاربه والأباعد أيما خذلان وتخلوا عنه .

تقول سُلَيْمَى بنت المهمل التغلبية في رثاء أبيها :

(١) ديوان الحماسة ، ٣٤٤٥/٢ . الواو واو رب و خلطت جوابها .

(٢) ديوانه ، ص ٣٥٧ .

(٣) ديوانه ، ص ١١٩ . البرم : الواحدة برمة القدر من الحجر ، وقوله "منقع البرم" أي أنهم كانوا ينقعون في البرمة الخيوط التي كانوا يأخذونها من نقض الأكيسة والأخبية ليفزلوها ثانية ويحوكونها نسيجا يتخذون منه الأخبية .

(٤) لسان العرب مادة "يتم" .

لَهْفِي عَلَيْكَ إِذَا الْيَتِيمُ تَخَذَلَتْ عَنْهُ الْأَقَارِبُ أَيْمًا خِذْلَانِ (١)

ونجد كذلك الأيتام المضيعين (٢) واليتيمة المدفوعة (٣) ، واليتيم المدفع الذي يدفعه هذا إلى هذا لا يضيفه أحد لشدة حال الناس وما هم فيه من الجهد .

يقول لبيد مفتخرا بقومه عند حديثه عن القدر أو الجفنة المليئة باللحم :

لَا يَجْتَوِيهَا ضَيْفُهُمْ وَفَقِيرُهُمْ وَمَدَفَعٌ طَرَقَ النَّبُوحَ يَتِيمُ (٤)

ونرى اليتيمة المحزونة مقتولة الآباء لا ترحم . تقول الحرقة وهي هند بنت النعمان بن المنذر تتحدث عن نفسها :

لَا يَرْحَمُونَ يَتِيمَةً مَحْزُونَةً مَقْتُولَةَ الْأَبَاءِ نَضُوءًا تَطْرُدُ
تَبْغِي الْجَوَارِ فَلَا تُجَارُ وَقَبْلُ ذَا كَانَ الْمُنَادِي لِلْجَوَارِ يُسَوِّدُ (٥)

ويكثر اليتامى في الحروب لكثرة قتل الرجال فيها . كما يقول مهلهل بن ربيعة التغلبي محذرا بني بكر في حرب البسوس متوعدا أن يبديد من أجل أخيه كليب - الذي قتل في هذه الحرب - قبائل وقبائل تكثر فيها الأيتام ، يقول من ذلك :

حَتَّى نُبِيدَ قَبِيلَةً وَقَبِيلَةً قَهْرًا وَنَغْلِقُ بِالسَّيُوفِ الْهَامَ
وَيَقْمَنَ رَبَّاتُ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا يَمْسَحْنَ عَرْضَ ذَوَائِبِ الْأَيْتَامِ (٦)

لذلك ترى النساء تخاف من الحروب وتبكي على الصغار اليتامى :

وَتَضِجُ النِّسَاءُ مِنْ خِيفَةِ السَّبْيِ وَتُبْكِي عَلَى الصَّغَارِ الْيَتَامَى (٧)

(١) شاعرات العرب ، ص ٤٠ .

(٢) ينظر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) ينظر السابق ، ص ٤٨ .

(٤) شرح ديوان لبيد ، ص ١٣٦ . يجتويها : يكرها . النبوح : الأحياء .

(٥) شاعرات العرب ، ص ٢٢ . قالت الحرقة القصيدة التي أخذ البيتان منها بعدما طلبها كسرى من أبيها النعمان للزواج ، فرفض النعمان تزويجها من أعجمي ، فجند كسرى الجنود وفتك بالنعمان ، وهربت الحرقة ملتجئة إلى بوادي العرب في خفاء ... وأرسل كسرى صوائح في بلاد العرب ، يحذر من يحمي أو يؤوي الحرقة فقالت الشعر تتأسف على خمود همة العرب وتخاذلهم أمام كسرى .

(٦) الأصمعيات ، ص ١٧٦ .

(٧) ديوان عنتره ، ص ١٨٧ .

ولشدة حاجة اليتامى وفقدهم وحرمانهم من متطلبات الحياة الأساسية ، تسمع لهم عواء عند الشدائد كما يشير حاتم الطائي إلى ذلك مشبها عواء سباع البرية بعواء اليتامى في قوله :

وَدَوِّيَّةٌ قَفَرٍ تَعَاوَى سَبَاعُهَا عَوَاءُ الْيَتَامَى مِنْ حِذَارِ التَّرَاتِرِ (١)

وتجد اليتامى يرضعون بلبن غير لبن أمهاتهم ، أو منعهم اللبن وتغذيتهم بالطعام كالذئباب . يقول ذو الإصبع العدوانى بيتا من الشعر :

إِذَا شِئْتَ أَنْصُرْتَ مِنْ عَقْبِهِمْ يَتَامَى يُعَاجُونَ كَالْأَذْوَبِ (٢)

وكان اليتامى يعيشون أحيانا في جوع شديد وإن لم يكن جذب . ويجوعون كذلك أشد الجوع زمن الجذب والقحط وقلة المطر . أشارت إلى المعنى الثانى ليلى بنت سلمة في رثاء أخيها بقولها :

فَتَى لَا يَعُدُّ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى لَهُ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبَرُ
فَنِعَمُ مَنَاحِ الرِّكْبِ كَأَنَّ إِذَا انْبَرَّتْ شَمَالٌ وَأَمْسَتْ لَا يُعَرِّجُهَا سَبَرُ
وَمَاوَى الْيَتَامَى الْمُحْلِينَ إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابِهِ شُعْنًا وَقَدْ قَحِطَ الْقَطَرُ (٣)

وجاء في لسان العرب من مادة "محل" : المحل الشدة . والجوع الشديد وإن لم يكن جذب . وأرض محل وقحط لم يصبها المطر في حينه . فهم يتفاخرون بتقديم الجفان المليئة باللحم للأيتام الذين يشكون من الجوع في كلب الشتاء وعند اختلاف هبوب الرياح (٤) .

وكان اليتامى من الفقراء لا تسد فقرهم الهدايا التي ترسل إليهم في كل قدح مجبور ، والذي يخفف عنهم هذا الفقر من يعطف عليهم ويمنحهم الأبل التي في المرعى كلها حتى يصبح بيت المتفضل عليهم بإبله مثل البيت الذي لا إبل فيه . وكان الأخ الكريم يحب أن يبذل لبني أخيه ما يدفع عنهم الفقر والجوع والمسغبة وإن كان منه ما يفقر بنيه ويجوعهم ؛ يقول حجية بن المضرب في هذا المعنى يخاطب زوجته التي عاتبته على هذا الكرم :

(١) ديوانه ، ص ٨٦ .

(٢) ديوانه ، ص ٣٠ . والعقب بكسر القاف وسكونها : ولد الرجل وولد ولده .

(٣) شاعرات العرب ، ص ٦٨ .

(٤) ينظر شرح المعلقات اسبع ، ص ٩٨ . من معلقة لبب .

رَأَيْتُ الْيَتَامَى لَا تَسُدُّ فَقُورَهُمْ هَدَايَا لَهُمْ فِي كُلِّ قَعْبٍ مُشْعَبٍ
فَقُلْتُ لِعَبْدَيْنَا أَرِيحَا عَلَيْهِمِ سَأَجْعَلُ بَنِيَّ مِثْلَ آخِرِ مُعْرَبٍ
بَنِيَّ أَحَقُّ أَنْ يَنَالُوا سَعَابَةَ وَأَنْ يَشْرَبُوا رَنَقًا لَدَى كُلِّ مُشْرَبٍ (١)

وتمدح الشعراء الجاهليون بمن يكون غيثا لليتامى في السنين الشداد (٢) . وفي شعر الرثاء يكون المرثي "أبو الأيتام" (٣) و "وجدت أبي ربيعا لليتامى" (٤) وكما يقول أمية بن أبي الصلت في بيت شعر له :

وَأَبُو الْيَتَامَى كَانَ يُحْسِنُ أَوْسَهُمْ وَيَحُوطُهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ جَاحِدٍ (٥)

وكما يقول الأسود بن يعفر في رثاء سيد جواد عند حديثه عن جفنة :

يَسَّرَتْهَا لِيَتَامَى أَوْ لِأَزْمَلَةٍ وَكُنْتُ بِالْبَائِسِ الْمَتْرُوكِ مَحْقُوقًا (٦)

فاليتامى والأرامل لديهم الحق في البكاء والحزن على المرثي الذي كان يعطف عليهم (٧) .

-
- (٢) ديوان الحماسة ، ٣٥/٢ . والبيتان الأول والثاني للسموأل في ديوانه ، ص ٧٨ . الرنق : الماء المكدر وكني به عن سوء الحال .
- (٣) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٦٩ . ديوان الأعشى ، ص ١٤١ .
- (٤) ديوان امرئ القيس ، ص ١٣٢ .
- (٥) شرح ديوان لبيد ، ص ٤٠ .
- (٦) شرح ديوانه ، ص ٣٧ . الأوس : الإعطاء والتعويض . يحوطهم : يتعهدهم بعنايته . العام الجاحد : عام الجذب والقحط .
- (٧) ديوانه ، ص ٥٢ .
- (٨) ينظر ديوان الحماسة ، ٤١٤/١ .

الفصل الخامس

آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي

الفصل الخامس

آثار الفقر كما بدت في الشعر الجاهلي

-١-

الآثار الجسدية

١- الجوع

لقد كثر حديث الجوع والجياح في الشعر الجاهلي ، من حيث هو أثر من آثار الفقر ، فقر البيئة والإنسان . وجاء هذا الحديث عن الجوع في أغراض الشعر المختلفة مبنوثة في القصائد والمقطوعات والأبيات المتفرقة ، وأشار الشعراء إلى أسباب الجوع وزمانه في العصر الجاهلي . ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابي : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدي إلى أمعاء ضيقة (١) .

* * *

وغالبا ما يكون الجوع في السنة الجذباء ، حتى أن السنين التي يكثر فيها الجوع تسمى المجاوع . يقول أبو خراش الهذلي في رثاء أخيه عروة الذي أثرت فيه سنوات الجوع ، لأنه كان يؤثر صحبه على نفسه بزاده فيجوع ليشبعهم لأنه صاحب همة عالية يبغى المكارم :

وَلَكِنَّهُ قَدْ نَازَعَتْهُ مَجَاوِعٌ عَلَى أَنَّهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهْضِ (٢)

لذلك نراهم يتفاخرون بالإطعام في سنوات الجذب والمحل والقحط والجوع . كما يقول عنتره العبسي مفتخرا بقومه :

الْمُطْعَمُونَ إِذَا السَّنُونَ تَتَابَعَتْ مَحَلًّا وَضَنَّ سَكَابُهَا بِسِجَالٍ (٣)

وأكثر ما يجوع الناس في هذه البيئة الصحراوية التي تقوم على الصراع ، صراع الإنسان مع البيئة ، في الشتاء الجذيب ، فهذا الفصل من السنة شديد الوطأة على الناس ببرده ورياحه

(١) المحاسن والمساوي ، للبيهقي ، ص ٣٧٦ .

(٢) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٢٧/١ . وفي ديوان الهذليين ، ١٥٨/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٤٩ . وينظر في مثل هذا المعنى على سبيل المثال في ديوان بشر بن أبي خازم ، ص ٢٩٨ . وديوان عامر بن الطفيل ، ص ٤٦ . وشرح شعر زهير ، ص ٩٣ . وديوان الحماسة ، ٢/ ٢٤٦ .

وأثره السيء على الحيوان والنبات اللذين كانا مصدرين هامين من مصادر الرزق للإنسان الجاهلي .

والعرب تجعل الشتاء مجاعة ؛ لأن الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون للإنتجاع . ويقال أشتى القوم فهم مشتون إذا أصابتهم مجاعة . وشتا القوم يشتون أي أجذبوا في الشتاء خاصة . والعرب تسمي القحط شتاء لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد . وقال الحطيئة وجعل الشتاء قحطا :

إِذَا نَزَلَ الشَّتَاءُ بِدَارِ قَوْمٍ تَجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشَّتَاءُ (١)

لذلك نرى الشعراء الجاهليين يتمدحون بإطعام الجياع في فصل الشتاء . فهذا زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان بكرمه وجوده ، وأنه ماوى الجائعين إذا هبت ريح الشتاء :

تَاللَّهِ قَدْ عَلِمْتُ قَيْسَ إِذَا قَذَفَتْ رِيحُ الشَّتَاءِ بَيْتَ الْحَيِّ بِالْعُنَنِ
أَنْ نَعْمَ مُعْتَرِكُ الْحَيِّ الْجِيَاعِ إِذَا خَبَّ السَّفِيرُ وَمَاوَى الْبَائِسِ الْبَطْنِ (٢)

وكما يقول الأفوه الأودي مفتخرا :

فِينَا لِنُعْلَبَةَ بَنِ عَوْفٍ جَفَنَةً يَأْوِي إِلَيْهَا فِي الشَّتَاءِ الْجُوعُ (٣)

ويكون الجوع عند البرد الشديد . يقول امرؤ القيس بن حجر في مدح طريف بن ملء من طيء ويشيد بكرمه وجوده في ليلة الجوع والبرد :

لَنَعْمَ الْفَتَى تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ طَرِيفُ بَنِ مُلْءٍ لَيْلَةَ الْجُوعِ وَالْخَصَرِ
إِذَا الْبَازِلُ الْكُومَاءُ رَاحَتْ عَشِيَّةً تُلَاوِذُ مِنْ صَوْتِ الْمُبْسِينَ بِالشَّجَرِ (٤)

ويكون الجوع في الشتاء ويحصل في فصل الصيف كذلك (٥) .

* * *

ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففي أخبار عروة أن أناسا من بني عبس أجذبوا في سنة أصابتهم ، فأهلكوا أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس . فأتوا عروة

(١) ينظر لسان العرب مادة "شتا" .

(٢) شرح شعره ، ص ٩٩ . وقريب من هذا المعنى ينظر أيضا ، ص ٧٨ . معترك : حيث يزدهمون . البطن : الذي قد لزق ظهره ببطنه جوعا . خب السفير : وهو ورق الشجر تحته الريح ، فيمر على الأرض .

(٣) ديوانه ، ضمن الطرائف الأدبية ، ص ١٩ .

(٤) ديوانه ، ص ١٠٦ . تعشو : تنظر ببصر ضعيف . الخصر : شدة البرد .

(٥) ينظر الأغاني (دار الثقافة بيروت) ، ٣٥٠/٢٠ .

يستجدون به ، فخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا (١) .

ونجد الأعم الهذلي يتحدث عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه :

وَذَكَرْتُ أَهْلِي بِالْعَرَا وَحَاجَةَ الشُّعْثِ الْقَوَالِبِ
الْمُضْرِمِينَ مِنَ التَّلَا دِ اللَّامِحِينَ إِلَى الْأَقَارِبِ (٢)

وقد تحدث بعض الشعراء الجاهليين عن جوع العيال أثناء حديثهم عن الخيل ، إذ من المعروف أن العرب كانوا يعتزّون بالخيّل أشد الاعتزاز ؛ لأنها سلاحهم ، وركوبتهم ، في هذه البيئة الصعبة ، فهم يقدون الخيل بأنفسهم ، وتؤثر على الأولاد ، فتشبع الخيل ويجاع لها العيال ، كما يشير إلى ذلك رجل من تميم ، وقد طلب منه بعض الملوك فرسا يقال لها سكاب ، فمنعه إياها قائلا :

أَبَيْتَ اللَّغْنَ إِنْ سَكَابَ عُلُقَ نَفِيسٌ لَا تُعَارُ وَلَا تُبَاعُ
مَقْدَاةً مَكْرَمَةً عَلَيْنَا يَجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا تَجَاعُ (٣)

فإذا كان الشاعر أو غيره يجوع أبناءه من أجل خيله يطعمها ، ويذيقهم حسرة الحرمان والجوع زمن الشدة والفقر ، نجد من يبخل على فرسه بالحياة وينحرها من أجل صبية جياع يتعاوون كالذئاب جوعا في سنة أصابت الناس ، فأذهبت الخف والظلف ، وأتت ليلة عليهم أسهرتهم من الجوع ، فلا غرو أن يقوم حاتم الطائي بهذا العمل المشهود له بالكرم والجود ، وأكثر من ذلك أنه في تلك الليلة ، وبعد أن ذبح فرسه وأطعم الناس الجياع .. فأكلوا جميعا وأصبح هو أشد جوعا وما ذاق شيئا (٤) .

* * *

فحاتم الطائي يبیت جائعا ؛ لأنه يؤثر الآخرين على نفسه ، ويستحي أن يملأ بطنه وغيره جائع . يقول :

أَبَيْتَ خَمِيصَ الْبَطْنِ مَضْطَمِرَ الْحَشَا حَيَاءً أَخَافُ الذَّمَ أَنْ أَتَضَلَّعَا (٥)

(١) الأغاني (دار الكتب المصرية) ، ٨٢، ٨١/٣ .

(٢) ديوان الهذليين ٨١/٢ .

(٣) ديوان الحماسة ، ٦٧/١ .

(٤) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص ٣١ . وينظر في جود حاتم وكرمه الأغاني (بيروت) ، ٢٨١، ٢٧٨/١٧ .

(٥) ديوانه ، ص ٩٩ . وديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٢٣/٢ .

ويقول أيضا :

لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبُطْنَ وَالزَّادَ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمًا أَنْ يُقَالَ لُنَيْمٍ (١)

وحاتم لا يرى الخمص تعذيبا ، ولا يرى في الجوع مشكلة ، على نفسه أو على من يجد صورته فيه ، لذلك تراه يذم الصعلوك الذي يعد الجوع تعذيبا ، إذ يقول:

يَرَى الْخَمَصَ تَعْذِيبًا وَإِنْ يَلْقَى شَبْعَةً يَبْتَ قَلْبُهُ مِنْ قَلَّةِ الْهَمِّ مُبْهِمًا (٢)

ولكن الوجه الآخر الإيجابي المشرق الذي يوافق حاتما في نظريته للجوع هو ذاك الصعلوك المثابر الذي لا يعد الجوع شيئا يهتم له ، ولا إذا شبع وملا بطنه يفرح ؛ يقول حاتم في ذلك:

فَتَى طَلِبَاتٍ لَا يَرَى الْخَمَصَ تَرْحَةً وَلَا شَبْعَةً إِنْ نَالَهَا عَدَّ مَعْنَمًا (٣)

فكيف لا يعتبر حاتم الطائي الجوع مشكلة ، وكيف يذم من يرى في الجوع عذابا وحزنا وهما ، وليس هذا فحسب ، بل يتمدح أيضا بأنه يبيت جائعا !

يفسر ذلك بنفسه ، فهو يخاف أن يذمه أحد إذا شبع أو سمن . أو مخافة أن يقال لنويم يجوع ويبيت جائعا .. ويمدح من لا يرى في الجوع هما . أكل ذلك مخافة كلام الناس ؟ أو حياء منهم ! فأين حرصه على نفسه ؟ وما طبيعة هؤلاء الناس الذين يخاف مذمتهم ؟ .

يفسر لنا هذا - كثرة الجائعين زمن حاتم ، وأنه يخاف لومهم ، ولا ننسى أيضا أنه كان سيذا من سادات قومه .

فبيئة الجزيرة العربية فقيرة في نباتها وحيوانها ومواردها ، والكل معرض في هذه البيئة للجوع في كل زمان ومكان . فالحيوان يجوع (٤) والإنسان يجوع : الشيخ الكبير (٥) وكذلك الصغار (٦) ، ويجوع الحي بأكمله (٧) .

* * *

ومن صور الجوع المضني ، ما نراه في عينية الحادرة ، حين يصف الفتية الجوعى المتبطحين على الكنيف ، فأكرمهم وجاد عليهم ، فطبخ لهم .. ، وكان من بينهم رجل أشعث

(١) ديوانه ، ص ١١٥ .

(٢) ديوانه ، ص ١١٢ .

(٣) السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ينظر مثلا ديوان الهذليين ، ١٠٦، ٩٧، ٧٩/٢ . والأصمعيات ، ص ١٠٩ .

(٥) ينظر مثلا ديوان الهذليين ، ٩٠، ٥٤/٢ .

(٦) ينظر السابق ، ٨١/٢ .

(٧) ينظر السابق ، ٣٩/١ .

مضرور ، قد أضناه الجوع ، يحلف من الجهد والضرر ليطعمه .. ويمد يده يقول : قد أنضجت ؛ ولما ينضج بعد ، لشدة جوعه . يقول الحادرة :

وَمُعْرَضٌ تَغْلِي الْمَرَاةُ تَحْتَهُ عَجَلْتُ طَبَخْتَهُ لِرَهْطِ جُوعٍ
وَلَدَيَّ أَشْعَثُ بِاسِطٍ لِيَمِينِهِ قَسَمًا لَقَدْ أَنْضَجْتُ لَمْ يَتَوَرَّعْ (١)

فلماذا خص الحادرة القسم بواحد من الرهط الجوع ؟ مع أن الشاعر عجل في إنضاج الطعام لهم جميعا ، نقول : إنه الجوع الشديد . ولكن ألم يكن أولئك في جوع شديد أيضا مثل هذا الأشعث ؟ بلى ، ولكنها الطبيعة البشرية المختلفة في قدراتها على التحمل . فهذا الأشعث الذي أقسم ... قد فقد صبره . وكأنه فقد صوابه - فلم يستطع تحمل هذا الجوع الشديد دون الآخرين ، فأطلق صرخة من أعماق صدره ، تعبر عن جوعه . إذا فللجوع درجات ، حسب قدرات الناس على التحمل والصبر . فالجوع الشديد يعرض عضوا ، كما تصرح غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي التي عضها الجوع ، فألّت على نفسها أن لا تمنع جائعا ، تقول :

لَعَمْرِكَ قَدِمَا عَضَّنِي الْجُوعُ عَضَّةً فَأَلَيْتُ أَنْ لَا أَمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعًا (٢)

والشنفري يرسم صورة من صور الجوع والحرمان الشديدين في قوله :

وَأَطْوِي عَلَى الْخُمْصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ خَيْوِطَةَ مَارِي تَغَارُ وَتُقْتَلُ
وَأَغْدُو عَلَى الْقَوْتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَا أَزَلَّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ (٣)

ونجد الرجل الجائع ، تشتد عليه سخفة الجوع ، فيعصب بطنه بحجر (٤) ؛ لذلك ترى الشعراء الجاهليين قد تمدحوا بمن يؤوي هذا المعصب ، ويعطف عليه . من ذلك يقول قيس بن الخطيم في مدحه خدّاش بن زهير بالكرم والعطاء وأنه ماوى لكل جائع قد هلك ماله :

رَحِبَ الْمَبَاءَةِ وَالْجَنَابِ مُوْطَأً مَاوَى لِكُلِّ مَعْصَبٍ مِسْوَأٍ (٥)

(١) ديوان شعره ، ص ٣١٧-٣١٨ . والمفضليات ، ص ٤٦ . المعرض : اللحم الذي لم ينضج .

لم يتورّع : لم يكف عن اليمين ، مضى عليها .

(٢) شاعرات العرب ، ص ٩١ . والأغاني (بيروت) ، ٢٨٠/١٧ . وذيل الأمالي والنسوار للقاللي ، ص ٢٣ .

(٣) النواذر ، ص ٢٠٤ .

(٤) وجاء في لسان العرب مادة "عصب" : عصبتهم السنون : أجاعتهم . ورجل معصب : فقير . وعصب الدهر ماله : أهلكه .

(٥) ديوانه ، ص ١٩١ .

ويقول بشر في مدح عمرو بن حجر أكل المرار من ملوك كندة :

بحرٍ يفيضُ لمنْ أناخَ بِبَابِهِ مِنْ سَائِلٍ وَثَمَالٍ كُلِّ مُعَصَّبٍ (١)

وتحدث الشعراء الجاهليون عن جوع أبناء الصائد الفقير المسكين ، الذين يعتمدون على ما يصطاده لهم أبوه من حيوانات الصحراء . هذا الصائد - ينجح أحيانا - في رحلة صيد شاقة ، فيأكل ويأكلون ، وكثيرا ما يخيّب ، فتراه حزينا كئيبا على نفسه وعياله الذين يتضورون جوعا . خاب رب الأسرة ، وعادت هذه الخيبة على أولاده المساكين .

فهذا ربيعة بن مقروم الضبي يصف في قصيدة عينية له صائدا من بني جلان ليس له متاع غير قوسه وأسهمة ، وهو إذا لم يصد ويوفر لحما طريا لأولاده جاعوا ، يقول في الصائد :

إِذَا لَمْ يَجْتَزِرْ لِبَنِيهِ لَحْمًا غَرِيضًا مِنْ هَوَادِي الْوَحْشِ جَاعُوا (٢)

وهذا صائد يصيد بقوسه وأكلبه ، وقد فقد هذا الصائد كلبين من كلابه ، فساعت حاله ، وأيقن بالخيبة والجوع . فأخذ يستجدي الناس فلم يعطوه شيئا . فعاد إلى أولاده الذين يشبهون السهام في ضعفهم ونحولهم وسوء حالهم ، وقابل زوجته الحمقاء تنتظر الغنيمة . لكن ما حصل هو العكس ، فهو الذي طلب منها طعاما يسد به جزءا من جوعه ، وهو يذم الناس لها . فأشارت عليه أن يستغني بالماء عن الطعام ، فأجابها إلى ذلك . ولكنه كان شديد الضعف والإعياء . وحاول النوم فلم يستطع لجوعه الشديد . يقول في ذلك مزرد بن ضرار الذبياني :

بَنَاتُ سُلُوقِيَّيْنِ كَانَا حَيَاتَهُ	فَمَاتَا فَأَوْدَى شَخْصُهُ فَهُوَ خَامِلٌ
وَأَيَقَنَ إِذْ مَاتَا بِجُوعٍ وَخَنِيَةٍ	وَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ إِنَّكَ عَائِلٌ
فَطَوَّفَ فِي أَصْحَابِهِ يَسْتَتِيبُهُمْ	فَأَبْ وَقَدْ أَكَدْتُ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ
إِلَى صَبِيَةٍ مِثْلِ الْمَغَالِي وَخَزْمِلٍ	رَوَادٍ وَمِنْ سَرِّ النِّسَاءِ الْخَرَامِلُ
فَقَالَ لَهَا : هَلْ مِنْ طَعَامٍ فَإِنِّي	أَذَمُّ إِلَيْكَ النَّاسَ أُمَّكَ هَابِلٌ
فَقَالَتْ نَعَمْ هَذَا الطَّوِيُّ وَمَاؤُهُ	وَمُخْتَرِقٌ مِنْ حَائِلِ الْجِدْرِ قَاحِلٌ
فَلَمَّا تَنَاهَتْ نَفْسُهُ مِنْ طَعَامِهِ	وَأَمْسَى طَلِيحًا مَا يُعَانِيهِ بَاطِلٌ
تَغَشَّى يُرِيدُ النَّوْمَ فَضَلَّ رِدَائِهِ	فَأَعْيَا عَلَى الْعَيْنِ الرَّقَادُ الْبَلَابِلُ (٣)

(١) ديوانه ، ٣٨ . الشمال : الملجأ والغياث والمطعم في الشدة .

(٢) المفضليات ، ص ١٨٩ .

(٣) السابق ، ص ١٠١-١٠٢ .

فهذا الصائد المسكين ، وهو جزء من المجتمع الجاهلي ، حرم النوم بسبب الجوع ، وكان قد حاول أن يدفع الجوع عن نفسه وعن عياله وأسرته ، بأن خرج في صيد يبغي لحما طريا ، لكنه خاب من هذا الباب ، فطرق بابا آخر ، وهو استجداء الناس ، ولكنه أغلق أمامه أيضا ؛ فهو لهذا إذن يسبب الناس ، ويذمهم أمام زوجته ، ليطالب عذرا لنفسه على هذا التقصير ؛ وأي تقصير هذا الذي يسبب جوع أسرة كاملة ، ويحرمهم النوم أيضا ؟ .

• • •

ومن آثار الجوع الشديد على الإنسان الجاهلي ، الإرهاق والضعف والهزال . وكان من آثار قلة الزاد ضعف الجسم وبروز العظام ، والتصاق الأمعاء من شدة الجوع (١) .
وكان يبلغ الجوع مبلغه في صغار السن . فالغلام كان يلقي بكفيه من الجوع ضعفا وهزالا (٢) .

ومن آثار الجوع الشديد الدوار والدوخان وإظلام البصر . هذا ما يحدثنا به السليك بن السلوك الصعلوك (٣) عندما حصل في إحدى غزواته على غنيمة صغيرة ، هي عدد من الإبل ، فقرت بها عينه ، ورأى فيها على صغرها غاية كان يهفو إليها ، فلم يبلغها إلا بعد جهد شديد ، وعرض نفسه للموت ، وتجشم الأخطار . وحين ننظر فعلا إلى غارته هذه نرى فيها مدى الجهد والمخاطرة ، فالسليك موطنه ديار بني تميم في اليمامة والرباب في الشمال من الحجاز ، وغارته هذه كانت في جوف مراد باليمن ، فبعد هذا السفر الطويل وما يكتنفه من مخاطر الصحراء والجبال والمهالك ، يجد السعادة وقرّة العين في عدد من الإبل ، وحين نرى ما يحدثنا به من صور الجوع التي كان يعانيها نعلمه إن هو سعد بما دون ذلك ، فمن هذه الصور ما يقوله في هذا الشعر ، من أنه كان يعاني الجوع الشديد في الوقت الذي يخصب فيه الناس وهو الصيف ، فضلا عما يجذبون فيه من أوقات ، وإن هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ بالشاعر حالة من الضعف والإعياء والهزال تجعله يفقد توازنه ويخف بصره إذا قام ، كما يقول :

وَمَا نَلْتَهَا حَتَّى تَصْعَلَكُ حِقْبَةً وَكِدْتُ لَأَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ أَعْرِفُ

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ١٩٠/١ . وديوان تأبط شرا ، ص ١١٥ . وشرح ديوان لبيد ، ص ٣١٩ .

(٢) ينظر شرح ديوان لبيد ، ص ٢٧٧ .

(٣) ينظر في هذا الحديث شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، عبد الحليم حقني ، ص ١٩١ .

وَحَتَّى رَأَيْتُ الْجُوعَ بِالصَّيْفِ ضَرَّنِي إِذَا قُمْتُ تَغَشَّانِي ظِلَالٌ فَأُسَدُّ (١)

وإذا ما اجتمع الجوع المبرح والهوى على الرجل المسكين كاد يموت :

إِذَا اجْتَمَعَ الْجُوعُ الْمُبْرَحُ وَالْهَوَى عَلَى الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ (٢)

* * *

فهذا هو الجوع المضني الذي كان الإنسان الجاهلي يعاني من آثاره التي قد تؤدي به وتهلكه في ظروف البيئة الصحراوية الفقيرة التي تجعل الجوع ظاهرة متكررة وشرا يلاحق الإنسان في كل مكان . فالجوع متوقع في كل وقت .

لذلك روض الجاهليون أنفسهم على الصبر وقوة الإرادة لتحمل وطأة هذا الجوع الشديد وظلمه العنيف . وكان الجاهليون يبسرون بالإبل عندما يشيع الجوع بين الناس ، ولا راد لهذا الجوع غير الضرب بالقداح . يقول علقمة بن عبدة مفتخرا :

وَقَدْ يَسَّرْتُ إِذَا مَا الْجُوعُ كَلَّفَهُ مَعْقَبَ مِنْ قِدَاحِ النَّبْعِ مَقْرُومٍ (٣)

ونجد التفاخر والتمدح بالميسر وقت الجذب وزمن الشدة كثيرا ما يطرقه الشعراء الجاهليون في شعرهم (٤) . ويتفاخرون بالكرم والجود والعطاء ، وإطعام الجائع . يقول علقمة أيضا :

أَمْسَى بَنُو نَهْشَلٍ نَيَّانُ دُونَهُمْ الْمُطْعَمُونَ ابْنُ جَارِهِمْ إِذَا جَاعَا (٥)

ويتمدحون بـ "مطعم الجوع الهلكى إذا سغبوا" (٦) .

وكان الرجل الجاهلي في سنة الجذب ، إذا هجم عليه شبح الجوع ، أخذ عرق بعير وفصده وتلقى دم الفصد في مصير ، حتى إذا امتلأ ، عقده من رأسه ، وشواه على النار وأكله . يؤكد ذلك ما قاله عارق وهو قيس بن جروة الطائي في هجاء عمرو بن هند بالغدر :

(١) الأغاني (بيروت) ، ٣٥٠/٢٠ .

(٢) ديوان الحماسة ، ٤٠٥/٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٧٧ . وفي المفضليات ، ص ٤٠٣ . المعقب : القدح الذي يفوز فوزا بعد فوز . المقروم أي القدح المعلوم بالفوز فقد وسم لجودته .

(٤) ينظر مثلا ديوان بشر ، ص ١١٩، ٧٧ . وشاعرات العرب ، ص ٦٠ . وديوان الخنساء ، ص ٤٩ .

(٥) ديوانه ، ص ١٢٦ . وبنو نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم . نيان : اسم جبل في بلاد قيس أو موضع في بادية الشام .

(٦) ديوان الخنساء ، ص ١٣ .

وَقَدْ يَتْرَكَ الْغَدْرَ الْفَتَى وَطَعَامَهُ إِذَا هُوَ أَمْسَى حَلْبَةً مِنْ دَمِ الْقَصْرِ (١)

فصحيح أن هذه الطريقة لدفع جزء بسيط من الجوع الشديد تشعرك بالتقزز ، لكنه شبح الجوع ، إما أن تهلك وإما أن تأكل دم البعير بعد شوائه لسد الرمق . فالجاهلي وغير الجاهلي يفضل الحياة على الموت ولو أكل الجيف الميتة أو حتى أدنى من ذلك .

وكان بعض الناس من شدة القحط يعضغون الشجر الشائك ، فتسمع من تحت أسنانهم مثل الصرير (٢) . وكانوا يأكلون ما لا يؤكل ، وذلك عند الجوع الشديد (٣) .

وكانوا إذا جهدهم العطش الشديد في سفر أو غزو ، افتظوا كروش دوابهم ، فشربوا ما فيها من الماء . يشير إلى ذلك علقمة بقوله :

وَقَدْ أَصَاحِبُ فِتْيَانًا طَعَامُهُمْ خَضِرُ الْمَزَادِ وَلَحْمٌ فِيهِ تَنْشِيمٌ (٤)

وكانوا يأكلون التراب ، ويغتبقون الماء القراح . فهذا الشنفري يجوع جوعاً شديداً ، فيستف تراب الأرض حتى لا يتفضل عليه أحد بمئة . يقول :

وَأَسْتَفُّ تَرَبَّ الْأَرْضِ كَيْ لَا يَرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مَطْوَلٌ (٥)

وهذا أبو خراش الهذلي يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل ، إذ يقول :

وَأَغْتَبِقُ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ فَأَنْتَهِي إِذَا الزَّادُ أَمْسَى لِلْمَزَلَجِ ذَا طَعْمٍ (٦)

(١) ديوان الحماسة ، ١٩٩/٢ . والمعنى : قد يترك الإنسان الغدر وهو في شدة العيش فكيف لا تتركه وأنت ملك .

(٢) ينظر شرح ديوان أمية ، ص ٤٤ .

(٣) ينظر شرح ديوان ليبيد ، ص ٢٧٧ .

(٤) ديوانه ، ص ٧٧ . وجاء في لسان العرب "نشم" : خضر المزاد : الفظ ، وهو ماء الكرش . وفي "سمط اللآلي" للبكري ، ٣٤٨/١ : خضر المزاد يعني الكروش لما حملت الماء سماها مزادا والمزاد : القرب . وجاء في المعاني الكبير ، ٣٨١/١ : "كانوا إذا غزوا وسافروا قطعوا اللحم فجعلوه في كرش فإذا أتى عليها أيام تغير ، فذلك تنشيمه ، ثم قال : وتخضر الكرش إذا تغير اللحم فيها ، فشبه خضرتها بالمزاد إذا اخضر من الماء ، أي يأكلون الكرش وما فيها عند إيغالهم في السفر . وفي "الحيوان" للجاحظ ، ٣٢/٥ : هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية ، وفي الصيف الذي يغير الطعام والشراب ، والغزو على هذه الصورة من المفازر .

(٥) النوادر ، ص ٢٠٤ .

(٦) ديوان الهذليين ، ١٢٧/٢ .

وقد عرف الجاهليون في بعض الظروف الصعبة التي يواجهونها ويصلون حرارة الجوع في ظلها ، كأن يكونوا في سفر طويل ، أو غارة من غاراتهم ، أو غزوة من غزواتهم البعيدة عن ديارهم ، أو كانوا في سنة قحط وجوع ، ويخافون نفاد زادهم فيتعرضون لجوع مهلك ، عرفوا نظاما لتقنين الطعام وترشيده ، فيتناولون جزءا من الطعام يمنع عنهم الجوع لئلا يتعرضوا لجوع أشد مميت . فهذا الشنفرى الأزدي الصعلوك ، يصف حياته في رفقة من الصعاليك ، وقد وكلوا أمر زادهم إلى تأبط شرا ، وكان الأخير حكيما في سياسته وتعامله مع الزاد القليل . فقد وجد تأبط شرا أن الطعام قليل ، فأخذ يقتّر عليهم ولا يعطيهم إلا القليل من الطعام الذي لا يرد الجوع عنهم ولكنه بذلك يصرف عنهم جوعا أشد : فيقول الشنفرى :

وَأَمْ عِيَالٍ قَدْ شَهِدْتَ نَقْوَتَهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْتَحْتُ وَأَقَلْتُ
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعَيْلَ إِنَّ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعَ أَيَّ آلٍ تَأَلَّتْ
وَمَا إِنَّ بِهَا ضِنًّا بِمَا فِي وَعَائِهَا وَلَكِنَّهَا مِنْ خِيفَةِ الْجُوعِ أَبْقَتْ (١)

ولدفع الجوع الشديد كانوا يقومون بالغارات للحصول على الزاد . "وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام" (٢) . فكانوا يتجشمون الأخطار كي يستولوا على بعض الغنائم كالإبل والأغنام . وقد ينجح أحدهم في ذلك فيدفع عنه الجوع ، وقد يخيب ، فيظل جائعا حتى تتاح له فرصة أخرى . فلا غرو أن يكون الجوع وراء تلك الغارات والغزوات . "فالجوع - كما يقرر علماء الاجتماع - أول الدوافع المسيطرة على الإنسان" (٣) . وخصوصا إذا علمنا أن الجزيرة العربية - وهي موطن هذا الجاهلي - قليلة الموارد قليلة الخيرات ، شحيحة الماء ، تضيق مراعيها بإبلها وأنعامها . وقد أشاعت هذه العوامل الفقر بين سكانها ، ذلك الفقر الذي كان الحافز الأساسي للغزو والغارات ، ولعله هو الذي جعل حياة الفرد هينة عليه أحيانا فكما أن الفقر والبؤس يحجبان نور الحق عن أصحابها يصبح الجوع حافزا يخلق من أهله أسودا كواسر تهجم على غيرها في غير رحمة ، ، لتحفظ عليها حقها في الحياة (٤) .

فهذا أبو خراش الهذلي يتحدث عن ابنه خراش الذي خرج في غزوة من غزوات الصعاليك هو وعمه عروة ، فيقتل عروة وينجو خراش حين أشفق عليه أحد الأعداء ، فألقى عليه رداءه ،

(١) المفضليات ، ص ١١٠، ١١١ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ، ٢٤٦/١ .

(٣) نقلا عن الشعراء الصعاليك ... يوسف خليف ، ص ٢٩ .

(٤) ينظر الشعر وأيام العرب ... عفيف عبد الرحمن ، ص ٧٣ .

وشغل القوم عنه بقتل عروة ، فأخذ خراش يعدو عدوا يشبه الطائر كما يصفه أبوه حتى نجا ، فيقول أبو خراش مدافعا عن فرار ابنه ، مبينا أن سبب غارته لم تكن عداوة بينه وبين أحد . وإنما الرغبة في دفع غوائل من الجوع أضرت به ، فلما لم تتح له الغنيمة أثر النجاء :

ولم يكُ مثْلُوجِ الفؤادِ مهيجا أضاع الشَّبَابَ في الرِّبِيلَةِ والخَفْضِ
ولكنه قد نازَعَتْهُ مَخَامِصُ على أَنَّهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهْضِ
كانهم يَشْبُثُونَ بطائرٍ خَفِيفِ المِشَاشِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْصِ (١)
وهذا عروة يشير إلى أن الغزو أفضل من الجوع إذ يقول :

أَقِيمُوا بَنِي لُبْنَى صُدُورَ رَكَابِكُمْ فَكُلْ مَنَايَا النَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ الْهَزْلِ (٢)

ومهما تكن وسائل دفع الجوع متنوعة ، إلا أن الجوع يبقى ويستمر ، ويزداد الجائعون جوعا ، لهذا نرى الجاهليين قد عودوا أنفسهم على الصبر والثبات عند الشدائد واللزبات . فصبروا على الجوع (٣) . يقول الحارثة مخاطبا سمية :

لَوْ تَصْدُقِينَ لَقُلْتَ إِنَّهُمْ صَبِرَ عَلَى النَّجْدَاتِ وَالْأَزْلِ
وَعَلَى الرِّزْيَةِ مِنْ نَفْسِهِمْ وَتَلَاتِلِ اللَّزْبَاتِ وَالْقَتْلِ (٤)

فلما كان هذا الجوع المضني ليس شيئا عارضا في حياة الجاهليين خصوصا الصعاليك منهم ، وإنما هو حالة إن لم تكن دائمة فهي متوقعة لديهم دائما ، فقد راضوا أنفسهم عليه ، وهدتهم التجارب إلى طرق يعالجونه بها ، وأيا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة الإرادة والصبر الشديد ، فمن ذلك ما يحدثنا به الشنفرى في معالجته الجوع من أنه يصبر عليه ، ويجاهد في تجاهله وتناسيه حتى ينجح في التغلب على الإحساس بوطأته ، مبينا أنه يفضل هذا كله ، بل يفضل أن يستف تراب الأرض إذا لم يقو على احتمال الجوع على أن يمن عليه

(١) ديوان الهذليين ، ١٥٨/٢ - ١٥٩ . والأغاني (بيروت) ، ١٤٣/٢١ . مهيجا : متقل . مثْلُوجِ : الفؤاد : ضعيف القلب . الرِّبِيلَةُ كثرة اللحم وتماحه .

(٢) الأغاني (دار الكتب المصرية) ، ٨٢/٣ . أقيموا أي وجهوا الغزو وانصبوا له ، والهزل : الجوع والهزل الجائع ويقال هزل الرجل دابته . والبيت في ديوان عروة بن الورد ، ص ١١٤ .

(٣) ينظر مثلا الحماسة البصرية ، ٦٢/١ .

(٤) ديوان شعره ، ص ٣٤٠ . الأزل : الضيق . الرزية : المصاب في النفس والمال . التلاتل : الزلازل . اللزبات : الأزمنة الشداد : يقال نزلت بالناس لزبة أي جوع وشدة .

إنسان بإطعامه وأنه لولا عزة نفسه والارتفاع بها عما يشينها لما عز عليه طعام ولا شراب فيقول في لاميته :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأستف ترّب الأرض كي لا يرى له عليّ من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتتاب الذام لم ينبق مشرب يعاش به إلا لديّ ومأكّل (١)

وأبو خراش الهذلي يقول أنه في صراعه مع الجوع يتنزع بالصبر الشديد ، حتى يمل الجوع هذا الصبر فيذهب وهو يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل ، فيقول :

وإني لأتوي الجوع حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرّمي
وأغتبّق الماء القراح فأنتهي إذا الزاد أمسى للمرّج ذّا طعم
أرذّ شجاع البطن قد تعلّمينه وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلك وللموت خير من حيا على رغم (٢)

ويروون في سبب هذه الأبيات "أن أبا خراش أقفر من الزاد أياما ، ثم مر بامرأة من هذيل موسرة ، فأمرت له بشاة فشويت ، فلما وجد أبو خراش ريح الطعام قرقر بطنه ، فضرب بيده على بطنه وقال : إنك لتقرقر لرائحة الطعام ، والله لا طعمت منه شيئا ! ثم قال : يا ربة البيت هل عندك من صبر أو شيء مر ؟ فأنته به فأكله . ثم أهوى إلى بعيده فركبه وانصرف . فظنت المرأة أنه أنكر من ضيافتها شيئا . فأخذت تتاديه هل رأيت بأسا أو أنكرت شيئا ؟ قال : لا ، ثم أنشأ يقول هذه الأبيات" (٣) .

فانظر إلى هذا التحدي ، تحدي الجائع للجوع ذاته ، ولبطنه الذي يقرقر لرائحة الطعام ، فكيف إذا أكل منه شيئا ؟ ولماذا لم يأكل من هذا الطعام الشهى ويرضي بطنه ، أليس لنفسه عليه حق ؟ ! .

لقد فهم الصعاليك وغير الصعاليك ، في العصر الجاهلي أن الجوع دائم ، يلاحقهم في كل وقت . فالمسألة إذن لا تتوقف على إشباع البطن مرة من المرات ، فالجوع أدوم من الشبع ، فليتعود الإنسان على الدائم ، ويجبر نفسه على ذلك ، ويقيم أوده بما استطاع إليه سبيلا ، ولو أكل المر والعلقم ، وما أكثره في تلك الصحاري المقفرة .

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب ، للزمخشري ، ص ٧٥-٧٩ . وفي النوادر ، ص ٢٠٤ .

(٢) ديوان الهذليين ، ١٢٧/٢-١٢٨ . والأغاني (بيروت) ، ٢٣٨/٢١-٢٣٩ .

(٣) الأغاني (بيروت) ، ٢٣٨/٢١ .

فلكون الجوع حالة متوقعة وكثيرة الدوران على الإنسان الجاهلي ، فقد صار الجوع لديه عادة " وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات " فإن النفس إذا ألقت شيئا صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون ، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها" (١) .

فلو عذرنا أنفسنا من الاستفسار عن سبب هذا التحامل الشديد على النفس كي نتعود الجوع من قبل الصعاليك خاصة الذين عاشوا حياة التشرد والعناء ، وقلنا إن لديهم الحق في ذلك لظروفهم القاسية وتشردهم في الصحراء القاحلة ، بالإضافة إلى نبذ قبائلهم لهم حتى أصبحوا عنصرا شاذا . فما بال حاتم الطائي - مثلا - يحدثنا في شعره ، وهو سيد من أسياد طيء عن تحمله الجوع المضني ، فهو يجوع ويجوع ، ويبيت "خميص البطن مضطمر الحشا" ، ويطوي البطن والزاد يشتهي . ولا يرى في الجوع هما . ويذم الصعلوك الذي يعد الجوع "تعنيبا" ، ويشيد بالفتى الذي لا يحزن للجوع ولا يهتم له ، كما مر معنا سابقا من أبيات شعرية لحاتم الطائي ، والذي كرر هذا المعنى في ديوانه . وكذلك خبر قصته في ذبح فرسه لقوم جياع ، فأكل الناس وأصبح هو أشد جوعا .

على ماذا تدلنا تصرفات حاتم الطائي وأمثاله ؟ ولم هذا التفاخر في الشعر الجاهلي بتحمل الجوع ؟ .

من جملة ما قيل في الجوع والجائعين ، وما قيل في التحامل على النفس لترويضها على الجوع ، والتفاخر بالجوع والتمدح بمن يبيت خميص البطن، يمكن أن نرجع ذلك إلى ملاحظتين :

أولا : إن الجوع كثير الدوران على الإنسان الجاهلي الذي يعيش حياة ضنك وشظف عيش وقلة زاد . وهذا الجوع ليس مقتصرًا على الفقراء البسطاء من الناس ، ولا على الصعاليك فحسب ، بل ويتعرض له الأسياد أيضا حين تأتي سنة الجذب والجوع والقحط التي تأكل الأخضر واليابس . فثمة أسباب وظروف تدفع هذا الإنسان ليتكيف مع هذه البيئة اليابسة ، نفسيا ومعنويا قبل الوسائل المادية ، فعليه أن يوطن نفسه على الجوع ، ويتعود عليه ، ليصبح عادة ليست بعيدة ولا غريبة ، فالجوع متوقع في أي وقت وأي مكان ، وتحت أي ظرف من الظروف البشرية كالحروب والغارات والثارات ، والعداوات ؛ فإذا كان الإنسان غنيا أشد الغنى ، فإنه يصبح فقيرا

جائعا في يوم وليلة ؛ عدا عن الظروف الطبيعية كفقر البيئة ذاتها في سني القحط والجذب ، وجذب السماء والأرض والحيوان والنبات .

والإنسان الذي هذه هي بيئته عليه أن يقف وقفة حزم وجد مع النفس فيتحمّل عليها ويصبر ، ويروض نفسه على الجوع البسيط والشديد ، سيدا كان أو غير سيد .

ثانيا : إن الجاهلي - كما نعلم - يتفاخر بالكرم والجود ، حتى أصبح هذا الجود شيمة في الجاهليين كما يصرح بذلك عنتر العبسي :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجُودَ فِي النَّاسِ شِيْمَةٌ تَقُومُ بِهَا الْأَحْرَارُ وَالطَّبَعُ يَغْلِبُ (١)

ويتمدح ويتفاخر هذا الجاهلي بالقوة والشجاعة ؛ فإذا كان المقاتل يحتاج إلى صفة الشجاعة في القتال والحروب ، فالجائع يكون أشد حاجة لهذه القوة والشجاعة في نفسه ليدفع عنه عدوه اللدود وهو الجوع بالصبر وقوة الإرادة .

وكان الجاهلي يتفاخر بكرمه لضيفه ، ومساعدة المحتاج ، وإطعام الجائع ، حتى أنه كان يطعم الحيوان الجائع ؛ فهذا أسماء بن خارجة يطرق هذا المعنى الذي أولع به بعض الشعراء ، وهو المبالغة في كرم الضيافة التي تجعل من الذئب الجائع ضيفا لهم ، يقرونه ويأتسون به ، وقد وجه الخطاب لهذا الذئب في ثمانية أبيات في فن جميل وصنعة رائعة ، فيصف حاجة الذئب الذي استدر عطفه ودفعه ذلك إلى أن ينحر له أكرم إبله عليه لينال منها ما يطعم هو وعياله ، يقول أسماء من ذلك :

وَأَنَا ابْنُ قَاتِلِ شِدَّةِ السَّغْبِ	وَلَوْى التَّكْلَحَ يَشْتَكِي سَغْبًا
إِذْ رَامَ سَلْمَى وَأَتَقَى حَزْبِي	وَرَأَيْتُ حَقًّا أَنْ أَضَيَّفَهُ
بِمَهْتَدِ ذِي رَوْثٍ عَضِبَ	فَوَقَفْتُ مُعْتَمًا أَزْأُولُهَا
فَاجْتَاَزَ بَيْنَ الْحَاذِرِ وَالْكَعْبِ	فَعَرَضْتَهُ فِي سَاقِ أَسْمَنِهَا
عَمْدًا وَعَلَّقَ رَحْلَهَا صَنْجِي (٢)	فَتَرَكْتُهَا لِعِيَالِهِ جَزْرًا

ويتفاخرون بتقديم الهبات والأموال والعطايا المادية والعينية للفقراء والمحتاجين ، ويقدمون لهم كل دعم مادي ؛ أو ليس هؤلاء - والشعراء لسان حالهم - بحاجة إلى المساعدة المعنوية ؟ فيشعر صاحب الجود بشعور المجود عليهم ، ويحس بالهمم ، ويتقرب منهم ، ليصبح واحدا

(١) ديوانه ، ص ٨٨ .

(٢) الأصمعيات ، ص ٤٥ .

مثلهم ، فيجوع لجوعهم ، بل يشبعون هم ويجوع هو من أجلهم ، وهذا قمة الجود والإيثار ، كما كان عروة بن الورد يؤثر غيره على نفسه أيام الشدة والفاقة ، فيقسم قوت جسمه ويكتفي بالماء الخالص غير الممزوج باللبن في الشتاء حيث الجسم أحوج إلى الغذاء إذ يقول :

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (١)

ولمواساة هؤلاء الجياع وهم كثر ، يشيعون بأن الجوع شيء لا يذكر ، فيقدر كل إنسان على تحمله بل ويصرف التفكير فيه .

وهذا حاتم الطائي يجوع مخافة أن يقال لثيم إذا شبع ، وحياء من ذم الجائعين له ، فهو إذا يخاف الكثيرين ، الذين يشكلون فئة كبيرة من المجتمع . فهم كلهم جياع .. فكيف يجوعون هم ويشبع سيدهم .. إن هذا عار وأي عار ! لذلك نرى حاتمًا يدافع عن نفسه في شعره .

٢- الهزال

لقد عانى الفقراء من الجوع كما عانوا من الهزال ونحول الأجسام والضعف العام . وكان الفقر والجوع السبب الرئيسي في هذا الهزال والضعف . فقد صور الشعراء الجاهليون هذا الهزال في صور مختلفة مؤثرة .

فهذا امرؤ القيس يرثي - في بيتين من الشعر - الحارث بن حبيب السلمي وكان خرج معه إلى الشام ، ينعاه بأنه أبو الأيتام والضعاف الهزلي ، وأنه كان يحميمهم ، ويحل مشاكلهم ، ويكرم الضيف ، يقول :

توى عند الودية جوف بصرى أبو الأيتام والكل العجاف
فمن يحمي المضاف إذا دعاه ويحمل خطة الأنس الضعاف (٢)

وهذا عروة بن الورد في ثلاثة أبيات يرد على من يعيره بشحوب وجهه وهزاله ونحول جسمه :

إنني امرؤ عافي إنائي شركة وإنك امرؤ عافي إنائك واجد
أتَهْزَأ مِنِّي أَنْ سَمَنْتَ وَأَنْ تَرَى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٣)

(١) ديوان الحماسة ، ٣٠٢/٢ .

(٢) ديوانه ، ص ١٣٠ .

(٣) ديوان الحماسة ، ٣٠٢/٢ .

ويقول أيضا ذاكرا أن سبب ذهاب غناه هو أبو صبية يشكو الفقر والهزال والضعف قد أهزلته السنون وأضعفته :

إذا قلتَ قد جاء الغنى حال دونه أبو صبية يشكو المفاقر أعجفُ
له خلة لا يدخل الحقُّ دونها كريمُ أصابته خطوبٌ تجرّفُ (١)

وقد أكثر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي من وصف ظاهرة نحول الأجسام وما يعترئها من هزال ونحافة شديدة ، فالشغفرى يصف جسمه حين ينام بأنه لا يبلغ الأرض لأن عظامه وفقار ظهره البارزة تحول بينه وبين الأرض ، وأنه حين يتوسد ذراعه إنما يتوسد عظاما جافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها للحم ، فيقول :

وآلف وجه الأرض عند افتراشها بأهدأ تنبيه سنانٍ قحلُ
وأعدل منحوصاً كان فصوصه كعابٍ دحاها لأعبٍ فهي مثلُ (٢)

وهذا أبو خراش الهذلي يصف نحول زميل له في الصعلكة بأن كل ما يرى منه جاف يابس ، فجسمه عظم لا لحم عليه ، كفه يابسة تبرز أعصابها ، وساقاه يابستان لا يرى فيهما إلا العظم فيقول عنه :

سَمَحَ مِنَ الْقَوْمِ عَرِيَانُ أَشَاجِعِهِ خَفَ النَّوَاشِرُ مِنْهُ وَالظَّنَابِيْبُ (٣)
ويتحدث تأبط شرا عن هزال جسمه في حديث له إلى أحد الذئاب ، فيقول :

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (٤)

ونجد صورة الأرملة شديدة الضر قد أعيأها الفقر والجوع المدني من الموت إلى أن تعتمد إذا قامت على يديها لما لحقها من الهزال ، يشير إلى ذلك زرعة بن عمرو ، وقد تفقد أحوال مثل هذه المرأة وأعانها وجعلها من جملة عياله لشدة ضعفها ، فيقول :

(١) ديوانه ، ص ١٠٧ .

(٢) أعجب العجب للزمخشري ، ص ١١٣، ١١٥ . والنوادر ، ص ٢٠٥ . الأهدأ شديد الثبات يعني جسمه . السنان : رؤوس فقار الظهر . القحل : الجافة . أعدل : أتوسد . المنحوص : ذراعه اليابسة . الفصوص : المفاصل . دحاها : بسطها .

(٣) ديوان الهذليين ، ١٥٩/٢ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ، ١٣٤/١ . والبيت منسوب لامرئ القيس في ديوانه ، ص ٥١ . وشرح المعلمات السبع ، ص ٢٥ .

وأرملَةٌ تتوَّءُ على يديها من الضَّرَاءِ أو قَصَصِ الهُزَالِ
خلطتُ بغثها سِمَنِي فأضحتُ شريكَةً من يُعَدُّ مِنَ الْعِيَالِ (١)

ومثل هذه المعاني كثيرة في الشعر الجاهلي . وقصص الهزال الشديد تقض مضاجع الجاهلي (٢) .

وكان من أسباب الهزال الجوع المضني فهذا تأبط شرا يصف جسمه ببروز أضلاعه من الجوع قائلاً :

قَلِيلُ ادِّخَارِ الزَّادِ إِلَّا تَعْلَةً فَقَدْ نَشَرُ الشَّرْسُوفُ وَالتَّصَقُّ الْمَعَا (٣)

ونجد أن بعض الشعراء الجاهليين قد تحدثوا عن الهزال والنحول والضعف العام بسبب الجوع والفقر وسوء الأحوال المعيشية (٤) ، إذ كان المهزول لا يتماسك من شدة الإعياء (٥) . وثمة شعراء يشبهون الفقراء الهزلي بالبليّة ، التي تموت على قبر صاحبها جوعاً وهزالاً (٦) .

-٢-

الآثار الاجتماعية

كان الفقير في المجتمع الجاهلي محروماً من أسباب الحياة المادية ، فمعاشه ضئيل في ضئلك ، مقارنة مع الغني ، وكانت أوصاله تنقطع وراء كسب رزقه ، وكان يجوع ويعرى ؛ ومع هذا الحرمان المادي والشقاء المضني في أساليب حياته المعيشية ، نجده محتقراً في نظر الناس ، خصوصاً الأغنياء منهم . فشر الناس الفقير يزدرونه لفقره ، وعجزه عن الوصول إلى مراتب

(١) ديوان الحماسة ، ٣٤٥/٢ .

(٢) ينظر مثلاً في ذلك ديوان أوس ، ص ٥٥، ٧٠، ١٣٠ . وشعر عبدة بن الطبيب ، ص ٦٦ . وديوان عروة ، ص ٤١ . وبهجة المجالس وأنس المجالس ، ص ١٩٩ . وعيون الأخبار ، لابن قتيبة ، ١٣٨/١ .

(٣) ديوان الحماسة ، لابي تمام ، ص ١٩٠ .

(٤) ينظر مثلاً : ديوان طرفة ، ص ١١٩ . وديوان حاتم ، ص ٧٤، ٩٣، ٨٧، ١٠١ . وديوان الحماسة ، ٣٤٣/١ ، ٢٤٣/٢ . والحماسة الشجرية ، ٥٢/١ . والأصمعيات ، ص ٤٥ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٢٩٥ .

(٦) ينظر مثلاً شرح ديوان لبيد ، ص ٣١٩ .

الشرف كالأغنياء ، وهو يحاول ذلك لكن قلة ماله تقعه أي مقعد ، فيقعد وسط القوم لا يتكلم ذلاً لفقره وقلة ماله ، بينما الغني له كل الاحترام والاحلال والحمد ، وله الكلمة الأولى والأخيرة وإن كان كثير الذنب ، فماله يشفع له ، ويكسبه حمداً على حمد .

والفقر يورث صاحبه ذماً واحتقاراً وازدراء وإن كان صاحب همة وشرف واسط العمل مخولاً . والنساء - بطبيعتهن - يحتقرن الفقراء ، ولم يكن يحبين قليل المال - وكن يضجرن بالفقر - وضنك العيش ، وكان لسلطان الغنى عليهن تأثير ساحر .

فالفقير إذن كان محروماً من الأسباب المادية ورغد العيش ، ومحروماً من الحب الذي كان أحوج إليه من أي إنسان آخر من الأغنياء ، وكان محروماً حتى من الكلام ، كل ذلك لفقره وقلة ماله ، ولوجود الضد له وهو الغني ، فلا غرو أن يصبح الغني عدواً للفقير .

لذلك نجد الفقير الذي أحس بحاله المهانة يشعر وكأن الشياطين الجافة تنهال عليه لفقره وذله وهوانه بين الناس . فنجد من الفقراء من كان يأخذ زاوية أو مكاناً بعيداً عن الحي أو القبيلة لإحساسهم بالذل والهوان ؛ ولكن صاحب الهمة ، ومن كانت نفسه عزيزة لا تقبل الضيم ، يستهين بحياته ، فيطوف في البلاد والأمصار ، طلباً للغنى ، وللتخلص من هذا الشر المستطير وهو الفقر ، فقد ينجح في مسعاه أحياناً . وقد يهلك المسكين دون ذلك .

ونرى الشعراء الجاهليين يصورون لنا هوان الفقير على الناس وعلى نفسه ، ويصورون ازدراء الناس للفقراء واحتقارهم ، وبالمقابل يثنون على الأغنياء والغنى ، ويتمدحون بثراء المال ؛ فالمال يفيد مالكة ويجلب له الحمد ، ويسدل الحجاب على عيوبه ، وقلة المال مضرة للمرء ، فتتركه يتألم كتألم من يواليه السوط . فالفقير يضع أهله وإن لم يكونوا كذلك من قبل ، فالفقير يرى الشرف فلا يقدر عليه ، ويقعد وسط القوم ساكناً لا يتكلم من الذل أو من الهم . يقول مالك بن حريم الهمداني مقطوعة شعرية تصور ذلك من بعد خبرته بالأمور واطلاعه على تصارييف الأيام :

أُنْبِئْتُ وَالْأَيَّامُ ذَاتُ تَجَارِبِ .	وَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا لَسْتَ تَعْلَمُ
بِأَنَّ ثَرَاءَ الْمَالِ يَنْفَعُ رَبَّهُ	وَيُشَيِّ عَلَيْهِ الْحَمْدُ وَهُوَ مُذَمَّمٌ
وَأَنَّ قَلِيلَ الْمَالِ لِلْمَرْءِ مُفْسِدٌ	يَحْزَنُ كَمَا حَزَّ الْقَطِيعُ الْمَحْرَمُ
يَرَى دَرَجَاتِ الْمَجْدِ لَا يَسْتَطِيعُهَا	وَيَقْعُدُ وَسْطَ الْقَوْمِ لَا يَتَكَلَّمُ (١)

(١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ٣٢/٢ . القطيع : السوط . المحرم : الخشن الصلب يكون أشد إيجاعاً .

فالفقر مذموم ، وفيه المنزلة والهوان . وفي الغنى والمال الشرف والسؤدد وبلوغ المجد (١) . وهذا عروة بن الورد يقارن بين حال الفقير وحال الغني ، ونظرة الناس لهما ، فالفقير شر الناس ، فالكل ينفر منه . صاحبه ، وزوجته ، وأهله . ولهوانه وذلّه بين الناس يزجره الصغير وينفر فيه استهزاء وسخرية به ، إنه منبوذ إذن في المجتمع الجاهلي . بينما هؤلاء الذين يحتقرون الفقير يجلون الأغنياء ، ويحترمون ذا المال الوفير ، مع أن ذنب الغني جم وكثير ، ولكن غناه يشفع له ، بينما الفقير لا يشفع له شيء وإن كان ذا حسب وشرف . لهذا يسعى عروة للغنى . يقول :

دعيني للغنى أسعى فإني	رأيتُ الناس شرَّهمُ الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم	وإن أَمسى له حَسَبٌ وخيرُ
ويقصيه النَّديّ وتزدرّيه	حليّاتُه وينهَرُه الصغيرُ
ويُلقي ذو الغنى وله جلالٌ	يَكادُ فُؤادُ صاحِبِه يطيرُ
قليلُ ذنبُه والذنبُ جَمّ	ولكن للغنى ربٌّ غفورُ (٢)

ويقول عروة أيضا في شكوى الفقير ، وتكرّر الأقرباء له :

إذا المرء لم يَطلُبْ مَعاشا لِنَفْسِه	شكا الفقرَ أو لأم الصديق فأكثرَا
وصارَ على الأدنى كَلّا وأوشكتْ	صِلاتُ ذوي القُربى له أن تتكرا (٣)

ويصرح عروة أيضا :

المال فيه مهابةٌ وتَجَلَّةٌ	والفقر فيه مَذَلَّةٌ وقُضُوح (٤)
-----------------------------	----------------------------------

ونجد احتقار الناس للفقير لا يكون لشخصه بل لفقره وقلة ماله ، فإذا أصبح غنيا يجله الناس ، يشير الشاعر إلى ذلك في قوله :

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى	وكل غني في القلوب جليل (٥)
----------------------------	----------------------------

(١) ينظر "عيون الأخبار" ، لابن قتيبة ، ٢٣٩/١ وما بعدها .

(٢) ديوانه ، ص ٩١-٩٢ . والأبيات في الحماسة الشجرية عدا البيت الثاني ، ٤٧٧/١ . وبهجة المجالس وأنس المجالس ... ، ٢٠٩/١ مع اختلاف بعض الألفاظ . وعيون الأخبار لابن قتيبة ، ٢٤١/١-٢٤٢ .

(٣) ديوانه ، ص ٢٩ . وبهجة المجالس ... ، ١٩٩/١ . الأدنى جمع الأدنى وهو القريب . الكل : الحمل الثقيل .

(٤) ديوانه ، ص ٤٣ .

(٥) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٠٢/٢ .

فيود كل امرئ أن يكون غنيا كثير المال يحله ويحترمه الناس ، كما يشير طرفة بن العبد إلى ذلك في قوله :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرُو بْنَ مَرْثَدٍ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَزَارِنِي بَنُونَ كِبْرَامٍ سَادَةٌ لِمَسُودٍ (١)

وهم يفضلون الغنى على الفقر ، لأن الراحة بالغنى والتعب بالفقر ، فالأغنياء يعيشون في دعة من أمرهم فهم مقيمون لا يتكبدون عناء الإرتحال ومشاقه ، بينما الفقراء في شقاء كبير يسعون ويطوفون في البلاد ، يقول إياس بن القائف :

تَقِيْمُ الرِّجَالُ الْاَغْنِيَاءَ بِأَرْضِهِمْ ° وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمَقْتَرِينَ الْمَرَامِيَا (٢)
فحياة الغنى أفضل من عيشة الفقر والكد والتعب والشقاء (٣) .

ففي الثراء والغنى الخلود ، وفي الفقر الضيق والهم مثل الموت ، يقول طرفة بن العبد من مقطوعة شعرية :

وَتَقُولُ عَاذَلْتِي وَلَيْسَ لَهَا بَغْدٍ وَلَا مَا بَعْدَهُ عِلْمُ
إِنَّ الثَّرَاءَ هُوَ الْخُلُودُ وَإِ نَّ الْمَرَّةَ يَكْرَبُ يَوْمُهُ الْعُدْمُ (٤)

وكان الفقير يعيش في يأس وعذاب ، ودائما يكون صاحب حاجة (٥) ، لا طعام له (٦) يعيش في ذل وهوان كالبعير الأجرب يتحاشاه الناس ويتعد عنه أقاربه ما دام فقيرا (٧) .
فالغالبية العظمى لا يحبون الفقير الضعيف والكسول (٨) . والعرب تفضل الرجل الكسوب

(١) ديوانه ، ص ٨١ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٥٦ . وهذان سيدان من سادات العرب مذكوران بوفور المال ونجابة الأولاد وشرف النسب والحسب .

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢ / ٢٩ . والنوى : وجهة القوم التي يقصدونها . المقترنون : المقلون . المراميا جمع مرمى وهنا المكان .

(٣) ينظر ديوان الحارث بن حلزة ، ص ٢٠ .

(٤) ديوانه ، ص ١١٤ . وهذان البيتان منسوبان للمخبل السعدي (مخضرم) في المفضليات ، ص ١١٨ .

(٥) ينظر ديوان الأفوه الأودي ، ضمن الطرائف الأدبية ، ص ١٧ . وديوان الخنساء ، ص ٥٠ .

(٦) ينظر ديوان الأسود ، ص ٤١ .

(٧) ينظر ديوان طرفة ، ص ٩٢ . وديوان عروة ، ص ٤٣ . وديوان الحماسة ، ٢ / ٣٠ .

(٨) ينظر ديوان الحماسة ، ١ / ١٣١ .

والغَرَّ الطَّلُوبُ ، ويزمون المقيم الفشل والدثور الكسلان" (١) .

ولشدة وطأة الغني على الفقير فالأول له جلال وهيبة والآخر ذليل مستكين يشعر بالهوان ، كما يشير إلى ذلك سبيع بن الخطيم في قصيدة له بدأها بأسفه لرحلة صاحبتة صدوف ، وكيف أثر ذلك في قلبه وجسمه ، وأن خيالها يعاوده في النوم ، مبدئاً أن من أسباب هذه الرحلة عنف الغني على الفقير :

بَانَتْ صَدُوفُ قَلْبِهِ مَخْطُوفٌ وَنَاتٍ بِجَانِبِهَا عَلَيْكَ صَدُوفٌ
وَاسْتَوْدَعَتْكَ مِنَ الزَّمَانَةِ إِنَّهَا مِمَّا تَزُرُّوكَ نَائِماً وَتَطُوفُ
وَاسْتَبَدَّلَتْ غَيْرِي وَفَارَقَتْ أَهْلَهَا إِنَّ الْغَنَى عَلَى الْفَقْرِ عَنِيفٌ (٢)

وحسان بن ثابت الأنصاري يجد في جمع المال من طرق كثيرة ، لأن الفقر عيب وذل ، يعيب أقواما ذوي شرف وحسب ، يقول :

احْتَالَ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَجْمَعُهُ وَلَسْتُ لِلْعَرَضِ إِنْ أَوْدَى بِمُحْتَالٍ
الْفَقْرُ يَزِرِي بِأَقْوَامِ ذَوِي حُسْبٍ وَيَقْتَدِي بِلِثَامِ الْأَصْلِ أَنْذَالَ (٣)

فما زالوا جادين في طلب المال والحصول عليه ؛ لأنهم علموا أن في الفقر وقلة المال والتضييق في المعيشة الذل والعار ، يقول شاعرهم يصف كريما :

كَرِيمٌ رَأَى الْإِقْتَارَ عَارًا فَلَمْ يَزَلْ أَخَا طَلَبِ الْمَالِ حَتَّى تَمُولا
فَلَمَّا أَفَادَ الْمَالَ عَادَ بِفَضْلِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ يَرْجُو جَدَاهُ مُؤَمِّلًا (٤)

فالفقير يعير لفقره وقلة ماله ، لكن أن يكون من جمع المال معيرا أيضا ؟ كما يقول عروة بن الورد :

وَقَدْ عَيَّرُونِي الْمَالَ حِينَ جَمَعْتُهُ وَقَدْ عَيَّرُونِي الْفَقْرَ إِذْ أَنَا مُقْتَرٌ (٥)

فإن يعير لفقره فهذا هو الدارج في المجتمع الجاهلي كما رأينا وسنرى من خلال شعر الشعراء الجاهليين ، ولكن إذا عرف الدارس حياة عروة ، وأنه كان صعلوكا ، قد يعذر من عيره بجمعه

(١) البخلاء للجاحظ ، ص ٢٤٢ .

(٢) المفضليات ، ص ٢٧٣ . والأصمعيات ، ص ٢٥٩ . يقتدي : يتبع . وضميره يعود على المال سابقا .

(٣) ديوان الحماسة ، ٢/ ٢٥٣ .

(٤) السابق ، ٢/ ٣٥٥ .

(٥) ديوانه ، ص ٧٩ .

المال ، لأنه سلك في ذلك دروبا ملتوية ، وسبب المتاعب والشقاء لغيره ، من خلال غزواته وغاراته على أصحاب المال ، والأغنياء تارة ، وعلى تلك القبائل الوداعة الساكنة والأحياء العربية التي تصيب شيئا من النعم والثراء . إذن ألا يكون من غير جمعه المال هم الأغنياء لا الفقراء ؟ .

فإذا افتقر الإنسان في قومه ، يعرف فضل الغنى فيحمده ، ولا يحمد قومه لأنهم يحقرونه لافتقاره ، ولأن قلة المال تزري بعقل الإنسان وتشينه ، وإن كان أشرف قومه وأكثر حيلة وأبلغ حدقا من غيره ، ولأن الفقير إذا تمول فكأنه لم يفتقر ، وإذا اكتسب فكأنه لم يعر قط ، لهذا وذلك نجد الفقير عزيز النفس صاحب الهمة يكثر من الأسفار ، والجولان في البلاد ، ويرمي بنفسه في أوائل الليل وصدوره لاكتساب المال ، فيحمي نفسه من الذل ويصون ماء وجهه عن الإراقة حين يسأل الناس . يقول جابر بن الثعلب الطائي يرد على العاذلات اللواتي يلمنه على كثرة أسفاره :

وَقَامَ إِلَيَّ الْعَاذِلَاتُ يَلْمَنَنِّي	يَقْلَنَ أَلَا تَتَفَكَّرُ تَرْحَلُ مَرْحَلًا
فَإِنَّ الْفَتَى ذَا الْحَزْمِ رَامَ بِنَفْسِهِ	جَوَاشِينَ هَذَا اللَّيْلِ كَيْ يَتَمَوَّلَا
وَمَنْ يَفْتَقِرْ فِي قَوْمِهِ يَحْمَدِ الْغَنَى	وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ وَاسِطَ الْعَمِّ مُخَوَّلَا
وَيُزْرِي بِعَقْلِ الْمَرْءِ قَلْبَهُ مَالِهِ	وَإِنْ كَانَ أَسْرَى مِنْ رَجَالٍ وَأَحْوَلَا
كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَعَزْ يَوْمًا إِذَا اِكْتَسَى	وَلَمْ يَكْ صُغْلُوكَا إِذَا مَا تَمَوَّلَا (١)

وكما يشير أوس بن حجر إلى أن صاحب المال ، وإن كان عبدا ، تراه سيدا جحفلا كثير الأتباع يحبه الناس ؛ بينما ترى من لا مال له - وإن كان شريفا خالص النسب كثير الأخوال - يبغضه الناس ويتعدون عنه .

يقول أوس :

بَنِي أُمِّ ذِي الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرُونَهُ	وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الْأَمْرِ جَحْفَلًا
وَهُمْ لِمُقَلِّ الْمَالِ أَوْلَادُ عَلَّةٍ	وَإِنْ كَانَ مَحْضًا فِي الْعُمُومَةِ مُخَوَّلًا (٢)

والفقير ذليل لا يعز بغير مال . والفقير مدعاة للسؤال (٣) . ناهيك عن جهد الفقير وشقائه لفقره وقلة ماله . وقد سئل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن جهد البلاء فقال : قلة المال وكثرة العيال (٤) .

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ١٠٩/١ - ١١٠ . صغلوكا : فقيرا . أحولا : أكثر حيلة .

(٢) ديوانه ، ص ٩١ .

(٣) ينظر الحماسة البصرية ، ٣١٢/١ .

(٤) المحاسن والمساوي ، البيهقي ، ص ٢٧٥ .

وكان الذين ليسوا بأهل غنى ولا يسر إذا جاؤوا قوما نزلوا ناحية كما ينزل الفقير في كنف من الشجر ، لأنه ليست لهم بيوت يأوون إليها ، يغضون أبصارهم حياء من الناس ، وهؤلاء بنو لبني ليسوا بالأغنياء ، يقول عروة بن الورد في ذلك :

رَأَيْتُ بَنِي لُبْنَى عَلَيْهِمْ غَضَاظَةٌ بَيُوتُهُمْ وَسَطَ الْحُلُولِ التَّكْنُفُ (١)

وإذا استطردنا بالحديث عن ذل الفقر وهوان المعدم الفقير ، فإن نظرة الناس للغنى والفقير في العصر الجاهلي لم تزل كذلك في العصر الإسلامي ، كما يقول يزيد بن الحكم النقي الشاعر الإسلامي الأموي يشير إلى أن الغنى سبب الكرامة ، والفقر سبب الذلة ، فيكرم الغني لغناه ويهان الفقير لعدمه وفقره :

وَالْمَرْءُ يُكْرَمُ لِلْغِنَى وَيُهَانُ لِلْعَدَمِ الْعَدِيمِ (٢)

ويقول الشاعر الإسلامي اللص أبو النشاش :

فَلَمْ أَرُ مِثْلَ الْفَقْرِ ضَاجِعَهُ الْفَتَى وَلَا كَسَوَادِ اللَّيْلِ أَخْفَقَ طَالِبُهُ
فَعِشْ مُعْدِمًا أَوْ مِتْ كَرِيمًا فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ لَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ هَارِبُهُ (٣)

وكما نجد بعض الشعراء الإسلاميين من يخاف الفقر على ابنته لما في الفقر من ذل وهوان ... فالابنة تحب أن يعيش لها أبوها ، وهو يود موتها خوفا من أن يراها في الحالة التي فيها الذل والفقر ؛ فالموت للنساء خير لهن من تلك الحال (٤) .

والنساء - كما نعلم - يحبين ثراء المال ، أكثر من الرجال ، ويكرهن عيشة الرمق وحياة الضنك ، فالمرأة تحت زوجها على طلب المال إذا افتقر ، وتعيده بفقره ، وقلة ماله ، وتهزأ منه عندما يحلو لها الاستهزاء ، ولا تعذره في أي حال من الأحوال . فهذا ذو الخرق الطهوي يذكر ما كان من زوجته حين أقبل الجذب وعز العيش ، فبرمت بحياتها ، وحثته على طلب المال ، فشر العيشة الرمق . يقول :

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص ١٠٨ . الحلول : القوم النازلون .

(٢) ديوان الحماسة ، ٢٦/٢ .

(٣) السابق ، ١١٦/١ .

(٤) ينظر شعر اسحاق بن خلف الإسلامي في ديوان الحماسة ، ١٠١/١ .

لَمَّا رَأَتْ إِيْلِي جَاءَتْ حُلُوبُهَا هَزَلَى عَجَافاً عَلَيْهَا الرَّيشُ وَالْوَرَقُ
قَالَتْ : أَلَا تَبْتَغِي مَا لَا تَعِيشُ بِهِ مِمَّا تُتْلَقِي ، وَشَرُّ الْعَيْشَةِ الرَّمَقُ (١)

ويشير امرؤ القيس إلى كره النساء لمن قل ماله وافقر ، وكذلك من شاب وعجز :
أَرَاهَنَ لَا يُحِبِّينَ مَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا (٢)

وإذا أردت أن تعلم شيئاً عن النساء وطبيعتهن وعلاقتهن بالفقير والغني ومن شاب ، فاسأل
خبيراً بالنساء بصيراً بأدوائهن ، فلنر إذن ماذا يقول لنا علقمة بن عبدة الفحل التميمي في ذلك :
فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدَّهَنْ نَصِيبُ
يُرْدَنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ وَشَرَّخَ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ (٣)

وإذا كانت النساء لا يحبين من قل ماله كما يراهن امرؤ القيس ، كما مر معنا سابقاً ، فإن من
النساء من كن يسخرن ويستهنئن أيما استهزاء من الفقير المملق الذي لا شيء له ، كما تسخر
من الرجل إذا كبر وأصبح هرماً هزيراً فقيراً (٤) .

وهذا صحير بن عمير في أرجوزة له طويلة يحاور امرأة ، لعلها زوجته ، عابت عليه فقره
وشيخوخته ، فهي تهزأ منه لفقره كما يزعم صحير في قوله :

تَهْزَأُ مِنِّي أَخْتُ آلِ رَطِيسَلَه
قَالَتْ أَرَاهُ مُمْلَقاً لَا شَيْءَ لَهُ (٥)

وكانت المرأة تلوم زوجها على فقره وعجزه ، وقلة حيلته ، وذهاب ماله ونعمه (٦) .

(١) الأصمعيات ، ص ١٣٣-١٣٤ . والرمق : القليل من العيش الذي يمسك الرمق وهو بقية
العيش .

(٢) ديوان امرئ القيس بن حجر ، ص ١١٨ .

(٣) ديوانه ، ص ٣٥-٣٦ . والمفضلويات ، ص ٣٩٢ . ونهاية الأرب ، للنويري ، ٦٦/٣ .

(٤) ينظر مثلاً الأصمعيات ، ص ١٩٥ .

(٥) الأصمعيات ، ص ٢٧٤ . طيسلة قيل اسم قبيلة وقيل اسم شاعر .

(٦) ينظر مثلاً الأصمعيات ، ص ١٩٥ .

وكثيرا ما نجد الرجل يشكو من زوجته التي تحب المال حبا جما ، فيشكو طمعها في الثراء والغنى ، ويشكو نشوزها عنه للفقير . حتى أن بعضهم يتهم زوجته بأنه كان لفقره أثر في نشوزها وفراقها عنه ، كما اتهم الجميع الأسدي زوجته بذلك في قصيدة بدأها بالتساؤل عن فراقها :

أَمَسَتْ أُمَامَةً صُمَمًا مَا تُكَلِّمُنَا مَجْنُونَةٌ أَمْ أَحَسَّتْ أَهْلَ خَرْوبٍ (١)

فوجد بعض الجواب لهذا التساؤل بأنه كان لفقره أثر على فراقها في البيت الثامن من نفس القصيدة :

لَمَّا رَأَتْ إِيْلِي قَلَّتْ حَلَوِيَّتُهَا وَكُلَّ عَامٍ عَلَيْهَا عَامُ تَجْنِيبٍ (٢)

ولا نعدم من وجود بعض النساء اللواتي كن يجدن بما في اليد . مثل غنية أم حاتم الطائي التي آلت على نفسها أن لا تمنع سائلا أو جائعا إلا أكرمته (٣) . وكذلك ليلي ابنة مرداس زوجة سالم ابن قحافة العنبري الكريم الجواد ، الذي كان يهب الجمال لسائليه ، وكان يقول لزوجته ليلي : هاتي حبلا يقرن به الجمل ، وما زال هذا دأبه حتى قالت له : لم يبق عندي حبل .. فقال لها : علي الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه بخمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها ، فأنشد لها أبياتا ينهاها بها أن تعذله عن العطاء ، فأجابته :

حَلَفْتُ يَمِينًا يَا بَنَ قَحْفَانَ بِالَّذِي تَكْفَلُ بِالْأَرْزَاقِ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
تَزَالُ حَبَالٌ مُحْصَدَاتٌ أَعْدَهَا لَهَا مَا مَشَى مِنْهَا عَلَى خُفِّهِ جَمَلٌ
فَاعْطِرِي وَلَا تَبْخَلِي لِمَنْ جَاءَ طَالِبًا فَعَنْدِي لَهَا خُطْمٌ وَقَدْ زَالَتِ الْعِلَلُ (٤)

فالمرأة تحب المال ، فهذا علباء بن أرقم بن عوف في قصيدة له يشكو فيها زوجته وما كان يحيا معها من حياة مضطربة ، فهي ترضى حينما غاية الرضى ، وتشرس أحيانا حتى تظهر شراستها بين جيرانها ، وفي هذه القصيدة ، بعد شكواه من زوجته ، يعتذر للنعمان بن المنذر الذي غضب عليه بعدما ذبح كبشا جعله النعمان حمى ، يقول علباء في زوجته :

وَبَوْمًا تَرِيدُ مَالَنَا مَعَ مَالِهَا فَإِنْ لَمْ نُنْلِهَا لَمْ نُنْمِنَا وَلَمْ نَتَمَّ (٥)

(١) المفضليات ، ص ٣٤ . أهل خروب قومها .

(٢) السابق ، ص ٣٥ . التجنيب : أن لا يكون في إيل القوم لبن في تلك السنة .

(٣) ينظر الأغاني (بيروت) ، ٢٨٠/١٧ .

(٤) شاعرات العرب ، ص ٦٨ .

(٥) الأصمعيات ، ص ١٧٨ .

ويعجب المرأة أن يلقي بين يديها المال ، فهي تعانق وتقبل وتقدي من يأتيها به ، كما ينبئنا بذلك أحيحة بن الجلاح في مقطوعة شعرية ، يذكر فيها بأن الشهوات تتطلب بذل المال ، وأن الثراء جدير أن يجهد صاحبه كل الجهد في بذله وحسن اصطناعه : يقول :

إِذَا مَا جِئْتُهَا قَدْ بَعْتُ عِذْقًا	تُعَانِقُ أَوْ تُقَبِّلُ أَوْ تُقَدِّي
أَهْنُتُ الْمَالَ فِي الشَّهَوَاتِ حَتَّى	أَصَارْتُنِي أَسِيفًا عَبْدَ عَبْدٍ
فَمَنْ نَالَ الْغِنَى فَلْيَصْطَنِعْهُ	صَنِيعَتَهُ وَيَجْهَدْ كُلَّ جَهْدٍ
أَعْلَمَكُمْ وَقَدْ أَرَدَيْتُ نَفْسِي	فَمَنْ أَهْدَى سَبِيلَ الرُّشْدِ بَعْدِي (١)

والمرأة لحبها للمال واحتقارها للفقير ، تريد أن تحصل على المال بأي وسيلة متاحة حتى لو قدرت أن تبيع فرس زوجها لفعلت ، فهذا حاجب بن حبيب الأسدي يصور لنا قصة واقعية في قصيدة له من عشرة أبيات ، يصور اعتزازه بفرسه ، ويصور ما كان يدور من الحوار بين الرجل والمرأة في سياسة المال ، فهي تلح عليه أن يبيع فرسه "ثادق" ، وتحتج بأن أثمان الخيل قد علت وأن هذه الفرصة سانحة لبيعه ، وكان ذلك في زمن جذب أصابهم ، فيرد عليها حجتها بأن يبين لها مناقب هذا الفرس ، ينعته وينعت جماله ، وغناءه في الحرب وفي غير الحرب ... يقول فيها (٢) :

بَاتَتْ تَلُومُ عَلَى ثَادِقٍ	لِشُرَى فَقَدْ جَدَّ عَصِيَانُهَا
أَلَا إِنَّ نَجْوَاكَ فِي ثَادِقٍ	سَوَاءٌ عَلَيَّ وَإِعْلَانُهَا
وَقَالَتْ أَغْتَابُ بِهِ إِنِّي	أَرَى الْخَيْلَ قَدْ ثَابَ أَثْمَانُهَا

ثم يرد عليها :

فَقُلْتُ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّهُ	كَرِيمُ الْمَكْبَةِ مَبْدَأُهَا
وَقُلْتُ : أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّهُ	جَمِيلُ الطَّلَالَةِ حُسَانُهَا

ولا أريد أن أظلم هذه المرأة ، فقد تكون عادلة في مطلبها هذا ، فهم في جذب وأثمان الخيل مرتفعة .

وكثيرا ما نجد في الشعر الجاهلي المرأة تلوم الرجل على إنفاقه المال ، وجوده به ، وتلومه على سخائه وكرمه لأن ذلك يتلف المال في رأيها . ويتصدى لها الرجل يريد إقناعها بفعله هذا بالحجج والبراهين ، ولا أدري إن كانت تقتنع المرأة أو العاذلة بذلك ؟ .

(١) الأصمعيات ، ص ١٢٧ .

(٢) المفضليات ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

ونجد من النساء من تعلن فراقها لزوجها لجوده وإنفاقه ؟ كما يشير إلى ذلك المرقش الأصغر الذي يتحدث عن مجاهرة زوجته له بالمفارقة والمغاضبة ، في قوله :

أَذْنَتَ جَارَتِي بَوْشَكَ رَحِيلَ بَاكِراً جَاهَرَت بِخَطْبِ جَلِيلِ
أَزْمَعَتَ بِالْفِرَاقِ لَمَّا رَأَتْني أَتْلَفُ الْمَالَ لَا يُنْمُ دَخِيلِي (١)

وكانت المرأة أحيانا تفارق زوجها إذا قل ماله أو قلت إبله . وكانت راضية في عيشها عندما كان زوجها ذا مال وإبل (٢) .

فقصص اللوم والعذل كثيرة في الشعر الجاهلي . مما يدلنا على أن المرأة فعلا ليست راضية ع جود وكرم زوجها . ولكن هل كان سخط المرأة على الجود ذاته ، أم أنها تخاف من شيء آخر ؟ .

أقول صراحة ، إن المرأة أو الزوجة تحب أن يكون زوجها أو قريبها غنيا ذا مال وفير ، وهذا ما يبتغيه كل إنسان .

وإذا كانت صفة الجود من أحسن الصفات وأكثرها تبجيلا لدى الجاهليين ، فكان أغلبهم يقدسون الجود والكرم والسخاء والبذل خصوصا إذا اشتد عليهم الزمان والمحل في سنوات الجذب وفقر البيئة . ولا غرو أن نجد أن من مقومات السيادة في العصر الجاهلي كان توفر صفة الجود والكرم والسخاء في المسود (٣) . وبالمقابل نجد أن البخل في الرجل مذموم بشكل عام وفي العصر الجاهلي بشكل أخص فـ "مَنْ يُجْدُ يُحْمَدُ وَمَنْ يَبْخُلُ يُذَمُّ" (٤) .

فالناس يبجلون الكريم السخي صاحب العطاء الذي لا يرد سائلا (٥) ، ويذمون بل ويحتقرون البخيل ، والبخيل صاحب مال وثراء لكنه لا ينفق من ماله شيئا على الفقراء والمحتاجين فلا يكرم ضيفا ولا يعطي سائلا ولا يعين المضرور . حتى أن بخله يرجع على أهله وعياله .

(١) المفضليات ، ص ٢٥١ .

(٢) ينظر ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٧٤ .

(٣) ينظر شعر ووصايا في "تاريخ العرب قبل الإسلام" ، الأصمعي ، ص ٩١، ٩٩، ١١٦، ١٣٠، ١٣٢ .

(٤) ديوان شعر المثقب العبدى ، ص ٢٢١ .

(٥) قبل السابق ، ص ١٢٢ .

فيأتري ، هل المرأة - وهي جزء من الناس والمجتمع - تحب لزوجها أن يكون بخيلا مذموما بين الناس ، ليكون سبة وعارا عليها بعدئذ ، تعير به من قبل جاراتها ونساء حيها !! . أم أنني أراها تختار لزوجها ، حاميتها وراعيها ، الوجه الآخر ، ليكون زوجها محل الإعجاب لدى الناس ؟ .

لا شك أن المرأة تحب في زوجها ما يحبه الناس الذين يجمعون على إكبار وحب صفة الجود والسخاء .

إذن لماذا تلوم المرأة الجاهلية زوجها على إتلاف ماله في العطاء والكرم والمساعدة ، وتعذله وتغضب منه ، بل وتوشك أن تفارقه لجوده ؟ . ولتفسير ذلك - في رأيي أمران - :

أولا (إما أن يكون الشاعر يستوحي تلك العاذلات من خياله ، ليبرز جوده وكرمه وإتلافه للمال ، ويريد المبالغة أحيانا في جوده وكرمه حسب تفاوت شدة اللوم ، فيصور عتابهن ولومهن له على كثرة جوده ، فلا يكون للعاذلات وجود في الحقيقة ، كما هي عادة الشعراء الجاهليين في استيحاتهم الصاحبين لمخاطبتهم كما يقول امرؤ القيس (قفا نبك ..) ، وإذا علمنا أيضا أن الشعراء الجاهليين الذين صوروا لنا قصص العاذلات يعذّلون على الكرم والجود ، معظمهم كانوا يفتخرون بكرمهم هم أنفسهم ، فاستوحوا من يلومهم ليجدوا مسوغا لتفريغ شحنة الفخر بالنفس . ثانيا (وجود العاذلات على الحقيقة . فإن النساء كما ذكرنا يحبين ثراء المال ، ويحتقرن الفقر ولا يحبين الفقراء ، لذلك فهن يخفن من الفقر أيما خوف . فالفقير يعير لفقره ، والغني يبجل لغناه ، وإذا علمنا بأن هذه النظرة للفقر والغنى غالبية على المجتمع الجاهلي ، فكيف بالنساء ؟ .

نقول إذا إن المرأة تخاف الفقر ، فإن كان زوجها منقفا سخيا ، خافت من زوال هذا المال ، لتعود بعد ذلك فقيرة تعير وتزدري وتحتقر وتهان هي وزوجها ، وكأنها لم تغن لا هي ولا زوجها من قبل .

فإذا أمسك زوجها يده ولم يعط من ماله ، ليصبح في نظر الناس بخيلا . أصبح أيضا يعير لبلخه وإمساك يده ، ويزدري .

ولكن المرأة تبدي تخوفا أكثر ما يكون ، من الفقر ، هذا الشر المستطير . أكثر من خوفها من مذمة الناس للبلخ ، فالإنسان يكبر في السن ويدنو من العجز شيئا فشيئا ، فإذا غني حقبة من الزمن وهو في شدة وقوة في جسمه وعقله وحسن تدبيره - فليس بالضرورة - أن يغنى بعدها في تلك البيئة المتذبذبة بين القحط والخصب ، فالفقر أكثر ما يكون في الكبر والعجز ، وهذا وقت يشتد فيه فقر الإنسان وحاجته إلى معين ، كما يشير إلى ذلك حكيم بن قبيصة الضبي في ابنه بشر الذي تركه في وقت كبره وعجزه :

لَعَمْرُ أَبِي بِشَرِّ لَقَدْ خَانَهُ بِشَرٌّ
على ساعة فيها إلى صاحب فقر (١)

كما أن المروءة مطلبها شديد على الكهل ، كما يقول رجل من بني قريع :

إِذَا الْمَرْءُ أَعَيْتَهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا
فَمَطْلَبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ (٢)

* * *

ونجد من يشكو الفقر بسبب الزوجة ، أو المرأة ، في شخصها ، فهي سبب الفقر ، كما يقول

الشاعر :

إِذَا سَفَرْتَ كَانَتْ لِعَيْنِكَ سُخْنَةٌ
وَإِنْ بَرَّقَتْ فَالْفَقْرُ فِي غَايَةِ الْفَقْرِ (٣)

فإذا كشفت هذه المرأة وجهها جلب إلى العين حرارة تدمع بها وذلك لسماجة الوجه ، فكيف

إذا كانت مبرقة فإنها تكون فقرا ليس وراءه شر منه .

وهذا عبد الله بن أوفى الخزاعي يشير إلى أن تزوجه بامرأته عن كره منه لم ينفع في وجه

من الوجوه فما أغنى فقيرا ولا أنال خيرا ولا جمع شملا :

نَكَحْتُ ابْنَةَ الْمُتَنَضِّي نَكْحَةً
عَلَى الْكُرْهِ ضَرْتُ وَلَمْ تَنْفَعِ
وَلَمْ تُغْنِ مِنْ فَاقَةٍ مُعْدِمًا
وَلَمْ تَجِدْ خَيْرًا وَلَمْ تَجْمَعْ (٤)

-٣-

الآثار النفسية

ألا ترى أن الفقر شر خطير ، له آثاره السلبية من الناحية النفسية على الفقراء . فالإحساس بالفقر عند وجود الغنى ، وشعور الفقير بنظرة الاحتقار من قبل المجتمع الذي يعيش فيه لكل من قل ماله أو قلت حلوبته أو للمعدم المسكين الذي لا يجد قوت يومه ، ينشئ لدى الفقير عقدة نفسية سماها الباحثون المحدثون "عقدة الفقر" . وهي تلك التي تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيا" (٥) .

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٨٩/٢ .

(٢) السابق ، ١٨/٢ .

(٣) ديوان الحماسة ، ٤١٩/٢ .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي ، ٢٢٩/٢ .

(٥) نقلا عن "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" ، يوسف خليف ، ص ٣٢ .

وهذه العقدة هي المحور الذي تدور حوله تلك الآثار النفسية التي يخلفها الفقر في نفس الفقير .

وقد أطلق الدلجي صاحب "الفلاكة والمفلوكين" على السياط أو الآثار النفسية التي تصيب الفقير نتيجة إحساسه بالفقر "الآلام العقلية" .

وقبل أن نشير إلى هذه الآلام العقلية ، نورد تعريف الدلجي صاحب الفلاكة والمفلوكين للمفلوك : وهو الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره (١) .

فمن هذه الآفات : انقباض الصدر ، والخفة والطيش عند الغضب . ومنها القهر والإكراه . ومتى استولى القهر والغلبة على شخص حدث فيه أخلاق رديئة من الكذب والخبث والخديعة وفساد الطوية والذل . ومنها الحقد : وذلك أنه إذا استحكمت الفلاكة وعرف بها شخص أوسع الناس إغاطة استهوانا فيه وعدم مبالاة لغضبه وأما من غائلته ومغبتة ، فإذا تواردت موجبات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه والإغماض عن كمالاته وتقريعه لزلالاته وتوبيخه على تقصيره وهتك أستاره وإذاعة أسرارهِ وجبهه بأقبح الكلام في وجهه وعدم اعتباره والمبالغة في عتبه ومعاكسته في مراده .. وعجزه عن الوقوف في ذلك موقف نكير ، ولم ينفس غيظه ، استبحرت أسباب الغيظ وزخرت أمواج العجز عن إطفائه بالانتقام عاد ذلك إلى الباطن وأجج فيه نارا وتحول حقدا وضغينة وسخيمة ، وتوقعه موانع الفلاكة عن أعماله فيصير ألما صرفا ووسواسا سوداويا ومعصية مجردة .

ومن هذه الآلام الحسد . ومنها الغيبة والطعن في أعراض الناس والغض منهم . ومنها اندثار محاسن المفلوك ومقاصده الجميلة لأن الناس لا تسمع منه شيئا ... لذلك تراه أحيانا ينسب أعمالا له بارزة لآخر غير مفلوك يسمع له الناس .

ومنها : أن الفلاكة مهما استولت على عالم أو فاضل أو نبيه لزمه بسببها آلام عقلية ، ولا شك أن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني ، ولذلك يكون التعب القلبي أشد إنهاكا للبدن من التعب الجسماني ، ولذلك يتحمل عظيم المشاق البدنية خوفا من العتب والتوبيخ والملامة والتقريع (٢) .

(١) ص ٦ .

(٢) الفلاكة والمفلوكون ، ص ٢١-٢٦ .

ومن هذه الآلام العقلية على أهل العقل والفضل والعزم : تشوقهم وتشوقهم إلى المكارم والمعالي .. ولا شك أن الشوق إلى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهي عنه عذاب مذاب ، ولذلك لا يبتهجون بالأعياد والمواسم بل تكون زيادة في كمدهم (١).

وقد استشهد الدلجي بأشعار مثل هؤلاء المفلوكين في تشوقهم إلى المعالي وتآلمهم على فقدها في الفصل الثاني عشر (٢) . ومنها تآلمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحيانا بحكم البشرية . وأشد من ذلك ألما وأعظم مصيبة إضافة النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء . ومنها ألم الانفراد مع أن الإنسان مدني بالطبع . ومنها الولوع بالأسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع ما فيه من العذاب المذاب ، بشهادة قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "السفر قطعة من العذاب" .

ولقد صرح بتعليل السفر بالفلاكة من قال :

يُقيمُ الرِّجَالُ الْأَغْنِيَاءُ بِأَرْضِهِمْ وترمى النّوى بِالْمُقْتَرِنِ الْمَرَامِيَا (٣)

والسبب في كثرة تنقلات المفلوكين في الأرض أنه متى استولت الفلاكة على شخص في بلد واضطرب في أرجائها وتلكع في طرق معاشها وذاق طبائع أهلها ... وارتياحهم إلى المحامد .. فلم يتوقف في هذا البلد .. سافر إلى بلد آخر .. وإن ظل وضعه كما كان .. سافر إلى بلد ثالث وهكذا .. حتى أنه يتمنى زوال الدول لتتغير الأحوال .

ومنها تعلقهم بالأسباب المستحيلة .. والسبب في ذلك أنه إذا أخفقت مساعي المفاليك وعجزوا عن المعاش الطبيعي ، ودهشوا وتحيروا وعميت عليهم الأنباء وتعلقت نفوسهم بالدنيا ولذاتها تمنوا الأماني وقنعوا بمخادعة الإملاق أو الفقر بالمواعيد الكاذبة واستنشقوا الغنى من حيث لا تهب ريحه وأتوا السعادة من غير أبوابها (٤) .

ولعل الفقراء في العصر الجاهلي كان معظمهم من المفلوكين المذمومين من مجتمعهم كما عبر عن ذلك الشعر الجاهلي .

(١) السابق ، ص ٢٧ .

(٢) السابق ، ص ١٦٧-١٨١ .

(٣) والبيت في ديوان الحماسة ، ٢/٢٩ ، لـ إياس بن القائف .

(٤) قبل السابق ، ص ٢٨-٣٢ .

وعلى سبيل المثال نرى في أخبار الصعاليك - وهم فئة لا يستهان بها في المجتمع الجاهلي - وأشعارهم شعورا حادا بالفقر وإحساسا مريرا بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبتهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرّمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل .

وليس من العدل أن يكون لأحدهم عدد كبير من الإبل وآخر لا يملك غير حبل يجزره لا يعير له (١) . فهذا الأخير الفقير لا بد أن تهتز ثقته بنفسه أو بالآخرين إذا ما أحس بنظرة المجتمع للفقير ، وأنه سيصاب في النهاية بالسلبية والشعور بالنقص .

وكيف لا يشعر الفقير بالنقص ونظرة الإزدراء والإحتقار تلاحقه ، فالفقير مهان ، لا يجد الترحيب من الناس كما يجده الغني . وإذا ما افتقر الشخص بعد غنى جفاه الناس ، ولم يجد عندهم ترحيبا ولا احتراما .

فيروى أنه "كان في الجاهلية رجل حسن الحال ، وكان بنو عمه وأخواله يختلفون إليه ، فيعطيه ويؤمنهم ويقوم بأمورهم ، ثم اختل أمره ، فأتاهم فحرموه ، فأتى أهله كئيبا ، فقالت له امرأته : ما حالك ؟ فقال : دعيني عنك ، وأنشأ يقول :

دَعِي عَنكَ عَنِّي مَآ مِنَ الْعَنَلِ أَعْجَبُ وَلَا بَدُّ حَالٍ بَعْدَ حَالٍ تَقَلَّبُ
وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأَوْنِي مُقْتَرًا مَاتَ مَرْحَبُ
كَأَنَّ مَقْلًا حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مُذْنِبُ (٢)

فما هو شعور المذنب بين الناس ؟!

وعندما يشعر الفقراء بعقدة النقص ، ترى بعضهم يصابون بالسلبية المطلقة ، فيتوقع الفقير منهم حول نفسه ، فلا يخالط الناس ، لما يشعر به من الذل والهوان . وإذا ما نزل عند قوم يبني لنفسه بيتا بعيدا عنهم ، حياء وخجلا لفقره وعدمه وبأسه من الغنى (٣) .

(١) ينظر الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص ٤٦، ٣٢ .

(٢) المحاسن والمساويء ، البيهقي ، ص ٢٧٣ .

(٣) ينظر ديوان عروة ، ص ١٠٨ .

وتجد من يتمنى الموت لنفسه أو لأولاده من بعده (١) خوفاً عليهم من الفقر وسلبياته على حياتهم المادية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية . فتراه لا يخشى على نفسه الموت ، ولا يأسف على حياته فقيراً ، بل أظن أنه يتمنى الموت لأنه لا فقر بعد الموت .

كما يقول عامر بن حوط من بني عامر :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَتَاتَيْنِ عَشِيَّةً مَا بَعْدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ وَلَا عَدَمٌ (٢)

وكيف يأسف الفقير على الموت ، أو يهتم به ، وهو لا يساوي عنزاً جرباء عند قومه (٣) ، وهو كالبعير الأجرب يبتعد عنه الناس (٤) ، وكيف يخاف الموت من يلطم وجهه من ابنة مولاه ، فلا يستطيع أن يحرك ساكناً ، أو يعطى فرصة للدفاع عن نفسه ، كل هذا لا شيء إلا كونه راعياً فقيراً معدماً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً (٥) وفوق هذا كله فالفقير محروم من الحب ، فمن العيب أن يفكر بحب امرأة ويظهر هذا الحب أمام الناس ، وإن فعل فيكون ذلك سخرية واستهزاء به (٦) .

كل هذا كان يخلق عقداً نفسية وآلاماً عقلية لدى الفقير . فكان له الحق أن يتمنى الموت أو الخلاص من هذا الوضع المهين .

ونجد فئة من الفقراء الذين أصيبوا بعقدة الفقر وأحسوا بالنقص ، ورأوا في أنفسهم عزة وكرامة وهمة الرجال ، أخذوا يعوضون هذا النقص بأعمال وصفات تخلصهم من عناء الفقر وشروبه ، وتأهلهم إلى مراتب الأغنياء .

فطوفوا في البلاد ، وسعوا في مناكب الأرض طلباً للمال والغنى ، واحترف بعضهم الغارات للسلب والنهب (٧) .

(١) ينظر ديوان الحماسة ، ١٠١/١ .

(٢) ينظر السابق ، ٢٤٧/٢ . يريد بالعشية آخر النهار .

(٣) ينظر الأغاني (بيروت) ، ١٤٣/١٤ .

(٤) ديوان الحماسة ، ٣٠/٢ .

(٥) ينظر ديوان الشنفرى ، ص ٤٠-٤١ .

(٦) ينظر مثلاً ديوان امرئ القيس ، ص ١١٨ . وديوان علقمة الفحل ، ص ٣٥ . والأصمعيات ، ص ٢٧٤ .

(٧) ينظر مثلاً ديوان بشر ، ص ٤٦ . وديوان الأعشى ، ص ٩١ . وديوان عروة ، ص ١٨٠ ، ١١٥ . والحماسة البصرية ، ١٢٨/١ ، وديوان شعر المتقرب العبدى ، ص ١٩٨ .

فنجذ عزة النفس عند الفقراء ذوي الهمم العالية الذين فضلوا الموت على الحياة الذليلة خوفاً من الهوان والمسكنة ومسألة فلان أو علان وإبتعاداً عن المنة والتفضل عند غير المفضل (١) لأن الموت الحقيقي أهون على الإنسان من الفقر الموت الأكبر (٢) .

والفقير عندما يرى أحداً من الأغنياء صاحب مال ، يكرم ويوجد على الناس من ماله ، بينما هذا الفقير لا يجد قوته أو طعاماً لأولاده ، مما يؤدي ذلك إلى إحساس بالنقص لديه ، فيبتغي المال من أي وجه كان من أجل المال نفسه أو من أجل الجود به اقتداء بالكرماء وأصحاب الأموال . فترى بعض المعدمين لا يهتمهم اللوم ولا منمات الناس ، فهم يطوفون في البلاد ، ويسألون الأقوام الأغنياء . لأن الخطوب أخذت الأنبل فالأنبل من أموالهم ، حتى أضحوا فقراء مملقين قد قيد العدم نائلهم .

كما يشير أوس بن حجر إلى ذلك بقوله :

ولما رأيت العُدمَ قيدَ نائلي وأملقَ ما عندي خُطوبَ تنبُل
فَقَرَّبْتُ حَزْجَوجاً وَمَجَّدْتُ مَعَشَرًا تَخَيَّرْتَهُمْ فِيمَا أُطُوفُ وَأَسْأَلُ (٣)

وفي السؤال ذل وهوان "ومن يكثر التسأل لا بد يحرم" (٤) . ويقول ربعة بن مقروم في ذم خشوع طالب الحاجة وتذلل له لمن يسأله إياها :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِّنْ تَخَشُّعِ ذِي الْحِجَى لِذِي مَنَّةٍ يَزُورُ لِللُّؤْمِ جَانِبَهُ (٥)

فترى صاحب الحاجة يغض بصره حياءً من الناس .

وثمة فئة ثالثة من الفقراء رضوا بواقعهم في الفقر والذل والهوان . دون مبالاة ، وقد أصيبوا ببلادة الحس ، وانعدام التفكير بالواقع ، فكانوا لا يفكرون بشيء أكثر من يومهم ، أو بوجبة طعام إن حصلوا عليها فذلك مناهم وأقصى بغيتهم .

وهذه الفئة قد ذمها بعض الشعراء في العصر الجاهلي ، وأخذوا عليهم أسلوب حياتهم الذليل (٦) .

(١) ينظر مثلاً ديوان عروة ، ص ٢٩ .

(٢) ينظر المحاسن والمساوي ، البيهقي ، ص ٢٧٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٩٤-٩٥ . الحرجوج : الناقة الجسيمة الطويلة وقيل الشديدة الضامرة .

(٤) الحماسة للبحثري ، ص ١٢٥ .

(٥) السابق ، ص ١٤٩ .

(٦) ينظر ديوان حاتم الطائي ، ص ١١٢، ٦٥ . ديوان عروة بن الورد ، ص ٧٢-٧٣ . ديوان

الشنفرى ، ص ٣٤ .

الفصل السادس

مدافع الفقر في الشعر الجاهلي

الفصل السادس

مدافع الفقر في الشعر الجاهلي

-١-

الرحلة والطواف

اعتمد معظم العرب في العصر الجاهلي في معيشتهم على التنقل والارتحال طلباً للكلأ والماء (١) ، فكانوا يقدسون الخصب والمراعي الخضراء ذات الظلال الوارفة ، وينعمون في ظل هذا الخصب كما نرى ذلك عند أهل اليمن السعيدة (٢) ، وكانوا يفتخرون بانتشار الأمن في بعض بلادهم وتأمين السبل للقوافل والتجار ، والمرتحلين والمطوفين (٣) . وكانت حياة العرب في العصر الجاهلي تقوم على التنقل والارتحال والطواف، فترى قوما ينزلون تارة في دار ، وما يلبثون أن يشدوا الرحال الى ديار أخرى ، فكل دهرهم في حل وارتحال "أَكَلَّ الدَّهْرُ حَلَّ وَارْتِحَالَ" (٤) . وكانت بعض القبائل تهاجر اذا ما أصابها جدد وقحط، الى اماكن يتوافر فيها الخصب والمراعي . وهذا ما حصل مع خزاعة عندما أصابها جدد فهاجرت إلى أماكن الخصب كمصر والشام (٥) . وهجرة اهل اليمن بعد خراب سد مأرب (٦) . وهذه الرحلة مقدرة على معظم فئات المجتمع الجاهلي غنيها وفقيرها . أما بالنسبة للفقراء فقد زاد شقاؤهم ، وكثر طوافهم في البلاد ، طلباً للغنى والثراء . وهذا كان دأب من أحس ذل الفقر وهوان قلة المال . يقول عروة :

وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا
فَسِرَ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسَ الْغِنَى نَعِشَ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا (٧)

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ، الأصمعي ، ص ٨٢ .

(٢) السابق ، ص ٧٩، ٨٣ .

(٣) السابق ، ص ٤٩ .

(٤) ديوان شعر المتنبي العبدى ، ص ١٩٨ .

(٥) الأغاني (بيروت) ، ١٤/١٤٦ .

(٦) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٩٣ .

(٧) ديوانه ، ص ٨٩ .

فكان الفقير ذو الهمة يطوف في البلاد ، ويسلك الوديان والجبال والسهول ابتغاء المال والغنى ، وإن نال مبتغاه كان بها وإلا عذر نفسه ووكل همه للبيئة والظروف . يقول عروة :

فإِنِّي لَمُسْتَأَفُ الْبِلَادِ بِسُرْبَةٍ فَمُبْلَغُ نَفْسٍ عَذْرَهَا أَوْ مَطْوَفُ (١)

ويقول في موضع آخر :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا مِنْ الْمَالِ يُطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ (٢)

فكان الفقراء يتغربون عن بلادهم من أجل الغنى (٣) ويكابدون مشقة السفر ، ويتعرضون للأخطار . فهذا الأعشى ميمون بن قيس من قصيدة له يمدح فيها قيس بن معد يكرب الكندي ، يتحدث عن نفسه ، فيمضي في الحديث عن ابنة له تخاف عليه مخاطر الطريق في رحلاته التي لا تكاد تنتهي ، وتشكو إليه وحدتها وانفرادها من بعده فيعزيها ويهدئ مخاوفها ، ضارباً لها الأمثال ، مواسياً بالقصص والأخبار . وتقول ابنته له وقد عزم على الرحيل : أقم ولا تبرح ، فإننا بخير ما دمت مقيماً ، فإذا أضمرتك البلاد جفانا الناس ، وقطعتنا الأرحام ، فنحن والأيتام سواء . فقال لها : أفي الأسفار تخافين علي الموت ؟ وكم ميت مات في فراشه لم يبرح بلده ، وليست هذه يا ابنتي بأولى رحلاتي ، فقد طفت في سبيل المال أفاق الأرض ، وابتغيته في كل مكان . يقول الأعشى :

وَقَدْ طُفْتُ لِلْمَالِ أَفَاقَهُ عَمَانَ فَحِمَصَ فَأُورِشَلِمَ
أَتَيْتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّبِيطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ
فَنَجْرَانَ فَالَسَّرَوُ مِنْ حَمِيرٍ فَأَيُّ مَرَامٍ لَهُ لَمْ أَرَمْ
وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ فَأَوْفَيْتُ هَمِّي وَحِينًا أُهُمُ (٤)

ويقول الأعشى كذلك في ابتغاء المال :

وَمَازِلْتُ أَبْغِي الْمَالَ مُدًّا أَنَا يَافِعٌ وَلِيداً وَكَهْلاً حِينَ شَبْتُ وَأَمْرَدًا (٥)

ولكننا نجد البعض يريد أكثر من الغنى المادي ، فيطمح إلى الملك أو يموت دون ذلك .

يقول امرؤ القيس بن حجر في موضع من شعره :

(١) ديوانه ، ص ١٠٨ . السربة : جماعة الخيل من عشرين إلى ثلاثين .

(٢) السابق ، ص ٤٠ . وينظر في مثل هذا المعنى ديوانه ، ص ٤٣ .

(٣) ينظر الحماسة البصرية ١/ ١٢٨ .

(٤) ديوانه ، ص ٩١ . الهم : الهمة والعزم . أوفيت : أتممت .

(٥) السابق ، ص ١٨٥ .

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلَ مِنَ الْمَالِ (١)

ويقول في موضع آخر :

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى النَّزْبَ دُونَهُ وَأَيَقَنَ أَنَا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكُ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوُلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذِرَا (٢)

-٢-

الحروب والغارات

كانت فئة من الجاهليين قد احترقوا أسلوب الغارات والحروب للسلب والنهب لابتغاء المال والنعم والثراء. ووجدوا أن خلاصهم من الفقر هو في الغزو والغارات على أهل الغنى والمال وأصحاب الإبل والغنم .

وقد كان "من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام " (٣) لسد الرمق ، والحصول على الزاد وردّ الجوع المضني .

وتكون الحروب والغارات من أجل الحصول على الأماكن الخصبة (٤) . أو استجلاب المال والغنائم (٥) ، وللتخلص من شدة الفقر (٦) أو التقرب من الغنى والثراء (٧) . فكان بشر بن أبي خازم يفتخر بركوب الخيل ودخول المعترك لشراء المال إذ يقول من ذلك :

بِكُلِّ كَسْبِيَّةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا أَرَدْتُ ثَرَاءَ مَالِي أَوْ صَلاحي (٨)

وقد سبق أن تحدثت عن الحروب والغارات في فصل مظاهر الفقر، وأشرت إلى هذه الحروب والغارات كوسيلة من وسائل دفع الفقر أو التخفيف منه .

(١) ديوانه ، ص ١٤٥ . وفي "عيون الأخبار" لابن قتيبة ٢٣٥/١ .

(٢) ديوانه ، ص ٦٥-٦٦ . و"بهجة المجالس وأنس المجالس ٢١٠/١ . ومعجم الشعراء للمرزباني ، ص ٢٠٠ .

(٣) الاشتقاق ، لابن دريد ، ص ٢٤٦ .

(٤) ينظر مثلاً ديوان أوس بن حجر ص ٥٧ . وديوان بشر ٧٣ . وديوان عامر ، ص ٥٦ .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ، ص ٨٥ .

(٦) ينظر ديوان الهذليين ٨٣/١ .

(٧) ينظر ديوان سلامة بن جندل ، ص ١٠٩ .

(٨) ديوانه ، ص ٤٦ .

-٣-

الصعلكة

سبق أن تحدثنا عن الصعلكة بإسهاب في مظاهر الفقر ، وأن الصعلالك كانوا فقراء معدمين ، فأخذوا يعوّضون فقرهم بالتشرد في الصحاري المقفرة ، واحتراف اللصوصية والغزو للسلب والنهب .

-٤-

احتراف المهن

مثل الصيد واشتياز العسل ، وغيرها من المهن . وأكتفي بهذه الإشارة ، لأنه سبق لي أن تحدثت عن بعض الحرفيين في صورة الفقراء ، وعلى الرغم من الاحتراف فإن أصحاب الحرف ظلوا يشكون الفقر ولو لحين من الزمن .

-٥-

الكرم

تحدثنا عن الكرم - أيضاً - في مظاهر الفقر بما فيه الكفاية ، وكيف كان الكرماء الأغنياء يعطون الفقراء والمحتاجين ولا يخلون عليهم بشيء . مما أسهم في التخفيف من حدة فقرهم وشقائهم . فكان الفقراء يكون الكريم الجواد إذا مات ، تقول الخنساء في رثاء أخيها :

لِيُكِبْهُ مُقْتَبِرٌ أَفْنَى حَرِيْبَتَهُ دَهْرٌ وَحَالَفَهُ بَوْسٌ وَإِقْتَارُ (١)

والكرم من الوسائل التي تخفف من حدة الفقر والجوع والألم والحرمان . وعلى ذمة حجة بن المضرب فإن الكرم والعطاء والندى يمكن أن تمسح الفقر عن وجه البسيطة إذا كان في الأرض مثل قوم يعفر بن زرعة الممدوح ، يقول حجة من ذلك :

ولو كان في الأرض البسيطة مثلهم لِمُخْتَبِطٍ عَافٍ لَمَّا عُرِفَ الْفَقْرُ (٢)

وكان من أخلاقيات بعض الأقوام خلط الفقراء بالأغنياء ، حتى يكسروا بذلك حدة الشعور بالفقر لدى الفقراء وإمكانية مساعدتهم ، وتخليصهم من الفقر ، " ويكون افتقارهم للفقير أكثر مايكون في سنة المحل وفي الشتاء الجديد (٣) .

(١) ديوانها ، ص ٥٠ ، حريته أرادت ماله . البؤس : العذاب والشدة . الإقتار : الفقر .

(٢) الحماسة البصرية ، ٤٥٧/١ .

(٣) البيان والتبيين ، ٢٣٣/٣ .

الميسر

والميسر مظهر من مظاهر الكرم . وكنت قد أشرت إلى الميسر إشارة سريعة في الكرم كمظهر من مظاهر الفقر . وأودّ أن أفصل بعض الشيء في الميسر ، لأهميته في مساعدة الفقراء والمحتاجين خصوصاً في أوقات الجذب والمحل ، وكثرة حديث الشعراء الجاهليين فيه .

" وكانت العرب ، إذا كان الشتاء ونالهم القحط ، قُلّت ألبان الإبل ، استعملوا الميسر ، وهي الأزلام وتقامروا عليها ، وضربوا بالقداح ، وكانت قداح الميسر عشرة : سبعة منها لها أنصب ، وثلاثة لا أنصب لها (١) .

ووصف اليعقوبي كيفية الضرب بالقداح على الجزور ، عندما يأتي الجزر - بعد أن تشتري الجزور - ويذبحها ، ويقطعها ويقسمها إلى عشرة أقسام وتبدأ عملية القمار أو الضرب بالقداح (٢) .

فلقد كان العرب في العصر الجاهلي يتقامرون بضرب القداح (٣) على الجزر ، يقسمونها على المحتاجين ، وأكثر ما يفعلون ذلك في فصل الشتاء حين الجذب والقحط ، وقلة الأمطار .

وكانوا ييسرون بالإبل ، ويختارون منها السمينة العظيمة الضخمة ، والمسنة ، والعاقرة ، والمطفل ، والعشراء وغالباً ما ييسرون بهذه الإبل في وقت الشدة ، وفي سنة الجذب والقحط والبرد ، والتي يشح فيها ألبان أنعامهم ، وتقل أرزاقهم ويكثر فيها الفقراء والمحتاجون والجوعى .

فكانوا ييسرون في فصل الشتاء وعند شح السماء وقلة الماء ، وعند اشتهاة اللحم والشواء ، وعند غلاء أثمان الإبل .

وكانوا ييسرون إذا تقابلت الرياح وهبت من كل جهة وهذا يكون عند المحل ، وكذلك عند وجود الشفان والصراد وريح الشمال الباردة ، وإذا ما هبت رياح الصبا .

(١) ينظر في ذلك " تاريخ اليعقوبي " ، ٢٥٩/١ .

(٢) تاريخه ، ٢٦٠/١-٢٦١ . وينظر في الميسر والضرب بالقداح عند العرب وطريقته في المحرّ لابن حبيب ، ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٣) ينظر مثلاً ديوان حاتم ، ص ٨٤ . وديوان طرفة ، ص ٥٦ .

لذلك نرى الشعراء الجاهليين يفتخرون بأنفسهم وبقبائلهم بأنهم يشتركون في الميسر في أوقات الجذب وحين انتشار الفقر والجوع ، ويتمدحون بالميسر ويهجون البرم : وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر إذا كان قادراً عليه .

ونرى أن الغرض الأساسي من الميسر هو إطعام الجوعى وإبعاد شبح الجوع قدر الإمكان ، ومساعدة الفقراء والمساكين . وكان الأغنياء يشتركون أحياناً في طعام الميسر لشدة الزمان على الجميع .

وممن يستفيد من طعام الميسر الجار ، والضيف ، والسائل المحتاج وهذا ما صورته لنا الشعر الجاهلي منبئاً في قصائد الفخر والمدح والثناء غالباً .

فهذا سلامة بن جندل السعدي يشير - مفتخراً - إلى جوده وجود قبيلته من قصيدة بدأها بأسفه على شبابه ، وكيف أن الجار والضيف الغريب والسائلين يسعدون بهم لكرمهم ، ومساعدتهم إياهم ، وأنهم يشتررون النوق المسنة بثمن غال ييسرون بها ، إذ يقول :

قَدْ يَسْعَدُ الْجَارُ وَالضَّيْفُ الْغَرِيبُ بِنَا وَالسَّائِلُونَ وَتُعْلِي مَيْسِرَ النَّيْبِ (١)

ويقول لبيد بن ربيعة العامري في معلقته مفتخراً بالميسر ، وأنه دعا ندماء لنحر جزور أصحاب ميسر بأزلام متشابهة الأجسام ، وسهام الميسر يشبه بعضها بعضاً ، ويدعو بالقдах لنحر ناقة عاقر أو مطفل ، تبذل لحومها لجميع الجيران :

وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ بَذَلْتُ لِجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا (٢)

وإنما ذكر لبيد العاقر لأنها تكون أسمن ، وذكر المطفل لأنها أنفس .

ويكون الميسر في النوق السمينة "في المنقيات" (٣) و "في الزاهقات" (٤) وفي الإبل التي عليها الأحمال "وفي الحمول" (٥) وكذلك "وفي التي أبقت سناماً كالغريء المجدد" (٦) وكذلك في

(١) المفضليات ، ص ١٢٠ . النيب : جمع ناب وهي المسنة من النوق . وإغلاؤها شراؤها بثمن غال .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ٩٧-٩٨ . والعاقر : التي لا تلد والمطفل : التي معها ولدها .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٩١ .

(٤) ، (٥) ، (٦) من بيت لعوف بن عطية بن الخرع في الاصمعيات ، ص ١٩٥ . الغريء : نصب يذبح عليه النسك . والمجدد : المصبوغ بالجسد وهو الدم الذي يراق على النصب .

النوق العشار العظام (١) . فالميسر يكون بالإبل وحدها : فلو صار الجاهليون ييسرون بالخيـل
ليسـر بها علقمة بن عبدة الذي يقول :

لو ييسرون بخيلٍ قد يسرتُ بها وكلُّ ما يسرّ الأقوام مغرومٌ (٢)
ولكن الخيل لا يقامر عليها في الميسر .

* * *

ويكون الميسر في السنة الشديدة على الناس ، في السنة الشهباء أي البيضاء من
الجذب لكثرة الثلج ليس فيها نبات ولا يجد الناس لبناً ، فينحرون الإبل وييسرون بها ،
لذلك نرى الشعراء يتمدحون بمن يشترك في الميسر في مثل هذه السنة ، خصوصاً في
الشتاء البارد حين يدخل الناس بيوتهم من البرد ، كما يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى
في مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف وقومهما ، بأنهم يأخذون سمان الجزر
ولا ينحرون إلا غاليه ويمنحون أموالهم من يسألهم من المحتاجين في السنة الشهباء كما
يقول :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفتُ ونال كرام المال في السنة الأكلُ
رأيتُ ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقلُ
هنالك إن يستخبّلوا المال يخبلوا وإن يسألوا يغطوا وإن ييسروا يغلوا (٣)

وكان الجاهليون يعتمدون - غالباً - على غيث السماء ، فإذا ما قلت الأمطار ، أصيب
الناس بالقطط والمحل والجذب وشاع الفقر بينهم ، فنرى الشعراء يتمدحون بالميسر عند الشتاء
وقلة المطر : كما يقول زهير بن أبي سلمى مادحاً :

أيسار صدق ما علمتهم عند الشتاء وقلة الأنواء (٤)

وفي الشتاء ترتفع أثمان الجزر ويرتفع نصيب الأيسار فيها ، فنجدهم يفتخرون بمن ييسر في
هذا الظرف ، ويشير إلى ذلك طرفة بن العبد مفتخراً بقومه وكيف أنهم ييسرون ، ويدخلون الذي
لهم عليه دين في الميسر ويغرمون عنه كما يقول :

(١) ينظر الأصمعيات ، ص ١٨٤ . وديوان الحماسة ، ٢١٣/١ .

(٢) المفضليات ، ص ٤٠٣ . مغروم : يقول إذا خرج عليه شيء غرمه .

(٣) شرح شعره ، ص ٩٢ . الاختبال : المنيحة .

(٤) شرح شعره ، ص ٢٤٧ . واحد الأيسار يسر وهم المقامرون في الجاهلية . الأنواء : الأمطار
التي تجيء بالنوء وهو النجم . يقال مطرنا بنوء كذا وكذا أي بنجم كذا وكذا أي بسقوط ذلك النجم
وطلوع غيره . يقال ناء النجم : سقط .

وَهُمْ أَيْسَارُ لَقَمَانٍ إِذَا أَغْلَتِ الشَّتْوَةُ أَبْدَاءَ الْجُزُرِ
لَا يُلْجَأُونَ عَلَى غَارِمِهِمْ وَعَلَى الْأَيْسَارِ تَيْسِيرُ الْعَسْرِ (١)

ويقول طرفة بن العبد مفتخراً بنفسه وبقومه بالميسر إذا اشتد الشتاء على الناس فأخذوا يقربون بيوتهم بعضها من بعض ، ليستكنوا فيها من البرد فيكون رزقهم من المنقيات في الميسر:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَرِمَ الشِّتَاءُ وَدُوخِلَتْ حُجْرُهُ
يَوْمًا وَدُونِيَّتِ الْبُيُوتُ لَهُ فَتَنَى قُبَيْلَ رَبِيعِهِمْ قِرْرُهُ
رَفَعُوا الْمُنِيحَ وَكَانَ رِزْقُهُمْ شَرْطًا قَوِيماً لَيْسَ يَحْبِسُهُ
لَمَّا تَتَابَعَ وَجْهَهُ عُسْرُهُ (٢)

ويشير عنترة العسبي إلى رجل قام بنزاله ، يصفه بأنه سريع اليد ، خفيفها في إجابة القداح في الميسر عند برد الشتاء ، كريم جواد ، يقول فيه :

رَبِّدْ يَدَاهُ بِالْقَدَاحِ إِذَا شَتَا هَتَاكَ غَايَاتِ التَّجَارِ مَلُومَ (٣)

وإذا كان العرب في الجاهلية يفتخرون بالوفاء ، فإنهم يفتخرون بالميسر في الشتاء والجذب وعند اشتواء اللحم ، يقول بشر بن أبي خازم الأسدي مفتخراً بنفسه وبقبيلته بصفات محمودة منها :

فَمِنْهُمْ نَ الْوَفَاءُ إِذَا عَقَدْنَا وَأَيْسَارٌ إِذَا حُبَّ الْقَتَارُ (٤)

(١) ديوانه . ص ٨٨ . أيسار لقمان : قوم كرام ضربهم مثلاً لقومه . الأيسار : أصحاب قداح ، الميسر الواحد يسر . أبدأء الواحد بدء : النصيب من الجزور ، أي ما يذبح . غارمهم : الذي لهم دين عليه . تيسير العسر : أراد ادخاله في الميسر يغرمون عنه .

(٢) ديوانه ، ص ٩١ . أزم : اشتد . حجرة : غرفه . ودوخلت : أي جعلت واحدة داخل أخرى ليستكنوا فيها من البرد . دونيت : قرب بعضها من بعض . تنى : عطف . قررته : الواحدة قررة : البرد . المنيح : قدح مستعار لا يأخذ صاحبه شيئاً . المنقيات : النوق السمينية . يسره : القوم المجتمعون على الميسر . شرطاً قوياً : أي جعلوا ما ذكره في البيت السابق شرطاً قوياً . يحبسه : يحببه . عسره : أي الضيق والفقر .

(٣) ديوانه ، ص ١٦ . وشرح المعلقات السبع للزوزني ، ص ١٢٧ ، ربذ : سريع . شتا دخل في الشتاء . الغاية راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه بها . التجار أراد الخمارين . الموم : الذي ليم مرة بعد مرة . هذا الرجل كان يشتري كل الخمر .

(٤) المفضليات ، ص ٣٤٢ . القطار : ريح الشواء .

ويكون الميسر في فصل الشتاء لإطعام الناس ونفعهم ، إذ كانوا يضربون القداح في هذا الفصل الذي يشيع فيه الفقر والجوع ، فإذا أقبل الصيف وأخصبت الناس أخذوا يتحدثون في مثالب البخلاء ، يقول مرقش الأكبر مفتخراً بقومه ، وأنهم يبسرون ، وإذا ضربوا بالقداح لم يفحشوا ولم يسفهاوا لأنهم لا يريدون ببسرهم نفع أنفسهم ، إنما يطعمونه للناس :

إِذَا يَسَرُّوا لَمْ يُوَرِّثِ الْيَسْرُ بَيْنَهُمْ ۖ فَوَاجِشْ يُنْعَى ذِكْرُهَا بِالْمَصَافِي (١)

* * *

وكان العرب يفخرون بلعب الميسر إذا تقابلت الرياح وهبت من كل جهة ، كناية عن الجذب ، يصرح بذلك المنخل الإشكري ، موجهاً خطابه إلى العاذلة ، يريد بها أن تفارقه إلى العراق ، وأن لا تنتظر إلا حسبه وكرمه ، ويصف لها جوده في زمان الجذب ، ويفخر بالميسر إذا هبت الرياح في الشتاء ، في هذا الوقت يضرب قدحه ويستعير قدحاً يضرب به في الميسر ، إذ يقول :

إِنْ كُنْتُ عَاذِلْتِي فَسِيرِي	نَحْوَ الْعِرَاقِ وَلَا تَحْوِرِي
لَا تَسْأَلِي عَنْ جُلٍّ مَا	لِي وَأَنْظُرِي حَسْبِي وَخَيْرِي
وَإِذَا الرِّيحُ تَكَمَّشَتْ	بِجَوَانِبِ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ
أَلْفَيْتِي هَشَّ النَّدَى	بِشْرِيحٍ قَدْحِي أَوْ شَجِيرِي (٢)

وإذا كان العرب يمدحون من يبسر عند هبوب الرياح وتقابلها ، فهم يهجون البرم ، وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ، فهذا دريد بن الصمة ينفي صفة البرم عن أخيه عبد الله إذا تقابلت الرياح في المهيب واشتد هبوبها ، واصفا إياه بالشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم ، فيقول :

(١) المفضليات ، ص ٢٣٣ . اليسر : المصدر . يسروا : ضربوا بالقداح .

(٢) الاصمعيات ، ص ٥٣ . وفي ديوان الحماسة لأبي تمام ١٠٤/١ مع تغيير في بعض الألفاظ ، فمثلاً بدلاً من تكمشت تتاوت . وبدل الكبير : الكبير في ديوان الحماسة . لا تحوري : لا ترجعي . تكمشت أسرع . تتاوت : تقابلت هبت من ههنا وههنا . الكبير : الذي له كسور وهي ما مس الأرض من هذاب الخيام وفيها حبال تشد بها . بمرى قدحي : بإجالتة . الشجير : الغريب . والمعنى : إذا ظهر الجذب تجدني خفيف اليدين بإجالة أقداحي عند حضور الأيسار وأضم ، إليها القدح الغريب المستعار كثيراً لها واهتزازاً لكثرة الجود .

وإن يك عبد الله خلى مكانه
فما كان وقافا ولا طائش اليد
ولا برما إذا الرياح تناوحت
برطب العضاه والضريع المعضد (١)

ونجد هذا المعنى في شعر زهير بن أبي سلمى حيث ينفي عن هرم بن أبي سنان صفة البرم (٢) وكذلك يفتخرون بالميسر إذا أراحوا الإبل عشاء إلى الحظائر من شدة البرد ونقصت ألبانها ، وهبت رياح باردة ، رياح الشفان والصراد ، ويطعمون أهل المحلة ، والجار والمجتدي ، كما يصرح بذلك سنان بن أبي حارثة المري حين يشكو من الكبر وضعف البصر ، ثم يرتاح إلى ذكريات الشباب مفتخرا بالميسر زمان الجذب :

وقد يسرت إذا ما الشول روحها
برد العشي بشفان وصراد
نمت أطعمت زادي غير مدخر
أهل المحلة من جار ومن جاد (٣)

وكانوا يبسرون عند هبوب ريح الصبا ، كما يشير عوف بن عطية بن الخرع التيمي إلى ذلك مفتخرا بنفسه ، وأنه يبسر بالإبل السمينة عند هبوب ريح الصبا الهوجاء التي لا تدوم على جهتها في هبوبها والتي تضرب حظيرة الإبل التي تعمل من الشجر لتقيها من البرد والريح ، وكل ذلك ردا على التي تسخر منه ومن هزاله لكبره وعلته ، فأجابها عوف بأنه كان في شبابه ذا فتوة يزاول الميسر في كرام الإبل وخيارها ليشيع الخصب والرخاء في جيرانه وأهل مقامته ، يقول :

فلقد زجرت القدح إذ هبت صبا
خرقاء تقذف بالحظار المسند
في الزاهقات وفي الحمول وفي التي
أبقت سنما كالغري المسند
فإذا قمرت اللحم لم أنظر به
نيئا كما هو مأوه شرق الغد

(١) الأصمعيات ، ص ١١٣ . خلى مكانه أي مات . الوقاف : المحجم عن القتال . العضاه : ما عظم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه ، الواحد عضاهه . الضريع : نبت بالحجاز له شوك كبار هو (الشبرق) . المعضد : يقال : (عضد الشجرة) نثر ورقها لإبله أو قطع فروعها بالمعضد .

(٢) ينظر شرح شعر زهير ، ص ١٢٤ .

(٣) الفضليات ، ص ٣٥-٣٥١ ، وفي الأصمعيات ، ص ٢٤٣ . الشول : الإبل التي شولت ألبانها أي نقصت ، واحدها شائلة . الجادي : المجتدي الذي يطلب الجدا وهو العطية .

وَجَرَى بِأَغْرَاضِ الْبُيُوتِ وَأَهْلِهَا وَإِلَى الْمَقَامَةِ ذِي الْغِنَى وَالْمُجْتَدِي (١)

* * *

ومن أهداف الميسر وأغراضه إطعام الفقراء ، يشير إلى ذلك علباء بن أرقم مفتخرا بنفسه في قوله :

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالْذَّخَانِ تَقَنَّنَتْ وَاسْتَعْجَلَتْ نَصَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ
دَرَّتْ بِأَرْزَاقِ الْعِيَالِ مُغَالِبَقَ بِيَدَيَّ مِنْ قَمْعِ الْعِشَارِ الْجَلَّةِ (٢)
ومن أغراض الميسر دفع الجوع ، كما يصرح بذلك علقمة بن عبدة في قوله :

وَقَدْ يَسَّرَتْ إِذَا مَا الْجُوعُ كَلَّفَهُ مَعْقَبَ مِنْ قِدَاحِ النَّبْعِ مَقْرُومَ (٣)

فالميسر يكون في الوقت الذي يكلف دفع الجوع فيه القداح ليس معول على لبن ولا طعام غير الضرب بها ، وإذا كان الجوع لا يسده إلا الضرب بالقداح .

-٧-

الوَادُ

يقول ابن منظور في معنى الواد : "وَاد ابنته يَنْدُهَا وَأَدَا : دَفَنَهَا فِي الْقَبْرِ وَهِيَ حَيَّة . أَنَشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ :

مَا لَقِيَّ الْمَوْعُودُ مِنْ ظُلْمِ أُمِّهِ كَمَا لَقِيْتُ ذُهْلَ جَمِيعًا وَعَامِرُ

(١) الأصمعيات ، ص ١٩٥-١٩٦ . زجرت القدح : كانوا يضربون بقداح الميسر فيصيحون بها ويزجرونها إذا ضربوا كما يفعل المقامرون بالنرد . والصباريح مهبها من الشرق . الزاهقات : الإبل السمينة . الحمل التي عليها الأحمال . الغري : نصب يذبح عليه النسك . المسجد : المصبوغ بالجسد وهو الدم الذي يراق على النصب . قمرت اللحم يريد كسبته . لم أنظر به : لم أؤخره . نيتا حال من الضمير في "به" . شرق الغد : يقال للشمس "شرق" أراد أنه يطعم اللحم غضا رطيبا لا يؤخره إلى الغد . أعراض البيوت : نواحيها يريد أنه يعم بهذا اللحم بيوت المحلة ونحوها . المقامة : الجماعة يجتمعون في مجلس .

(٢) الأصمعيات ، ص ١٨٣-١٨٤ . والبيتان في ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٢١٣/١ . منسوبة . والمغالق جمع مغلق وهو سهم الميسر . والقمع جمع قمعة وهي أعلى السنام من الإبل . العشار جمع عشار التي عليها من حملها عشرة أشهر . ومعنى البيت الثاني : إذا كانت الحال كما ذكر في البيت السابق أديرت القداح لينال ذوو الحاجات من أعلى سنام النوق العظام .

(٣) المفضليات ، ص ٤٠٣ . معقب : يعني قِدْحًا قد شد بالعقب علامة ، والعقب العصب . النبع شجر تتخذ منه القسي والقداح . مقروم : معضوض ليكون علامة له .

أراد من ظلم أمه إياه بالوآد ... ، وكان الرجل في الجاهلية إذا ما ولدت له بنت دفنها حية . تضعها والدتها حية مخافة العار والحاجة فأَنْزَلَ الله تعالى "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق" (١) .

ومنهم من كان يند البنين عند المجاعة ، وكانت كندة تئد البنات ؛ وقال الفرزدق يعني جده صعصعة بن ناجية (٢) :

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الْوَأْدَاتِ وَأَخِيَا الْوَيْدَ فَلَمْ يُوَادِرْ (٣)

فكان العرب في العصر الجاهلي بوجه عام يكرهون المولود أن يكون أنثى ، وكانوا يعززون الذكور أكثر من الإناث في مجتمع يقوم على الصيد والغزو والحروب ، لأن الذكر يغني حيث لا تغني الأنثى (٤) ولأنهن لا يساهمن اقتصاديا (٥) ، ولأن البنت ليست عنصرا مقاتلا ، والخشية عليها من السبي ، والفقر والحاجة . وإمكانية انتهاك حرمتها مما يسبب العار لأهلها (٦) . وقد أشار الله تعالى إلى كراهيتهم للبنات في قوله تعالى : "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون" (٧) .

وعادة الوآد كانت شائعة لدى العرب عامة ولكنها اختفت قبيل الإسلام إلا في تميم (٨) . وأكثر انتشار عادة الوآد في العصر الجاهلي كان في قبائل معينة كربيعة وكندة وتميم وقيس وهذيل وبكر وقريش ومضر وخزاعة وأفراد متفرقين مغمورين (٩) . والأخبار والروايات وأبحاث الباحثين ذهبت مذاهب كثيرة في بيان سبب الوآد .

(١) سورة الإسراء ، آية ٣١ .

(٢) لسان العرب مادة "وآد" .

(٣) الأغاني (دار الثقافة بيروت) ، ٣٠٥/٢١ .

(٤) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص ٢٢٤ .

(٥) ينظر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٦) قضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص ٣٥٢ .

(٧) القرآن الكريم ، سورة النحل ، آية ٥٨-٥٩ .

(٨) ينظر بلوغ الأرب ، للأكوسي ، ٤٢/٣ .

(٩) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، أحمد محمد الحوفي ، ص ٢٢٨ . وتاريخ العرب في عصر الجاهلية ، السيد عبد العزيز سالم ، ص ٣٩٧ . وقضايا الشعر الجاهلي ، علي العتوم ، ص ٣٥٣ .

فمنهم من أرجع الواد إلى خوفهم من العار (١) . ومنهم من أرجعه إلى خوفهم من الأسر ، وما يتبع الأسر والسبي من العار . "فالسبي كان يعد سبة ما بعدها سبة" (٢) . ولأن النساء كانت تؤسر أكثر من الرجال ، وذلك لأنهن أضعف منهم في الدفاع عن أنفسهن ، وكثيرا ما يكون أمر الدفاع عنهن عبئا ثقيلا على الرجال ، ولم يكن الأسر يطلق سراح الأسيرة في كل حين ، فربما لا يكون عند أهلها المال الكافي لافتدائها به ، كما قد يعجزون عن استردادها بالقوة ، لهذا كانت الأسيرات ، إذا أراد الأسر ، ترسل إلى أسواق النخاسين في المدن التجارية ، مثل مكة والمدينة وخيبر ... لتباع رقيقا (٣) لذلك نرى خوف المجتمع الجاهلي من السبي وأسر نسائهم في الحروب والغارات ، ونرى ذلك واضحا في شعرهم .

ومن الباحثين من أرجع سبب الواد إلى اعتقاد ديني ، فكانوا يقدمون بناتهم قربانا للآلهة اقتداء ببعض الأمم الأخرى (٤) "وأما الواد الذي كانت تفعله قريش وكثير غيرها من العرب فإنه من قبيل العبادات الوثنية في تقريب الأنثى" (٥) .

ومن الباحثين من أرجع الواد إلى عوامل اجتماعية ، ومنها ما يتعلق بالصحة كمقتل من يولد ضعيفا ، أو مريضا ، أو مصابا بعاهة جسيمة مستديمة بحيث يكون عالة كبيرة مدى حياته . والبنات والأولاد سواء في قتل ذوي العاهات (٦) .

ومن الباحثين من أرجع الواد إلى أكثر من سبب ، فيشير محمد أحمد الحوفي إلى أن ذلك يعود إلى غيرة العربي على العرض ، وخوفا من العار ، وخشية الاتفاق وخوف الفقر (٧) .

وشوقي ضيف يرجع سبب الواد إلى خشية العربي من الفقر أو السبي "فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك أجلاف قساة القلوب ، كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبي . إذ كان سباؤهن كثيرا في الجاهلية" (٨) .

(١) الأغاني (بيروت) ، ٦٦/١٤ . والكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، ٢٨٩/١ .

(٢) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، ص ٧٥ .

(٣) الأمومة عند العرب ، ويلكن ، ص ٥٠ .

(٤) مركز المرأة في الإسلام ، السيد أمير علي ، ص ٤٥ .

(٥) عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، سعيد الأيوبي ، ص ٣٩٥ .

(٦) الأمومة عند العرب ، ويلكن ، ص ٥٠ .

(٧) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ٢٢٥ .

(٨) العصر الجاهلي ، ص ٧٥ .

ويعتقد سعيد الأيوبي أن الوأد كانت أسبابه في البداية دينية وثنية بالدرجة الأولى ، فقيس بن عاصم التميمي وأد ثمانى بنات في الجاهلية ضحى بهن تقرباً للآلهة ، إذ لا يصح في الأذهان أن يكون فعل ذلك خوف الفقر وهو ذو مال وافر وسيد قومه وبعدها تأصلت هذه العادة الوثنية في نفوس الجاهليين ، امتزجت عندهم بأسباب أخرى اقتصادية واجتماعية . فكانوا إذا أجدبوا وانعدمت فرص العيش أو انقفلت سبل الحياة في وجوههم ، أو قامت بينهم الحروب وجدوا أن لا ملجأ من الفقر والعار إلا إلى الوأد ، تستحثهم في ذلك عبادات وثنية ورغبة في التقرب من الآلهة ، حتى تفرج كربهم ، ويعود إليهم أمنهم وعيشهم ، ولم يكن كل ذلك بمعزل عن خوف الفقر والعار أيضاً (١) .

ويقول سعيد الأيوبي "وهذا الوأد كان يشمل الذكور والإناث إلا أن ظروف حياتهم ومعيشتهم في الصحراء جعلتهم يتحايلون على استبقاء الذكر بتقديم الفدية ، فحينما عاب الله ذلك عليهم ، استعمل لفظ "أولادكم" وهو يدخل فيه الذكور والإناث" (٢) ، وذلك في قوله تعالى : "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق" (٣) ، وفي قوله تعالى : "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم" (٤) .

ومن الباحثين من جعل سبب الوأد العامل الاقتصادي . والفقر والحاجة في أكثر الأحوال وهذا ما يراه علي الهاشمي (٥) ، وأخذ برأيه السيد عبد العزيز سالم (٦) .

(١) ينظر عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، ص ٣٩٦-٣٩٧ .

(٢) السابق ، ص ٣٩٧ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، آية ٣١ . وشرح الزمخشري لها : قتلهم أولادهم : وأدهم بناتهم ، كانوا يندونهن خشية الفاقة وهي الإملاق .. الكشف ، ٤٤٨/٢ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة الأنعام ، آية ١٣٧ . وشرح الزمخشري لها : "أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرمهم للآلهة . وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلام لينحرن أحدهم ، كما فعل عبد المطلب" ؛ الكشف ، ٥٣/٢ . وهذا ما يؤيد أن قتل الجاهليين لأولادهم بناتهم وأبنائهم كان اعتقاداً دينياً .

(٥) في كتابه : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٠٣ .

(٦) في كتابه : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣٩٩ .

وفسر علي الهاشمي رأيه في أن السبب الرئيس والأقوى للوَأد هو الحاجة والفقر وسوء الأحوال الاقتصادية في بلاد العرب في العصر الجاهلي بقوله : "كانت بلاد العرب قليلة الزراعة ، تعتمد في كثير من غذائها على البلاد المجاورة ، وكثيرا ما انتابتها المجاعات ، والقحط ، واضطرت قبائلها إلى الهجرة . وكانت أحيانا تقوم بعض الموانع على الهجرة . وفي هذه الحالة كانت قبائلها تسعى لتجد لها مخرجا بإنقاص الاستهلاك فتأخذ بأبسط الوسائل ، كقتل الأطفال أو بيعهم" (١) .

وعلى الرغم من اختلاف الآراء في أسباب الوَأد ، والتي لها ما يؤيدها في كتب التاريخ والأدب ، إلا أن أكثر الدوافع لدى العرب في العصر الجاهلي للوَأد كان ناتجا عن فقرهم أو خشيتهم منه .

وخير ما يؤيدنا في هذا الرأي القرآن الكريم . فيقول الله تعالى من سورة الأنعام : "ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق نحن نرزقكم وإياهم" (٢) . ويقول تعالى من سورة الإسراء : "ولا تقتلوا أولادكم خشية إِملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا" (٣) .

وجاء في شرح الزمخشري للآية الأولى "من إِملاق" من أجل فقر ومن خشيته ، كقوله تعالى : "خشية إِملاق" (٤) ومن شرحه للآية الثانية "قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم كانوا يثدونهن خشية الفاقة وهي الإِملاق ، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم" (٥) .

وما يؤيدنا أيضا في أن الفقر والحاجة كانت الدافع الرئيس للوَأد ، أنه روي عن صعصعة جد الفرزدق ، وكان يكره الوَأد ، أنه سعى لمنع الوَأد بشراء المؤودة ، وقد افتدى على ما ذهبت إليه الروايات ستا وتسعين مؤودة في الجاهلية حتى ظهور الإسلام ، كان فداء كل مؤودة بعيرا وناقطين عشراوين (٦) . وروى المبرد أن صعصعة افتدى مائتين وثمانين وليدة (٧) ، وقيل أنه افتدى ثلاثمائة وستين مؤودة (٨) وافتخر الفرزدق بجده صعصعة قائلا :

(١) المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) آية ١٥١ .

(٣) آية ٣١ .

(٤) الكشف ، ٧٠/٢ .

(٥) السابق ، ٤٤٧/٢ .

(٦) الأغاني (بيروت) ، ٣٠٤، ٣٠٢/٢١ .

(٧) الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، ٢٨٩/١ .

(٨) الأغاني (بيروت) ، ٣٠٤/٢١ .

ومنا الذي منع الوائدات : وأحيا الوئيد فلم يؤاد (١)
وكما افتخر قائلا :

أَجَارَ بَنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجِرُّ
عَلَى حِينَ لَا تَحْيَا الْبَنَاتُ وَإِذْ هُمْ
أَنَا ابْنُ الَّذِي رَدَّ الْمَنِيَّةَ فَضْلُهُ
وَفَارِقَ لَيْلٍ مِنْ نِسَاءٍ أَتَتْ أَبِي
فَقَالَتْ أَجِرْ لِي مَا وَلَدْتُ فَأَنْتَنِي
رَأَى الْأَرْضَ مِنْهَا رَاحَةً فَرَمَى بِهَا
فَقَالَ لَهَا فِينِي فَأَنْتَنِي بِذِمَّتِي
عَلَى الْفَقْرِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرٍ
عُكُوفٌ عَلَى الْأَصْنَامِ حَوْلَ الْمُدُورِ
فَمَا حَسَبَ دَافَعْتُ عَنْهُ بِمُغَوِّرٍ
تُعَالِجُ رِيحاً لَيْلُهَا غَيْرُ مُقْبِرٍ
أَتَيْتُكَ مِنْ هَزَلَى الْحُمُولَةِ مُقْتَرٍ
إِلَى خُددٍ مِنْهَا وَفِي شَرِّ مُخْفِرٍ
لِبَنَتِكَ جَارٌ مِنْ أَبِيهَا الْقَنْوَرِ (٢)

وكذلك كان زيد بن عمرو بن نفيل يحيي المؤودات فيكفي آباءهن مؤودتهن إذا كانوا فقراء (٣) .

- ٨ -

الصبر وقوة الإرادة

كان ثمة من يتعرض للفقير الشديد خصوصا زمن الجذب ، فليس أمامه من وسائل لدفع هذا الفقر إلا الصبر والتحمل ، حتى تتكشف الغمة ، ويذهب الجذب ، ويعم الخصب .
يقول ذو الخرق الطهوي مخاطبا زوجته التي برمت بحياتها ، وحثت زوجها على طلب المال ، فخفض من جأشها وأرادها أن تصبر كما صبر ، يقول من ذلك :

(١) السابق ، ص ٣٠٥ . وكذلك في "المحبر" ، لابن حبيب ، ص ١٤١ .
(٢) ديوانه ، ص ٣٧٩-٣٨٠ . الأغاني (بيروت) ، ٣٠٢/٢١-٣٠٣ . المدور يعني الدوار وهو طوافهم حول الصنم . وقيل الدوار : صنم كان يعبد في الجاهلية . المعور : المعيب ، من العار . الفارق : الإبل التي يأتيها المخاض فتفارق غيرها من الإبل وتمضي على وجهها لما يصيبها من الجهد حتى تضع . شبه بها المرأة لانفرادها . هزلى الحمولة : أي إبله هزلى . المقتر : المضيق عليها . وأرادت به زوجها . الخدد : القبر المحفور ، أي رمى ابنته في حفرة ليدفنها حية . القنور : الضيق الصدر الشرس الصعب .

(٣) "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ، لابن حجر العسقلاني ، ١٤٣/٧ .

فِيئِي إِلَيْكَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ صَبْرٌ فِي الْجَدْبِ لَا خَفَةَ فِينَا وَلَا نَزَقُ
إِنَّا إِذَا حَطْمَةٌ حَتَّتْ لَنَا وَرَقًا نُمَارِسُ الْعُودَ حَتَّى يُنْبِتَ الْوَرَقُ (١)

فطبيعة حياة الجاهليين القبلية بتصارعها الدائم وخطرها المائل في صحرائهم القاسية قد ربت
فيهم خلال الصبر والجلد والشجاعة ... (٢) .

(١) الأصمعيات ، ص ١٣٤ . وخزانة الألب ، ٤٣/١ . والمؤتلف والمختلف للأمدي ،
ص ١٥٦ . فيئني إليك : ارجعي إلى نفسك . الحطمة بفتح الحاء وضمها : السنة الشديدة لأنها
تحطم كل شيء . حت الورق : قشره . نمارس : الممارسة شدة العلاج .
(٢) ينظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، محمد التويهي ، ٢٤٥/١ .

الفصل السابع

أخلاقيات ومواساة

الفصل السابع

أخلاقيات ومواساة

لقد اتصف بعض الفقراء في العصر الجاهلي بصفات محمودة ونخلقوا بأخلاق حميدة رغم فقرهم وعوزهم وعيشهم في البؤس والحرمان ، فحافظوا على صفات كان يبجلها الانسان الجاهلي ويكبرها ، كالكرم والعفة والأمانة والوفاء وعدم الغدر والشعور بالعزة والأنفة ، والقوة والشجاعة والصبر ، فكانوا أغنياء في نفوسهم ورجاحة عقولهم . وكانت هذه الصفات من غنى النفس التي زادها القناعة ، والقناعة زاد لايفنى وغنى لا ينفذ .

وكان عزاء الفقراء في كثير من الأحيان في شقائهم وتعاستهم هو تساوي الغني والفقير أمام الموت والفناء. كما كان عزاء لبعض الأغنياء عندما يجودون على الفقراء والمحتاجين ، فلا يحسبون للمال حساباً أمام سخائهم وحسن معاشرتهم للمعتمدين والمساكين ، لأن المرء لا ينفعه ماله ولا تراؤه عند الموت وما بعده .

-١-

أخلاقيات فقراء

١- على الرغم من فقر بعض الناس وقلة مالهم وحرمانهم ، فإنهم أغنياء في نفوسهم ، فغنى النفس عند بعضهم أهم من غنى المال ، وفقر النفس هو الفقر الحقيقي لا فقر المال ، ونجد هذه النظرة لغنى النفس وفقرها في شعر قيس بن الخطيم ، يقول :

غَنِيَّ النَّفْسِ مَا اسْتَغْنَى غَنِيَّ
وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاءُ (١)

ويقول أحيدة بن الجلاح :

وَاسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إِنَّ الْغَنَى مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ (٢)

لذا نجد من لا يخشع إذا افتقر وحزن ولا يطغى إذا استغنى وفرح ، يقول ليبد بن ربيعة:

فَلَا أَنَا يَأْتِينِي طَرِيفٌ بِفَرَحَةٍ
وَلَا أَنَا مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جَارِعُ (٣)

ويقول النابغة الذبياني :

(١) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١٥٨ .

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ... ، ٢١٣/١ .

(٣) حماسة البحتري ، ص ١١٨ .

وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ
وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لِأَرْبِ (١)

٢- الكرم

وكان بعضهم يظل كريماً إذا افتقر (٢) ، جواداً إذا استغنى ، ونرى بعض الشعراء يفتخرون ويتمدحون بأقوام بأنهم كرماء في فقرهم وغناهم ، كما يقول طرفة بن العبد مادحاً بني المنذر بن عمرو :

سَمَحَاءُ الْفَقْرِ أَجْوَادُ الْغِنَى سَادَةُ الشَّيْبِ مَخَارِقُ الْمُرْدِ (٣)

وهذا دريد بن الصمة يقول في رثاء أخيه عبد الله :

وَإِنْ مَسَّهَ الْإِقْوَاءُ وَالْجَهْدُ زَادَهُ سَمَاحاً وَإِتْلَافاً لَمَا كَانَ فِي الْيَدِ (٤)

وهذا علباء بن أرقم يرد على امرأته تماضر التي لامته على استهلاكه المال وتعريضه النفس للمصاعب ، وأخذ يتمدح بكرمه وفروسيته ، وأنه كان ملجأ العشيرة زمن الفقر والجذب ... فهو كريم في يسره وفقره يقول من ذلك :

تَرَبَّتْ يَدَاكَ وَهَلْ رَأَيْتَ لِقَوْمِهِ مِثْلِي عَلَى يُسْرِي وَحِينَ تَعْلَتِي (٥)

٣- العفة

ونجد صفة العفة عند بعض الفقراء ، فإذا افتقر أحد منهم يظل عفيفاً نقياً طاهراً من الرذائل التي تكون ممقوتة في نظر الجاهليين غالباً .

يقول حاتم الطائي في قصيدة له قالها لما تحول عنه جده سعد بن الحشرج فخرج بأهله وخلف حاتم في داره إذ يقول مفتخراً بنفسه :

وَإِنِّي لَعَفٌّ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغِنَى وَوَدَّكَ شَكْلٌ لَا يُوَافِقُهُ شَكْلِي (٦)

(١) السابق ، نفس الصفحة .

(٢) ينظر ديوان عروة ، ص ٧٥ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٦٨ . سمحاء : كرماء الواحد سمح ... المخاريق الواحد مخراق المتوسع في الكرم .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، ٣٣٩/١ . الإقواء الفقر . والسماح والسماحة : الجود والكرم .

(٥) الأصمعيات ص ١٨٣ . والتعلة من عللت كأنه أراد حين افتقر واحتاج إلى العلل أي الحجج أو إلى أن أعلل نفسي كما يعلل العليل .

(٦) ديوانه ، ص ١٠٥ .

وَلَفْتَنِي غَائِلٌ يَغُولُهُ يَا ابْنَةَ عَجَلَانَ مِنْ وَقَعِ الْحُتُومُ (٣)

وكما يشير حاتم إلى مثل تلك المعاني في ديوانه ، فيقول في موضع منه :

أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ (١)

وكما يقول :

إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتَ الْغِنَى ثُمَّ لَمْ تَجِدْ بِفَضْلِ الْغِنَى أَلْقَيْتَ مَالَكَ حَامِدُ
وَمَاذَا يُعَدِّي الْمَالُ عَنْكَ وَجَمْعُهُ إِذَا كَانَ مِيرَاثًا وَوَارَاكَ لِأَحَدُ (٢)

ونرى بعض الشعراء الجاهليين تحدثوا عن الفقر والغنى في شعرهم ، وتعاقب اليسر والعسر ، وكذا المسرة والمساءة .

يقول عدي بن زيد العبادي :

أَلَمْ تَعْلَمُوا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَوْرَةً تَنَاقَلُهَا الْأَيَّامُ عَوْجًا رَوَاجِعًا (٣)

ويقول قيس بن الخطيم في تغير الأحوال في الغنى والفقر :

أَلَمْ تَرَ أَحْوَالَ الزَّمانِ وَرَبِيبِهَا وَكَيْفَ عَلَى هَذَا الْوَرَى يَتَقَلُّ (٤)

ويقول أيضاً :

وَكَائِنْ رَأَيْنَا مِنْ أَنْاسٍ ذَوِي غِنَى وَجِدَّةٍ عَيْشٍ أَصْبَحُوا قَدْ تَبَدَّلُوا (٥)

ولا نعدم من يعزو الغنى والفقر إلى الحظ . كما يقول قيس بن الخطيم :

فَلَا يُعْطَى الْحَرِيسُ غِنًى لِجُرْصٍ وَقَدْ يَنْمِي لِذِي الْعُجْزِ الثَّرَاءُ (١)

ويقول آخر ، وهو رجل من قريع :

مَتَى مَا يَرَى النَّاسُ الْغِنَى وَجَارُهُ فَقِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيدُ

(١) المفضليات ، ص ٢٤٩ . الشقة السفر البعيد . يغوله : يذهب به . الحتوم جمع حتم وهو القضاء .

(٢) ديوانه ، ص ٨٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٧٢ .

(٤) الحماسة للبحتري ، ص ١٢٣ .

(٥) السابق ، ص ١٢٢ .

(٦) ديوانه ، ص ١٣٩ .

(٧) ديوانه ، ص ١٥٧ . وفي حماسة البحتري ، ص ١٣٢ .

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاط قسمت وجود (١)

ويقول الحارث بن حلزة اليشكري :

ولقد رأيت معاشرأ
وهم ذباب جائر
فانعم بجدك لا يضُر
ك التوك إن أعطيت جدًا (٢)

ونرى علقمة الفحل يصرح بأن من كتب له رزق وغنم أطعمه أينما توجه ، ومن كتب له الحرمان وقدر عليه حرم ، فكأنه يريد أن يقول ، فمن رزقه الله فهو مرزوق ، ولا مانع له ، ومن حرمه الله فهو محروم ولا رزق له . يقول علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه
أتى توجّه والمخروم محروم (٣)

فعلقمة الشاعر الجاهلي في هذا البيت يصل إلى اليأس الذي يقوده إلى السلبية المطلقة ، لذلك نراه يقبل على شرب الخمر كما يشير إلى هذا في الأبيات التي تتلو هذا البيت من قصيدته . وتجده كذلك في موضع آخر من شعره يلعن الدهر الذي يبدد الأموال ويسود " أشباه الإمام العوارك " . يقول علقمة :

لحى الله دهرأ دغذع المال كله
وسود أشباه الإمام العوارك (٤)

(١) حماسة البحتري ، ص ١٥٧ . وديوان الحماسة ، لأبي تمام ، ١٨/٢ .

(٢) حماسة البحتري ، ص ١٥٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٦٦ . والمفضليات ، ص ٤٠١ .

(٤) ديوانه ، ص ١٣٠ - من الزيادات - . لحاه : لعنه . دغذع : بدد وفرق . سود : من السؤدد أي جعله سيذا . العوارك جمع عارك وهي المرأة إذا حاضت .

خاتمة

خرجت هذه الدراسة إلى نتائج متعددة أثبت بعضها :

- صور الشعر الجاهلي حياة العرب من حيث خصبهم وجديهم ، غناهم وفقرهم . فوقف الكثير من الشعراء الجاهليين - في كثير من قصائدهم ومقطوعاتهم ، أو في مواضع من قصائدهم في مختلف الموضوعات الشعرية - على ظاهرة الفقر ، إذ كانت من الظواهر الاجتماعية والبيئية التي لا يستهان بها في عصرهم . فأشاروا إلى أسباب الفقر ومظاهره وآثاره ووسائل دفعه . وصوروا الفقراء وفئاتهم وأحوالهم وأساليب معيشتهم ومنزلتهم في المجتمع ، كما صوروا جذب البيئة وفقرها .

ونقل لنا الشعر الجاهلي معاناة الفقراء والمحرومين والمساكين والجائعين وشكواهم من ظلم المجتمع والبيئة لهم ، وقلة موارد كسبهم ، في صورة تستدر العطف من الآخرين عليهم ، سواء كان هؤلاء الفقراء من الرجال أم من النساء والأطفال ، أفرادا كانوا أو جماعات . فقراء الرجال كانوا من الضعفاء والمرضى والعجزة وكبار السن ، ومن المنبوذين والمخذولين من أقاربهم وعشائرتهم ، ومن العبيد والرقيق ، والصعاليك فئة كبيرة من الرجال فقراء ، ومن الغارمين وأبناء السبيل والطارقين والسائلين ، ومن أصحاب المهن التي لا تكفي أصحابها مؤونة العيش ، كالصائد والمشتار والراعي والأجير .. ، ومن جار عليهم الزمان وأصابتهم الخطوب فقراء . والنساء - في الغالب - أشد فقرا من الرجال ، لأن اعتمادهن في الرزق غالبا يكون على الرجال ، فإذا كان الرجل فقيرا فزوجته ومن يعيل من النساء يكن أشد فقرا ، لأنهن بلا حول ولا قوة ؛ ثم إن منزلة المرأة في العصر الجاهلي كانت أقل قدرا ومكانة من الرجل ، فلم تكن تورث ، وليس لها نصيب من الأملاك والأموال كالرجال . والرقيق من الإماء شر النساء فقرا وذلا وهوانا . والأطفال من أبناء الفقراء عامة ومن الأيتام خاصة ، يشكلون فئة من الفقراء المحرومين . فنجد صورة لهؤلاء الفقراء في الشعر الجاهلي ؛ وحالتهم المزرية دليل على فقرهم .

١١- ابن عبد البر النمري القرطبي - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذهن والهاجس ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٢م .

١٢- ابن قتيبة الدينوري - أبو محمد عبد الله بن مسلم :

أ- الأشربة ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٤٧م .

ب- الأنواء في مواسم العرب ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ط١ ، ١٩٥٦م .

ج- الشعر والشعراء ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٤م .

د- عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٣٠م .

هـ- المعاني الكبير ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٤٩م .

١٣- ابن قدامة ، المغني ، نشر مكتبة الجمهورية العربية بالأزهر ، (د.ت) .

١٤- ابن كثير - عماد الدين أبو الفداء اسماعيل الدمشقي ، مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨١م .

١٥- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر بيروت (د.ت) .

١٦- أبو تمام - حبيب بن أوس الطائي :

أ- الحماسة الصغرى تحقيق وتعليق عبد العزيز الميمني ، زاد في حواشيه محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

ب- ديوان الحماسة ، شرح العلامة التبريزي ، دار القلم ، بيروت - لبنان ، ط١ ، (د.ت) .

١٧- أبو زيد الأنصاري ، النوادر في اللغة ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، دار الشروق ، ط١ ، ١٩٨١م .

١٨- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني طبعة دار الثقافة ، بيروت . وطبعة دار الكتب المصرية .

١٩- أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة ، ط٤ ، ١٩٦٢م .

٢٠- الأسود بن يعفر ، ديوانه ، صنعة نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام مديرية الثقافة العامة ، ١٩٦٨م .

٢١- الأصمعي - أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك :

أ- الأصمعيات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥م .

ب- تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، مطبعة المعارف ، بغداد ط١ ، ١٩٥٩م .

٢٢- الأعشى - ميمون بن قيس ، ديوانه ، شرح وتعليق محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٨٣م .

٢٣- الأفوه الأودي ، ديوانه ضمن الطرائف الأدبية (القسم الأول) ، تصحيح وتخريج عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

٢٤- الألويسي - محمود شكري البغدادي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وتصحيحه محمد بهجت الأثري ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط٢ ، ١٩٢٤م .

٢٥- الأمدي - أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، المؤلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٢٦- امرؤ القيس ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٨م .

٢٧- أمية بن أبي الصلت ، شرح ديوانه ، تقديم وتعليق الحواشي سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠م .

٢٨- أوس بن حجر ، ديوانه ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، دار صادر بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩م .

٢٩- البحتري - أبو عبادة الوليد بن عبيد ، الحماسة ، اعتنى بضبطه ووضع فهرسه لويس شيخو ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٦٧م .

٣٠- بشر بن أبي خازم الأسدي ، ديوانه تحقيق عزة حسن ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٧٢م .

٣١- بشير يموت ، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، المطبعة الوطنية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٣٤م .

٣٢- البصري - صدر الدين علي بن أبي الفرج الحسن ، الحماسة البصرية ، تحقيق عادل جمال سليمان ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٣٣- البغدادي - عبد القادر بن عمر ، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

- ٣٤- البغوي - أبو محمد الحسن بن مسعود الفراء ، شرح السنة ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ م .
- ٣٥- البكري - أبو عبيد الأونبي ، سمط اللآلئ ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦ م .
- ٣٦- البلاذري - أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، تحقيق وشرح عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧ م .
- ٣٧- البيهقي - إبراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوي ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠ م .
- ٣٨- تآبط شرا ، ديوانه ، تحقيق علي ذو الفقار شاكرا ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٤ م .
- ٣٩- التبريزي - أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .
- ٤٠- الثعالبي - أبو منصور ، فقه اللغة وأسرار العربية ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان (د.ت) .
- ٤١- الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر :
 أ- البخلاء ، تحقيق طه الحاجري دار المعارف القاهرة ١٩٦٣ م .
 ب- البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجي بمصر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٠ م .
 ج- الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، بيروت - لبنان ، ط٣ ، ١٩٦٩ م .
- ٤٢- الجرجاني - السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن ، التعريفات مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٣٨ م .
- ٤٣- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت . ومكتبة النهضة ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٧٨ م .
- ٤٤- الجوهري - اسماعيل بن حماد ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ م .
- ٤٥- حاتم الطائي ، ديوانه ، تحقيق ودراسة فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- ٤٦- الحادرة ، ديوان شعره ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

- ٤٧- الحارث بن حلزة اليشكري ، ديوانه ، تحقيق هاشم الطعان ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٩م .
- ٤٨- حسان بن ثابت ، شرح ديوانه ، ضبط عبد الرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت - لبنان ، ١٩٦٦م .
- ٤٩- حسين عطوان :
- أ- الشعراء الصعاليك في العصر الإسلامي ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧م .
- ب- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧م .
- ٥٠- الحطيئة ، ديوانه ، تحقيق نعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧م .
- ٥١- الخنساء ، ديوانها ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .
- ٥٢- الدلجي - أحمد بن علي ، الفلاكة والمفلوكون ، مطبعة الآداب ، النجف ، ١٣٨٥هـ .
- ٥٣- ذو الإصبع العدوانى ، ديوانه ، جمع وتحقيق عبد الوهاب محمد علي العدوانى ومحمد نائف الدليمي ، مطبعة الجمهور ، الموصل ، ١٩٧٣م .
- ٥٤- الراغب الأصفهاني - أبو القاسم الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦١م .
- ٥٥- الزبيدي - السيد محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٧٤م .
- ٥٦- الزركلي - خير الدين ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠م .
- ٥٧- الزمخشري - جار الله أبو القاسم محمود بن عمر :
- أ- أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، مطبعة أولاد أرفاند ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٥٣م .
- ب- أعجب العجب في شرح لامية العرب ، تحقيق محمد إبراهيم حور ، نشر سعد الدين ، دمشق - سورية ، ط ١ ، ١٩٨٧م .
- ج- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، (د.ت) .
- ٥٨- زهير بن أبي سلمى ، شرح شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢م .

- ٥٩- الزوزني - أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين ، شرح المعلقات السبع ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
- ٦٠- سعيد الأيوبي ، عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرباط ، ١٩٨٦ م .
- ٦١- سلامة بن جندل ، ديوانه ، تحقيق فخر الدين قباوة ، نشر وتوزيع المكتبة العربية ، حلب ، ط ١ ، ١٩٦٨ م .
- ٦٢- السموأل بن عاديء ، ديوانه مع ديوان عروة بن الورد ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٤ م .
- ٦٣- سميح عاطف الزين ، مجمع البيان الحديث تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري ، بيروت ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٠ م .
- ٦٤- السيد الأمير علي الهندي ، مركز المرأة في الإسلام ، تعريب علي فهمي محمد ، مطبعة الياس زخورا ، (د.ت) .
- ٦٥- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية (د.ت) .
- ٦٦- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٧ م .
- ٦٧- السيوطي جلال الدين ، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، مطبعة محمد علي صبيح ، بميدان الأزهر بمصر ، (د.ت) .
- ٦٨- الشنفرى الأزدي ، ديوانه ضمن الطرائف الأدبية (القسم الأول) ، تصحيح وتخريج عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ م .
- ٦٩- الشنقيطي ، المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، دار النصر للطباعة والنشر ، (د.ت) .
- ٧٠- شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٠ ، ١٩٨٢ م .
- ٧١- طرفة بن العبد ، ديوانه ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- ٧٢- عامر بن الطفيل ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣ م .
- ٧٣- عبد الحليم حقني ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .
- ٧٤- عبد الفتاح الصعيدي ، وحسين يوسف موسى ، الإفصاح في فقه اللغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .
- ٧٥- عبدة بن الطبيب ، شعره ، يحيى الجبوري ، دار التربية للطباعة والنشر ، ١٩٧١ م .

- ٧٦- عبيد بن الأبرص ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٤م .
- ٧٧- عدي بن زيد العبادي ، ديوانه ، تحقيق وجمع محمد جبار المعيد ، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥م .
- ٧٨- عروة بن الورد ، ديوانه ، تحقيق عبد المعين الملوحي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٩٦٦م .
- ٧٩- عفيف عبد الرحمن ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٤م .
- ٨٠- علقمة بن عبدة ، ديوانه ، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ومراجعة فخر الدين قباوة ، دار الكتاب العربي ، حلب ، ط١ ، ١٩٦٩م .
- ٨١- علي العتوم ، قضايا الشعر الجاهلي ، نشر مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٢م .
- ٨٢- علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٠م .
- ٨٣- عمرو بن قميئة ، ديوانه ، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- ٨٤- عنتر بن شداد العبسي ، ديوانه ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠م .
- ٨٥- الفرزدق ، ديوانه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .
- ٨٦- الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مطبعة دار المأمون ، ط٤ ، ١٩٣٨م .
- ٨٧- فيليب حتي ، وآخرون ، تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف للنشر والطبع والتوزيع ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٦٥م .
- ٨٨- الفيومي - أحمد بن محمد علي المقرئ ، المصباح الكبير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ط٧ ، ١٩٢٨م .
- ٨٩- القالي - أبو علي اسماعيل بن القاسم ، الأمالي ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
- ٩٠- قدامة بن جعفر - أبو الفرج البغدادي ، جواهر الألفاظ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٩٨٥م .
- ٩١- القرشي - أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، جمهرة أشعار العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٣م .
- ٩٢- قيس بن الخطيم ، ديوانه ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م .

- ٩٣- الكاساني - علاء الدين أبو بكر بن مسعود ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، الناشر : زكريا علي يوسف ، مطبعة الإمام ، مصر ، القاهرة ، (د.ت) .
- ٩٤- ليبد بن ربيعة ، شرح ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٢ م .
- ٩٥- لقيط بن يعمر الإيادي ، ديوانه ، تحقيق عبد المعيد خان ، دار الأمانة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١ م .
- ٩٦- لويس شيخو ، شعراء النصرانية قبل الإسلام ، دار الشروق ، بيروت - لبنان ، ط ٣ ، ١٩٦٧ م .
- ٩٧- المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب ، مطبعة الإستقامة ، مصر ، ١٣٦٥ هـ .
- ٩٨- المثلث الضبيعي ، ديوان شعره ، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي ، ١٩٧٠ م .
- ٩٩- محمد جواد مغنية ، الفقه على المذاهب الخمسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٧٩ م .
- ١٠٠- محمد النويهي ، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه (الجزء الأول) ، نشر الدار القومية ، القاهرة ، (د.ت) .
- ١٠١- المرزباني - أبو عبيد الله محمد بن عمران ، معجم الشعراء ، تصحيح وتعليق الأستاذ ف . كرنكو ، عنيت بنشرها مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
- ١٠٢- المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٥ م .
- ١٠٣- المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت - لبنان ، ط ٦ ، ١٩٦٤ م .
- ١٠٤- النابغة الذبياني ، ديوانه ، تحقيق شكري فيصل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- ١٠٥- ناصر الدين الأسد ، القيان والغناء في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ١٩٦٨ م .
- ٤٢٠٥٦٧
- ١٠٦- النسفي - أبو البركات عبد بن أحمد بن محمود ، تفسير القرآن الجليل ، المسمى بمدارك التنزيل ، وحقائق التأويل ، الناشر دار الكتاب العربي ، لبنان - بيروت ، (د.ت) .
- ١٠٧- نصرت عبد الرحمن :
- أ- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م .

- ب- الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٥م .
- ١٠٨- نوري حمودي القيسي ، شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م .
- ١٠٩- النوبري - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر ، القاهرة ، (د.ت) .
- ١١٠- الهذليون ، ديوانهم ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- ١١١- وهب بن منبه ، التيجان في ملوك حمير ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٤٧هـ .
- ١١٢- وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٢م .
- ١١٣- ويلكن ، ج . أ ، الأمومة عند العرب ، نقلها عن الجرمانية بندلي صليبا الجوزي . كازان : د . د . م ، ١٩٠٢ .
- ١١٤- ياقوت الحموي - شهاب الدين أبو عبدالله ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .
- ١١٥- يحيى الجبوري ، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي ، مطبعة دار المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .
- ١١٦- اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، تاريخه ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م .
- ١١٧- يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٦م .

Abstract

The poverty in the Pre-Islamic poetry

This study aims to examine the poverty phenomena in the poetry of Pre-Islamic age , and to show the secrets of those poor who had constituted the majority of Pre-Islamic community . They lived in misery and were totally deprived . They became wretched because of their poverty, lack of income and inability to earn their living .

This study tackled the concept of poverty, its meaning and social standards in Pre-Islamic era. I examined the environmental, economical, social and psychological reasons of poverty. I also examined the poverty phenomena represented in Gypsies, wars and generosity. This study also showed the poor people forms, categories, living styles and ethics. I also examined the physical, social and psychological effects of poverty, the means of diminishing it and lessening its harshness and wickedness.

Therefore, this study depended on poems of the Pre-Islamic poets to show the poverty phenomena in that age .